Twitter: @alqareah
15.12.2014

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

هل كنا مثل أيِّ عاشقَين؟

رواية هندية

تأليف : نافتج سارنا
ترجمة: د. منذر محمود محمد

الدوحة 2006

نافتج سارنا

هل كنّا مثل أي عاشِقَيْن؟

رواية هندية

ترجمة:

د. منذر محمود محمد

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث

دولة قطر ـ الدوحة 2006

Twitter: @alqareah

عنوان الكتاب: هل كنا مثل أي عاشقين؟
تأليف: نافتج سارنا
ترجمة : د. منذر محمود محمد
الطبعة : الأولى/2007
الناشر: المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
مركز الترجمة: الدوحة ص. ب : ٢٣٧٠٠ قطر
هاتف: ٤٣٢١١٢٦ ـ ٩٧٤ +
فاكس: ٤٣٢١٤٠٢ ـ ٩٧٤+
التنسيق وإعداد النص: منى لبابيدي الخطيب
رقم الإيداع: دار الكتب القطرية: ٢٠٠٦/٣٣٩
الترقيم الدولي (ردمك): ٥-٨٧-٥٨-٩٩٩٢١

الطبعة العربية:
جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

Authorised translation from the English language edition published by **Penguin Books India 2003, first published.**

العنوان الأصلي للكتاب:

We weren't Lovers like that
NAVTEJ SARNA
Copyright © Navtej Sarna 2003
All rights reserved

الإعداد للطباعة والتوزيع:
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص.ب. ٨٣٧٥ ـ بيروت ـ لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١ +
e-mail: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

تصميم الغلاف: فؤاد رسامني
الإخراج الفني: تركية التالي

Twitter: @alqareah

المحتويات

تقديم الطبعة العربية ٥

المؤلف ٩

كلمة شكر ١١

دلهي ١٥

ساهارانبور ١١٩

روركي ١٨٥

هاريدوار ٢٣٧

ديهرادون ٣٠٩

Twitter: @alqareah

تقديم الطبعة العربية

في إصداره الخامس حول «شجرة الغاف»، في إطار البيئة القطرية وما جاورها، يكون مركز الترجمة في المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث قد سجّل أوّل خطوة للتعاون مع المؤسسات المحلّية في المجتمع، إذ قام باحثون من مركز الدراسات البيئية وكلية الآداب والعلوم في جامعة قطر، بجمع حصيلة بحوثهم حول الموضوع في كتاب علمي، وتولّى مركز الترجمة في المجلس الوطني طباعة الكتاب ونشره من خلال مشروع مشترك لتقديم الثقافة العلمية التي تحتاج في مجتمعنا إلى جهودٍ كبيرة. ويؤمل أن تكون هذه المبادرة فاتحة تعاون وثيق مع المؤسسات المعنية في المجتمع بأسره على اختلاف نطاق عملها وأهدافها.

وفي الإصدار الحالي «ما كنا مثل أيّ عاشقين»، يخطو مركز الترجمة، بمباركة من رئاسة المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث، خطوة أوسع مدى بالانتقال إلى مجال التنويع الثقافي على المستوى العالمي. ذلك أنه بعد ترجمتنا السابقة عن اللغات الإنكليزية والفرنسية والإسبانية، نلتفت إلى الشرق العظيم الذي فيه نبتت جذور المعرفة والثقافة العالمية.

Twitter: @alqareah

وفي هذه المرة اخترنا رواية ممتعة من الأدب الهندي المعاصر تقدم لوحة أنيقة مفعمة بالصدق والصراحة الملطّفة. وتحت جناح الذوق الرفيع تكشف عن طبيعة العلاقات الاجتماعية والعاطفية من خلال الطبقة الوسطى الناشئة المتطلعة إلى حياة أفضل وتفاعل إنساني بين الرجل والمرأة مرهف الإحساس، وفي الوقت نفسه غير مغترب عن واقعية الحياة. ويأتي كل ذلك في سياقٍ لغوي شفافٍ ومطرّزٍ باختراقات تعبيرية ذكية، لما يكمن وراء سطح التفاعلات في مجرى الحياة اليومية عند أناسٍ طبيعيين، يخطؤون ويصيبون، ويحبون ويترددون، ويُقدمون ويندمون .

ويؤمل أن تكون هذه الرواية فاتحةً لتلمُّس أعمال أخرى من ثقافاتٍ متنوعة بين الشرق والغرب، وذلك رغبة في إثراء اختيارات القارئ العربي الذي لم يكن يوماً منطوياً على ثقافته الخاصة والذي يدلّ جوهر حضارته ودورها التاريخي على الانفتاح باتجاه الآخر، واستيعاب الجديد في عملية نقلٍ وترجمة متجاوزة لحدود القارات ومتطلعة للتفاعل مع الرياح الوافدة من خلال أصالة متمكنة تقي الثقافة المحلية من شطط خلع جلدها، ومن الانبهار دون تميز بكل ما يأتي من مراكز البث في الثقافة العالمية، كما يحدث في مجتمعاتنا ومجتمعاتٍ أخرى كثيرة معاصرة.

وحتى إن كان كل ما تقدّم من رأي موضع أخذٍ ورد، يبقى مما لا مراء فيه أنه يحق للقارئ العربي أن يستمتع بمثل هذه الرواية اللطيفة

Twitter: @alqareah

التي تحمل نكهة مختلفة عن الدراسات والبحوث وقريبة نسبياً من التساؤلات وتضارب الاختيارات التي يعيشها مجتمعنا المعاصر.

وإذا كان مؤلف هذه الرواية نافتج سارنا يستحق التهنئة لهذا العمل الأول الذي فتح به باب الإبداع، فإن مترجم الرواية الدكتور منذر محمود محمد يستحق كل شكر لهذه الترجمة البديعة والأمينة التي تثبت أن الترجمة الجميلة ليست بالضرورة خيانة للنص الأصلي بل هي أمانة بإحسان.

ويقتضي الواجب أيضاً أن نوجه الشكر إلى كل من أسهم في إخراج هذا الكتاب بالحلّة الأنيقة التي يستحقها، سواء في تنسيق النص وإعداده للطباعة، أم في التنفيذ الطباعي، وما إلى ذلك من جهود يقتضيها كل كتاب مطبوع، وأخص بالشكر السيدة رنا الحوري الموظفة في المركز.

د. حسام الخطيب

مشرف عام مركز الترجمة

الدوحة، حزيران/يونيو ٢٠٠٦

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المؤلف

وُلد نافتيج سارنا Navtej Sarna في جالاندهار بالهند. بعد إتمام دراسته في كلية التجارة والقانون، انضمّ إلى السلك الدبلوماسي الهندي عام ١٩٨٠. يشغل حالياً منصب الناطق الرسمي باسم الخارجية الهندية في دلهي. سبق له أن عمل دبلوماسياً في موسكو ووارسو وثيمفو وجنيف وطهران وواشنطن. كتب قصصاً قصيرة لإذاعة BBC العالمية، ولصالح London Magazine. كما كتب أيضاً في المجموعتين الأدبيتين Signals و Signals 2. له مراجعات لبعض الكتب منشورة في الملحق الأدبي لصحيفة The Times و Biblio وصحف أخرى. نشر في سنة ١٩٩١ مجموعة بعنوان «حكايا شعبية من بولندا». وهذه هي روايته الأولى.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

كلمة شكر

إنني مدين بأكثر مما أستطيع التعبير عنه لوالديّ: والدتي سورجيت التي علمتني فن قراءة الحياة من كل جوانبها، ووالدي موهيندر الذي حثّني بوكزة لطيفة منه على إنجاز هذا الكتاب. وسيبقى الندم يلازمني ما حييت لأنني لم أنجزه بالسرعة المطلوبة كي يراه مطبوعاً.

وأنا مدين أيضاً لدافيد دافيدار من دار بنغوين، وكان قد قدّمني إلى رافي سينغ الذي أتوجه إليه بكلمة شكر خاصة، لأنه استطاع وهو يحتسي الجعة في بيركلي، أن يرى في المخطوط نواة كتاب من خلال مسودة أولى ضبابية، ومن ثم ساعد في قولبته بصبر وتفهّم مدهشين.

أتقدّم بالشكر إلى جميع أصدقائي، وأخص منهم بالذكر كلاً من ناصر ونيراج اللذين أغنت أحاديثهما العديدة حياتي. كما أشكر أختي جاسكيران التي أبقت صلتي حية بالوادي الذي كان جميلاً في ما مضى. وأخيراً أتوجه بالشكر إلى العزيزين : ابني ساتاييت وابنتي نورين، فقد قاما بالتضحية بالعديد من عطل نهاية الأسبوع، وما زالا

Twitter: @alqareah

يقومان بتشجيعي من أعماقهما من على خطوط التماس.

نافتيج سارنا

شكر خاص من المترجم

أتقدم من السيد راميش كاتاواني، الاختصاصي اللغوي في مختبر اللغة الإنجليزية بجامعة قطر من التابعية الهندية بشكر خاص على ترجمته إلى اللغة الإنجليزية للعديد من الكلمات والعبارات والمصطلحات الهندية الواردة في هذا النص الروائي.

د. منذر محمود محمد

Twitter: @alqareah

إلى أفينا

التي آمنَت بإمكان إنجاز الرواية

Twitter: @alqareah

«أنا نادم على قطف زهور البنفسج

ونادم على عدم قطفها»

قول مأثور

Twitter: @alqareah

دلهي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

-١-

أنا مسافر. هذا هو الشيء الوحيد الذي أشعر بأنني ما زلت أجيد القيام به: الهروب. وسرى في عروقي من جديد، إحساس غريب خلته منسياً تجاه تلك التلال الخضراء النضرة.

المدينة نائمة في ذلك الصباح الباكر، في الوقت الذي أرمي حقائبي داخل سيّارة الأجرة. يلقي سائق السيارة ومعه شخص أصغر منه سناً عليّ تحية الصباح وهما يتثاءبان. يعتمر الاثنان قلنسوتين بلون الزعفران بشكل فوضوي وبعيد عن الترتيب. يقوم كل منهما بتمشيط لحيته الطويلة بيده بشكل لا شعوري. آمل ألا يبدأ أي منهما معي حديثاً أو يسألني عن الوجهة التي أقصدها، أو عن موعد عودتي. تسير بنا السيارة في شوارع دلهي المقفرة. نترعرع معاً أنا وهذه الشوارع. تتوسع هذه الشوارع بدءاً من حارة واحدة تسير عليها الدرّاجات، إلى حارتين ثم إلى أربع، وبعضها يتحول إلى ثماني حارات. وخلال هذه الفترة يتساقط شعر رأسي ، وأبدل نظّارتي مرات عديدة، ويزداد وزني حول الخصر بضع أونصات. أرى الناس نياماً على الأرصفة، وداخل مظلات مواقف الحافلات وعلى المقاعد الحجرية، وعلى العربات الخشبية. أشاهد كل الأشياء الموسمية:

Twitter: @alqareah

الفستق السوداني المحمص في قِدر طيني أسود موضوع على نار خفيفة، وثمرالجامون المغلّف بالملح الذي يسبب جفافاً في الفم، والبيض المسلوق المشطور والمعروض للبيع تحت الضوء الخافت لمصباح يعمل بالبافارين. لكن الجميع نائم الآن. تنعطف سيارة الأجرة حول منطقة كونوت، ثم تدور تحت الجسر لتتوقف في نقطة تجمع السيارات خارج محطة دلهي للقطارات.

سبق أن رأيت هذه المحطة في ليالٍ صيفية مزدحمة، حين كانت العربات ذات العجلات الثلاث، وسيارات الأجرة، والعربات ذات العجلتين التي تتسع لشخص واحد ويجرها رجل واحد، وعربات التونفا، تتجمع كلها تحت الأضواء البيضاء والزرقاء لسكة القطار. الحمّالون الذين يحملون صناديق وفُرشاً مطوية يهرعون صعوداً وهبوطاً على عتبات الدرج القديمة لجسر المشاة الصدئ الذي يؤدي إلى أربعة عشر من الأرصفة المضاءة بأنوار حمراء وصفراء منبثقة من هذه الآليات. يباع الشاي والبسكويت على عربات من الفولاذ كما يعرض الكعك الأصفر على صحون رطبة. يملأ الناس الماء في قوارير بلاستيكية من نافورة حجرية قديمة. غالباً ما كنت أرى هذه الجلبة: يحضّر الناس أنفسهم للسفر مرتدين الكورتا، وهو اللباس التقليدي المريح المكون من سروال فضفاض، وفوقه قميص مريح طويل وخفّ مصنوع من المطاط. كانت وجوههم مغسولة ومنظفة جيداً، وشعورهم مُسرَّحة بما يتناسب مع تلك الأمسية. جميعهم

Twitter: @alqareah

مسافرون؛ قاصدون وجهة أخرى. كلهم عائدون إلى حيواتهم الحقيرة، وإلى وظائفهم الحقيرة، وإلى علاقاتهم الحقيرة، مع الأزواج والحموات. يحضرون حفلات الزواج وحفلات الولادة والمآتم من دون وعي أو تفكير.

لكن الآن، في هذا الصباح الباكر، يبدو رصيف المحطة نظيفاً وشبه هادئ. هناك نفر من المتسولين وحفنة من المسافرين في انتظار قطار شاتابادي السريع الذي سيقلهم إلى ديهرادام.

«سيّدي، هل أنت في حاجة إلى حمّال»؟

أنظر إلى وجهه الذي عفَره الزمن، والمنتفخ ببقع متورمة، وإلى شعر ذقنه الأشيب المبعثر على خدّيه. أتساءل عن سبب مناداته لي بعبارة «سيدي». ربما كان ذلك بسبب قميصي القطني النظيف وسروالي الكاكي، أو بسبب حذائي الرياضي، أو ربما بسبب أنني أحلق ذقني كلّ صباح. ربما قالها لأنه لا يعرف أن يستعمل كلمة أفضل منها. يبدو أن كل شخص على هذا الرصيف بالنسبة إليه هو «سيّد»؛ أو بمعنى آخر، شخص يمكن أن يعطيه عشر روبيات.

في الواقع أنا لست في حاجة إليه. فحقيبتي ليست ثقيلة جداً، كما أن حجزي على القطار سليم من حيث التوقيت؛ واسمي مثبت على الجدول في منتصف الرصيف: أفتاب شاندرا، ذكر، العمر ٤١ سنة، العربة رقم سي ٦، المقعد رقم ٣٠. اللوحة تذكر كل ما هو ضروري، لا

Twitter: @alqareah

أكثر ولا أقل. ومع ذلك، فقد تركته يحمل لي الحقيبة. في حركة خفيفة من يده اليسرى يثبت قطعة من القماش البنّي على رأسه، ويضع حقيبتي فوقها. يشرئب عنقه ويبدأ بالسير بخطى ثقيلة في اتجاه القطار الذي يلج الآن إلى المحطة. شاخ وهو يصعد ويهبط على تلك الأرصفة. كذلك شاخ ذلك المكان المتوضع بين جانبي جدران دلهي المتداعية، وعلى ضفّتي النهر العجوز الممتد عبر السهل مروراً بتلك التلال ووراءها حيث سيقلّني القطار. أما الرائحة المقددة المنبعثة من ذلك العالم الخَرِف فتثير في نفسي شعوراً بالغثيان. لم أعد أطيق خداعه المتلوي ووعوده الكاذبة. إن رحلتي على متن هذا القطار تمثّل لي استرداداً لعالمي الخاص.

-٢-

مع بداية القرن الجديد بلغت سنّ الأربعين. أميل إلى الظن بأن هذا يمثّل حدثاً بحدّ ذاته، ويصلح أن يكون مادة لأحاديث لا تنتهي. إنها مصادفة طريفة. لا يمكنني أن أطلق عليها أي تسمية أخرى، وهي من الطرافة بحيث أنها من المفترض أن تكون مناسبة لترتيب العديد من الدعوات لي، وذلك للاحتفال بنهاية القرن، إذ كان يمكن أن يتم التعريف بي في هذه الاحتفالات كحدث سماوي فريد من نوعه. أما ما جعل الأشياء تبدو أكثر سوءاً فهو أنّ الحدث لم يكن فقط نهاية قرن بل نهاية ألفية. وهذا ما جعل من بلوغي الأربعين احتفالية عالمية. وكان

Twitter: @alqareah

سيتم التخطيط لهذا الحدث قبل عشرين سنة، في وقت لم تكن لديّ فيه أي فكرة عمّا تعنيه مسألة بلوغ الأربعين، وفي وقت لم يكن يهمني أن يكون لديّ حساب معقول في البنك أو نظّارة أنيقة للقراءة، أو وزن زائد عند الخصر، أو تعوّد شرب الخمر، أو ماذا يعني أن ينزلق عنّي الزمن. لقد بدأ الناس بتخزين الشمبانيا منذ سنة ١٩٨٢، وبدؤوا بحجز الطاولات في ساحة تايم سكوير في سنة ١٩٨٥، واشتروا بطاقات لحفلات الروك قرب القطب الشمالي. كما تم التخطيط بعناية فائقة للقيام برحلات إلى جزر جالاباغوس، وتمّ إنفاق ثروات طائلة للحصول على امتياز التحديق في ضوء القمر في تاج محل عندما يقرع الجرس مبشراً ببلوغي سن الأربعين. كل شيء مرتبط بعيد ميلادي الأربعين: البورصة والاضطرابات السايكوسوماتية، وارتفاع معدل جرائم القتل واليو تو كي، والذعر وثورات الغضب ومرض الكآبة والمتعة. ثمة أشخاص كوّنوا ثروات وآخرون فقدوها وهم ينتظرون هذا الحدث الجلل؛ انهارت زيجات كان يُعتقد أنها راسخة كالصخر والْتَمّ بقوة سحرية شمل عشّاق انهارت علاقاتهم منذ فترة طويلة.

عندما حانت اللحظة أخيراً، كنت أشاهد التلفاز؛ لكن لم يكن ما يقدمه يثير الإلهام. لم تكن لدى القيمين عليه معرفة بالطريقة التي يجب أن يتعاملوا فيها مع هذه اللحظة. من السهل أن يتم انتقاء بعض المشاهد لتوصيف السنة، وأظن أنهم كانوا يملكون القدرة على فعل

Twitter: @alqareah

ذلك في حال أرادوا توصيفاً لمائة سنة. أما أن يقوموا بتوصيف ألفية فهذا ما لم يكن في مقدورهم فعله البتة. في النهاية تخلوا عن الفكرة واستبدلوا بها عرضاً لسدادات الفَلّين التي تتطاير من القوارير في أنحاء العالم كافة، في الوقت الذي كانت فيه الشمس تغرب ذلك اليوم. وما سهّل الأمر عليهم أن الشمس تغرب في أنحاء العالم المختلفة بأوقات متفاوتة؛ فقد كان في الإمكان بسط هذه البرامج على امتدادات زمنية أكبر بحيث يصل الجميع إلى الإحساس بالملل من الأضواء المبهرة وقصاصات الورق الملونة المنتشرة في كل مكان، وأصوات أبواق السيارات والألعاب النارية التي تملأ السماء.

لم أكن لأعير أدنى اهتمام لفكرة أنني أصبحت في الأربعين أو حتى في الثمانين من عمري. لم يكن ذلك ليشعرني بسوء أكثر مما أشعر به الآن. فقد بدأ العالم من حولي يتداعى بشكل لا يمكن السيطرة عليه؛ إذ إنني أشعر بأن كل ما ألمسه ينزلق من بين أصابعي. لكنني بدأت أخيراً بالتوقف عن لوم الآخرين وبدأت أتساءل فيما إذا كان هذا الانهيار بسبب خطأ مني.

أظن أن تلك كانت بداية أزمة منتصف العمر بالنسبة إليّ. فقد كنت في انتظار هذه اللحظة طيلة عمري، أو نصفه على أقل تقدير. تأتي هذه اللحظة، كما قيل لي، بأشكال مختلفة تتفاوت من شخص لآخر: عندما يموت مثلاً والد أحدهم، أو عندما يمرّ أحدهم في تجربة جنسية عابرة؛ ومن الممكن أن تأتي هذه اللحظة أيضاً في عيادة

Twitter: @alqareah

لطبيب بإحدى الضواحي بعد تفحصه تقرير تحليل الدم، حين ينزع الطبيب نظارته الطبية ليشرح بنبرة تشاؤمية أن مستوى الكوليسترول في دم المريض بالإضافة إلى مستويات كل الأشياء الأخرى عنده جاوزت بكثير الحد الأعلى الطبيعي، وأنه كان عليه طبقاً لذلك أن يتوقف ومنذ اليوم السابق عن تناول كافة الأطعمة التي يحبها.

بالنسبة إليّ كانت الأزمة تتلخص في مفكرة هواتف ضائعة.

كانت مفكرةً قديمة تلقيتها قبل بضع سنوات على شكل هدية مترافقة مع اشتراك سنوي في مجلة أخبارية نصف شهرية. كان من الواجب عليّ في الواقع أن أطلب إلى أحدهم في المكتب الاحتفاظ بتلك المفكرة. ولو فعلت، لكان ذلك صحيحاً من الناحية الأخلاقية. لكن كان هنالك شيء يتعلق بهذه المفكرة: شيء يشعرك بأنها تنتمي إلى عالم العاديات الموحي بالثقة والاطمئنان؛ ربما كان مبعث ذلك هو تلك القطعة القماشية الرمادية التي تغلفها على شكل العمود الفقري لسمكة سردين، ذكّرتني بمعطف والدي الذي يعود إلى خمسين سنة خلت؛ وهذا ما جعلني عاجزاً عن مقاومتها. دعني أعترف هنا بأنني لم أستطع يوماً مقاومة قرطاسية مثل أوعية شرائط التسجيل الشفافة، أو مبراة بلاستيكية، أو خرازات صغيرة، أو حتى نازعة الدبابيس، أو أقلام متعددة الألوان، أو أغلفة الملفات، أو دفاتر الملاحظات... هناك ثلاثة أدراج في طاولتي، ورف كامل في خزانتي، مليئة بهذه الأشياء. بدأ الصدأ يعلو الخرازات كما بدأ يجف حبر الأقلام المتعددة

Twitter: @alqareah

الألوان وأقلام التخطيط. لكنني كنت أجمعها من أي مكان كنت أحصل عليها منه وأخزّنها: من المكاتب والمحلات ومن على طاولات الكتابة... في البداية كنت أنفق النقود على اقتناء هذه الأشياء. في أول رحلة لي إلى الخارج، وكنت يومها في الثانية والعشرين من العمر، أنفقت مبلغاً كبيراً في محل للخردوات لشراء أغلفة رسائل بالبريد الجوي، لها شكل مربّع، بالإضافة إلى كمية ضخمة من الورق المتعدد الألوان. إنها لا تزال على طاولتي، وهي، ويا لسعادتي، لم تستعمل قط. تابعت فيما بعد، هذه الهواية التي وصلت إلى حد الشغف، بكلفة أقل؛ ذلك أنني ضممت كل هذه القطع وبكلّ عناية واهتمام إلى مجموعتي الخاصة. وبناء عليه فقد أخذت تلك المفكرة بالرغم من أنني فقدت اهتمامي بتلك المجلة نصف الشهرية لعدم قدرتها حتى على المحاكاة الباهتة لنظيراتها من المجلات الإخبارية الأمريكية.

كانت هذه المفكرة خاصة بأصدقائي، إذ لا مكان لمعارفي فيها. كنت واضحاً جداً حول هذه النقطة. كانت مكرسة فقط لأولئك الذين كنت أود أن أراسلهم مستلهماً ما أكتبه من نور محدد منبثق من السماء في الليل، أو من مرور أغنية ما في ذاكرتي. وكانت مخصصة أيضاً لأشخاص أتصل بهم فقط لسماع أصواتهم بمجرد أن يخطروا في بالي حتى إن كانوا في الطرف الآخر من العالم. كانت العناوين في المفكرة تُقطَع وتتغير من سنة لأخرى. أما الآن فقد أضحت أرقام الهواتف أطول، وأضيفت عناوين البريد الإلكتروني إليها؛ كما بدأت

Twitter: @alqareah

بالظهور فيها أسماء لأزواج وزوجات وحتى لأولاد بين أقواس. كنت أستطيع أن أروي كيف تغيرت أنماط حياتهم ربما بطريقة أفضل مما يستطيعون هم أنفسهم القيام بها. كانت مدونة بأسلوبي الأنيق في الكتابة وهو ذلك النوع من الكتابة الذي أجيد القيام به عندما أقوم بتدوينه في مفكرة العناوين؛ وهو عبارة عن ثلاثة أسطر قصيرة باللون الأسود موازية لمساحة تستوعب رقم هاتف مكوَّناً من خمسة أرقام تليها خربشات بقلم حبر أخضر مشطوبة، تتم إعادة كتابتها أخيراً بحبر أزرق يحل محل المدخلات الأولى. كل هذه الأشياء مدونة في المفكرة: تحركات أصدقائي من المدن الصغيرة باتجاه دلهي وبومباي وإنجلترا الممطرة أو أمريكا النائية. كانت هذه المفكرة بمثابة ردّي الحاسم على منظمي المفكرات الإلكترونية والرقمية التي حلت محل المفكرات التقليدية، وأسوأ هذه البدائل كان ذاك الذي أطلق عليه رمز «بي. دي أي». أردت أن أتجنب التعامل مع هذه التقنيات. فأصدقائي ينتمون إلى عصر آخر وكنت أعتقد أن صداقاتي هي من النوع الصلب والمختلف.

ثم، وبعد أن هجرتني مينا بثلاثة أيام، فقدت المفكّرة.

ومع فقدان هذه المفكرة، ضاع مني الاستقرار الوحيد المتبقي في حياتي، ألا وهو مصداقية الذكريات القديمة المتعلقة بارتباطات هشة مرمية كورود مهشمة في مساحة شعوري، وضاع مني الشعور بالارتباط ببطاقة تهنئة بعيد الميلاد أو بعيد رأس السنة؛ وهو شعور لا

Twitter: @alqareah

يقدر بثمن (تزداد قيمته مع التقدم في السن). وبدا لي أن جميع من اعتقدت أنهم الأصدقاء الخُلَّص القدامى الذين كنت أخالهم سيكونون إلى جانبي مهما تكن الظروف، قد قاموا جميعاً وبحركة مدروسة بالتخلي عني. شعرت بأن موقفهم يشبه روح الفريق الذي قاده بروتوس. هل كان ذلك بسبب أنهم، وبعد مرور أربع عشرة سنة من الحياة العائلية، بدؤوا يظهرون ميلاً إلى مينا أكثر مما يظهرونه لي؟ هل وجدوها أكثر أناقةً مني، وأكثر أهلية للثقة وأكثر حرارة وعقلانية؟ هل هذه هي جملة الأسباب التي حدت بهم إلى التخلي عني مثلها؟

دعوني أقرّ لها بالآتي: حاولت مينا تسهيل الأمر عليّ بطريقتها الخاصة حتى في اليوم الذي أخبرتني فيه مرة أخرى عن علاقتها براجيف. كان ذلك قبل أسبوع من حلول عيد الديوالي، عندما أطلب لنفسي عادة إجازة ليوم أو يومين أهيم فيهما على نفسي في الأسواق، وأتسكع في شرفات مبنى شركة النفط الهندية، وأشتري بقايا أشياء لا لزوم لها، مثل السراويل والقمصان الفضفاضة التقليدية المصنوعة من قماش الكادي الذي يباع في مراكز تجارية تقليدية، مستفيداً من عروض التخفيض بنسبة عشرة في المائة التي تطرح في شهر تشرين الأول/أكتوبر، كما أشتري زوجاً من الأحذية البنية المصنوعة من الشاموا، وحافظة نقود جديدة من المصنوعات اليدوية الكشميرية. وهذه المشتريات لا تعدو أن تكون جزءاً متمماً لروحية العيد التي تتميز بالرغبة في البذخ الحذر المؤدي لا محالة إلى ليلة عيد الديوالي

Twitter: @alqareah

المتهورة، عندما أبدأ بلعب الورق. أبدأ اللعب بمبلغ صغير لكنه كافٍ ليثير فيّ الحماس للّعب، في مثل هذا اليوم أمارس بعض الأفعال التي لا أقوم بها في الأيام العادية مجرباً حظي في اللعب، ومحاولاً وضع أعصابي في ثلاجة، وأنا ألعب الجولة تلو الأخرى، مجبراً أولئك الذين حالفهم الحظ أكثر على الانسحاب من اللعب. لا أقامر أبداً إلا في عيد الديوالي. ففي هذا اليوم يتحول القمار إلى نوع من الاحتفالية.

هذا يذكرني بالطريقة التي كنا نلعب فيها الورق في الأيام الخوالي في منزل جدتي. كان اللعب يجري فوق اثنتين من الملاءات البيض، تفرشان على سجادة الميرزابوري الحمراء والسوداء في غرفة الجلوس. كانت كومة الأحذية متوضعة على طرف السجادة، في الوقت الذي كان فيه الأعمام والعمات وأبناء وبنات الأعمام والعمات يدخلون الواحد تلو الآخر، وهم يخرجون بطريقة استعراضية النقود من حافظاتهم ويتبدلونها بقطع نقدية معدنية ثم يحشرون أنفسهم في الدائرة وهم يسألون الأسئلة المعتادة عن قوانين اللعبة: هل ١ و٢ و٣ أعلى من الملك والملكة والشاب...؟ وكانوا يعيدون طرح هذه الأسئلة كل سنة ليثبتوا أنهم ليسوا مقامرين في واقع الأمر. ثم، وبعد أن يبدأ التوتر المكبوت بالانفراج، وتمرر أكواب الشاي الموضوعة على صوانٍ دائرية الشكل، وبعد أن يبدأ خلط أوراق اللعب من جديد، كنا نشعر بحميمية عيد الديوالي ونشكر الله أن العائلة كلها مجتمعة. وما كان يبعث الدفء في قلبي

Twitter: @alqareah

رؤية جدتي تبتسم وهي جالسة على الأريكة يلفها شال كشميري كريمي اللون، مطرز بورود حمراء وخضراء صغيرة. وبين الفينة والفينة، كانت تسأل لتعرف من يربح ومن يخسر.

في الخارج، يمكن للمرء وهو يقف على الشرفة المطلة على الحديقة من جوانبها الأربعة، والتي تحتوي على نافورة وسياج غير مرتفع ومقاعد حجرية جديدة، أن يشم رائحة المفرقعات النارية المنبعثة من الدخان المتصاعد ذي الرائحة اللاذعة، والذي يتجمع حول مصباح النور المضاء ليلاً. بعد انقضاء عيد الديوالي يتحول لون نور الشمس إلى الأصفر وتشوبه مسحة من الدفء، كنا حينئذ نلعب الكريكيت التي نظهر فيها مواهبنا ونحن نقذف بكرة إثر كرة بطريقة مشابهة للعب البطولي، الذي كان يصلنا وصفٌ له من المباريات التي كانت تجري على ملعب فيروزيشاه كوتلا، نستمع إليه على جهاز راديو ترانزستور من نوع فيليبس. حاولت أن أشرح لأنكور متعة الاستماع إلى التعليق على مباريات الكريكيت في الراديو، والإثارة التي كنا نشعر بها ونحن نقوم بتوليف صحيح لمحطة البث، بينما نجلس بشرود في تلك الحديقة المشمسة ونجتر أوراق العشب الطرية، ونستمع إلى صوت كل من ديفراج بوري و بيرسون سوريتا وهما يصفان منظر هذه الظلال المنبسطة على امتداد الملعب، ونتخيل الجمال الخارق لرمية واديكار الأخيرة التي تتجه بسرعة نحو حدود الملعب، أو الدهاء الشيطاني لرمية شاندرا المخادعة التي تصيب رجل بارينغتون قبل تسجيل

Twitter: @alqareah

النقطة السابعة والتسعين. لكنني لا أعتقد أنه فهم شيئاً مما قلته. وأنا هنا لا ألومه، فالتلفاز قتل كل تلك المتعة.

خلال السنوات التي كنا فيها نعيش في ديهرادوم بعيدين جداً عن دائرة جدتي الحميمة على السجادة ذات اللونين الأحمر والأسود، كنا نشكل الدائرة الخاصة بنا: أبي وأمي وأختي وأنا، كنا نلعب بالورق لفترة وجيزة بطريقة احتفالية، في الوقت الذي كانت تسمع فيه أصوات المفرقعات في الخارج. كان ما يجري هو أننا كنا نتناول شراب عصير الرمان في الوقت الذي كان يسمع فيه دويّ المتفجرات، وأصوات الصفير المرافقة لفرقعة الألعاب النارية، والأسهم النارية والمفرقعات التي تدور حول نفسها بطريقة حلزونية على الأرض الرخامية. ويأتي بعد ذلك دور الحلويات التقليدية التي كانت تُطبخ في أوانٍ جديدة، تشتريها والدتي دائماً قبل يوم واحد من حلول عيد الديوالي. وكانت هذه عادة مستحكمة غريبة عند والدتي التي لم تكن تصرّ على أيّ شيء آخر.

في مثل ذلك اليوم قررت مينا أن تتحدث إليّ مرة أخرى عن راجيف.

مالت شمس الشتاء في اتجاه طاولتنا، بالقرب من العمود الأسود على شرفة صالة تريفيني. في الصيف كنا نجلس في الداخل إلى طاولتنا الصيفية المعتادة على مقاعد قليلة الارتفاع لها جوانب مطرزة؛ لكننا في الشتاء كنا ننتظر أن يقوم نادلو المطعم بتحضير

Twitter: @alqareah

طاولات الشرفة بغض النظر عن الوقت الذي يستغرقه ذلك. تحت الشرفة، وفي المنطقة المفتوحة التي كانت تستخدم أحياناً كخشبة للمسرح؛ ووراء تلك النباتات الخضراء الممتدة بغير اتساق، والورود المزروعة في قدور بنّيّة، كان يقام في وقت متزامن معرض وسوق للمزاد العلني. كان الناس يتجولون في المعرض، ويشترون الحقائب الجلدية والألبسة التقليدية والقرطاسية والأوراق المصنعة يدوياً.

قلت لكيشان، وهو نادل الشرفة المزمن: «أريد طبقاً من البطاطا والخبز والصلصة باللبن والفلفل والخيار».

أجاب وهو يمسح الطاولة بشكل دائري بالرغم من أنه لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، ودون أن يرفع رأسه: «لم تعد الصلصة متوفرة لدينا».

«أحضر لي طبقاً من الكباب إذاً».

قالت مينا: «أحضر لي الطبق نفسه»، وأضافت: «وأيضاً ماءً من دون ثلج».

كنت أراقب وجهها وأنتظر. كنت أعرف من خلال الطريقة التي كانت تنظر فيها إلى ما وراء رأسي، والطريقة التي كانت بها تزمّ شفتيها، أنها غارقة في التفكير. كان الخال البنّي قرب عينها اليمنى، والذي كانت تستعمل أحمر شفاهٍ يتماشى مع لونه، يرتعش تماماً مثل كل مرة كانت تشعر فيها بالتوتر. عرفت أنها تريد أن

Twitter: @alqareah

تقول لي شيئاً. ولكن ما ستقوله لن يؤدي إلى مجرد شجار بيننا. فالشجار يمكن أن يحدث في أي مكان، في غرفة النوم أو في المطبخ أو عند التجوال داخل المنزل أو عند إغلاق النوافذ أو خبط الأبوَاب أو أثناء ترتيب الكتب على الرف أو فرش الصحف على الأرض. يمكن أن يستمر الشجار في السيارة وأن يتوقف عند إشارة المرور الحمراء، كي لا يسمع ركاب السيارة المجاورة الكلمات النابية المتبادلة. هذا النوع من الشجار لا يعني أن الأمور تتغير، ما يعنيه هو أننا لسنا سعيدين بما يجري بيننا، ولم يكن ذلك يعني شيئاً أكثر من المعتاد؛ فغالبية الناس الذين أعرفهم ربما لم يكونوا سعداء بالواقع الذي يعيشونه. لذا فالحياة تتابع سيرها كالمعتاد في الوقت الذي نتشاجر فيه.

قامت مينا بخلع أساورها وخاتميها، ثم وضعت خاتميها من جديد في إصبعها الثالثة: خاتمها الماسي الذي أهديتها إياه يوم الزفاف، وخاتم الياقوت الذي كانت تعتقد أنه يجلب لها الحظ. مضت برهة وهي تحرك إصبعها وتفرك ماسات الخاتم بإبهامها بقوة. فتحت حقيبتها ووضعت فيها الأساور ثم أغلقتها بسرعة. خلت للحظة أنها سوف تنفجر بالبكاء.

«أعرف أن ما سأقوله سوف يؤذي مشاعرك و... وأعرف أنك لن تسامحني أبداً».

Twitter: @alqareah

«ما المسألة؟» سألتها بما يشبه المزاح. «لن تتركيني، أليس كذلك؟»

«أظن ذلك. لقد فكرت في هذه المسألة لمدة طويلة. لكني أشعر الآن بأني وصلت إلى هذه النقطة. يجب أن أقوم بعمل ما، حيال هذا الموضوع».

«هل من الضروري أن نتحدث عن هذا الموضوع هنا؟»

لم تقل شيئاً. وصلت أطباق الطعام والماء من دون ثلج. رتب كيشان الصحون ثم السكاكين والشوك الملفوفة بمحارم ورقية. بدأنا نأكل بصمت واضطراب. أكل الناس وبدؤوا بمغادرة المطعم. الطاولات بدأت تفرغ من شاغليها الواحدة إثر الأخرى. بدأ كيشان يحوم حولنا: يأخذ الصحون ويأتي لنا بالقهوة الممزوجة بالحليب.

بادرتها بالقول: «يمكنك أن تخبريني الآن، مهما كان الموضوع فلن يكون بالسوء الذي تتصورينه».

عندما نطقت هذه الكلمات لم أكن أنظر إلى مينا. كنت أراقب ما يجري خارج الشرفة الرمادية والخضراء، حيث كانت تتم عملية بيعٍ لزوج من أغطية المخدّات.

التزمت مينا الصمت وهي تحرك قهوتها.

سألتها وأنا أنظر في وجهها مباشرة: «هل المسألة تتعلق براجيف؟»

Twitter: @alqareah

صمت.

«أليس كذلك؟»

لفت صوتي العالي انتباه شخصين يجلسان إلى الشرفة.

«نعم». أحسست بأن تنهيدة ارتياح رافقت هذه الكلمة التي همست بها.

«وطبعاً كما نعرف، فهذه ليست المرة الأولى».

«لا».

لم يعد هناك ما يقال. بدأ كلانا يرشف قهوته. كانت القهوة حارة جداً، ولسعت حرارتها لساني.

«كنت تعرف». قالت هذا بما يشبه الاتهام كما لو أنني اختطفت حلمها، وأكملت قراءته طيلة الليلة التي سبقت يوم العرض الكبير.

أومأت بالإيجاب. كانت شفتي السفلى ترتعش وقد تبينت هذا فيما بعد. أرخيت بمرفقي على الطاولة ووضعت ذقني في راحة يدي. كان شيء ما يجلد عينيّ.

هناك، وراء سياج الشرفة، كانت صفقة البيع قد تمّت بنجاح. قام البائع بتوضيب الغطاءين؛ وفي اللحظة التي سلم البائع البضاعة للمرأة التي كانت بلباسها التقليدي الفضفاض، انتفضت وكأن مشطاً

Twitter: @alqareah

خشبياً علق في شعرها الكثيف، فقامت المرأة بفتح الكيس من جديد لتتأكد من أنها اشترت البضاعة الصحيحة.

قلت في سري: «لا تثق بأي شيء أبداً».

بدأ كيشان يحوم حولنا من جديد، يأخذ فناجين القهوة ويضع بقشيشه في جيبه ـ كنت أسمع حفيف قطعة القماش التي يمررها بسرعة على الطاولة. كانت الدوائر التي رسمتها فناجين القهوة على الطاولة تمّحي إلى الأبد وتختفي مع عصر ذلك اليوم.

-٣-

كل ذلك تم بطريقة متحضرة جداً وعصرية جداً. تعاركنا مرة واحدة فقط خلال مدة الأيام العشرة التي قضتها في المنزل، بعد أن أخبرتني بأنها ستتركني. حدث هذا العراك في الليلة التي سألتها فيها عن أنكور.

«طبعاً سوف يذهب معي. ماذا تتوقع غير ذلك؟»

«ولماذا سوف يذهب معك؟ فهذا اللعين هو ابني».

«لا تشتم الولد. هذه ليست غلطته».

«أنا لا أشتمه، فكل ما جرى هو نتيجة لأخطائك في أي حال».

Twitter: @alqareah

«إنه يافع جداً. يجب أن يكون في رعايتي. لا تستطيع أنت الاعتناء به. لن أتركه هنا تحت أي ظرف من الظروف».

أظن أنني حينها كسرت بعض الأشياء. فقد خلّفَت زجاجة حبر كسرتها بقعة كبيرة زرقاء وسوداء على جدار غرفة النوم بالقرب من خزانة الثياب. كما قمت بتكسير فازة من الكريستال للزهور، بولونية المنشأ، كنت أعلم أنها تحبها بشكل خاص. تشظت إلى قطع حادة يمكن لأي منها أن يقطع شرياناً. صفقت الباب وغادرت الغرفة وهي تصرخ بأنني مجنون وأن تلك ليست الطريقة التي تتم بها تسوية الأمور. وبينما كنت ألملم شظايا الكريستال وأضعها فوق صحيفة خطرت لي فكرة في لحظة هياج أنني يمكن أن أقاضيها في المحكمة وأطلب حق الوصاية على أنكور.

كنت أستطيع إثبات أنني قادر على العناية به أكثر من أيّ أمّ، خصوصاً أمّ مثل مينا التي اختارت، ولدوافع تتعلق بمتعتها الشخصية أو شبقها، أن تدمر عائلة بأكملها. لكن في المقابل، كان يمكن لمينا أن تقوم بحركة التفافية وتقدم لائحة تملأها التفاصيل المملّة، وهي تلوح بسبابتها في الهواء بينما الخال البنّي تحت عينها اليمنى يتمايل بطريقة إغرائية، موحية إلى القاضي قائلة إنها كانت هي من يعتني بأنكور، وإنها وضعته بعد إحداث ثلاثة شقوق في بطنها، وإنها الوحيدة التي تعرف ما يريد، وكم يحتاج من الفيتامينات والكالسيوم واللقاحات ودروس الرياضة. ثم، ماذا أعرف عن أي من هذه الأمور

Twitter: @alqareah

في أي حال؟ كان يمكن أن تعلن على الملأ أنني بالكاد أتذكر في أي صف هو، أو أنني في المرة اليتيمة التي ذهبت فيها لشراء بنطال صوفي له، عدت بقطعة من القماش مكتوب عليها عبارة «تلبس بعد الغسيل» بحروف كبيرة على طرف القماش. هذا ما كان يمكن توقعه. كانت ومن دون أن تترك مجالاً للشك، ستهجر رجلاً اشترى يوماً هريساً أصفر مستورداً غالي الثمن ظناً منه أن هذا خيار ناضج.

لا؛ كان مجرد التفكير في جرِّ ابني إلى المحكمة في مبنى باتيالا يشعرني بالغثيان، فالمكان يعج بالمشبوهين، ذوي الذقون غير الحليقة، المقيدين بالأصفاد يُقادون في أروقة المبنى، وبمتصيدي الزبائن وكاتبي العرائض الذين يتحرشون بالجمهور المحتشد، وبالمحامين في معاطف سوداء يمشون بحذر شديد في البرك الموحلة المتشكلة من ماء المطر.

لم أكن لأسمح أن يتعرض ابني إلى أي من ذلك، حتى إن كان هذا سيؤدي بي إلى رؤيته يغادر في سيارة راجيف الفاخرة. كان سيؤلمني جداً أن أرى شيئاً كهذا يحدث. كانت سيارته أكبر من سيارتي وكان مكيّف الهواء يعمل فيها بشكل أفضل، بالإضافة إلى أنها تحتوي على جهاز تسجيل قرص مضغوط. وقد تم غسل السيارة وتلميعها حتى بدت أكثر بريقاً. وكان دأب راجيف وطبعه أن يظهر سيارته بهذا الشكل البراق ليبدو ملائماً للمناسبة. وكل ما فعله كان مبعثه رغبته في أن يثبت - كما لو أنه كان في حاجة إلى ذلك - أنه أفضل مني، أو أن

Twitter: @alqareah

سيارته، على العكس من سيارتي لن تكون مليئة كما دائماً بمجلات عتيقة وأعقاب سجائر وقشور فستق وقطع نقدية معدنية قديمة. جلس أنكور في المقعد الخلفي وساعده في ذلك راجيف بمنتهى الرفق: الرفق الذي يدل بوضوح على تصنع غير صادق، لكن كان يقصد به أن يؤثر في مينا التي كانت تراقب المشهد من المقعد الأمامي وهي تميل برأسها على شكل نصف استدارة إلى الخلف، وكانت تضع عصابة زرقاء في شعرها. كنت أراقبهم من نافذة غرفة نومي، من خلال شق في الستارة، وتذكرت اليوم الذي ابتاعت فيه هذه العُصابة من المحل الواقع تحت القنطرة التي تربط طرفي سوق خان الأمامي والخلفي. كان ذلك عصر الزُرقة - كل شيء: لباسها الفضفاض، وستائرها والسائل الذي تلوّن به أظافرها، وظل عينيها وأحذيتها وأغطية فراشها الهندية - كان باللون الأزرق. كانت تقول إن هذا اللون يذكرها بالمطر والبحر والسماوات الممتدة واللامتناهية.

اللون الأزرق نفسه الذي لا يبدو شاحباً أو تركوازياً تماماً، يلامس سماء هذا الصباح الآن وراء النهر. كان يجب أن يكون لون النهر أزرق أيضاً. ولكنني أستطيع أن أرى تحت العوارض الخشبية الضخمة لجسر القطار مياهاً رمادية مُتعبة أنهكتها المخلفات التي تقذفها فيها المجاري الصحية، وهي تنزلق منحدرة بشكل يائس وتدور حول نفسها في دوارات لا اتجاه محدداً لها. النهر يكون أزرقَ حين يكون في بداياته. لقد وقفت حيث ينبع من التلال وينبثق من بين الصخور

Twitter: @alqareah

البيضاء المستديرة غير عالم بالقذارة التي تنتظره لاحقاً، وقدره الذي يحتم عليه حملها. كل شيء يكون جميلاً وبريئاً عندما يكون يافعاً. أغلق عينيّ. فأنا لا أريد رؤية شرق دلهي يستيقظ بمجمعاته الإسمنتية التعاونية، لشراء الحليب والذهاب إلى المدرسة وإجهاد النفس في السعي للحصول على وظيفة، والولوج إلى الحافلات المزدحمة. إنه مشهد قبيح، وأنا أتوق إلى الجمال.

-٤-

لازمت المنزل لأسابيع عدة بعد مغادرة مينا له. وحيداً كنت طوال الوقت، إلا عندما كان بلرام يأتي في كل صباح وكل مساء ليعدّ لي الطعام ويغسل ثيابي. وحيداً كنت أمام صُرة رثَة من حياة مبعثرة نصف معيشة تمتد أمامي مثل محتويات درج منسية منذ مدة طويلة اندلقت فجأة على السجادة. كانت أشعة الشمس تؤذي عينيّ، وضجيج وسائل المواصلات يثير أعصابي، وزقزقة العصافير عند الفجر على العشب وراء غرفتي تحطم قلبي.

في اليوم الثالث، حاولت أن أجد مفكرتي القديمة ولكن وبعد ساعتين من البحث في الحقائب وعلى الطاولات والرفوف، لم أستطع العثور عليها. تراءى لي أن ضياعها أيضاً كان مقدراً له أن يحدث، وشكرت جميع الآلهة التي عرفت أنني لم أخضع للإغراء المتمثل في الاتصال بأي شخص، أو لرواية قصتي إلى صديق مقرّب غير محدّد

Twitter: @alqareah

قد يكون نصف راغب في سماع القصة، أختاره بشكل اعتباطي من بين صفحات المفكرة، وذلك كي أبرر للعالم ما يجب عليّ تبريره، وكي أقدم لعصابات دلهي الاجتماعية المغرمة بالفضائح مادة إضافية للثرثرة. تحققت حينئذ أن الأمور وصلت إلى نهاية محددة، فقد انحدرت إلى الهاوية.

تخليت عن فكرة البحث عن المفكرة تماماً كما تخليت عن مينا. بمثل هذه السهولة، تماماً كما أشاهد التلال ووقت الغروب. هي من السهولة بمكان، حالما تكون قد اتخذت قرارك.

وهكذا فإنني لم أتصل بأحد ولا أذكر أن الهاتف رنّ قطّ، عدا مرة واحدة عندما اتصلت جوي للاستفسار عني لأنني لم أذهب إلى المكتب منذ يومين. أخبرتها بأنني لم أكن على ما يرام. أخبرتها بأنني أعاني التيفوئيد، وهو من النوع المقاوم للأدوية المضادة للالتهاب وأنه سيأخذ وقته قبل أن أشفى منه. وبينما كانت تحاول استيعاب ما أقول، أخبرتها بأنني لا أريد أن يزورني أحد من المكتب لأن هذا المرض معدٍ جداً، لذا يمكن أن يرسلوا وروداً إذا شاؤوا. تركت الموضوع عند هذه النقطة، وأغلقت السماعة دون أن أنتظر إجابة منها.

لم أكن أستطيع أن أرغم نفسي على الذهاب إلى غرفة أنكور لأجدها مرتبة ونظيفة، ولا أثر لثياب مرمية على الأرض، ولا لألعاب مبعثرة على أرض الغرفة، ولا لأقلام ملونة أو لألعاب كومبيوتر منتشرة

Twitter: @alqareah

بشكل فوضوي على الطاولة. ولذلك فقد أغلقت غرفتي على نفسي، وهي الغرفة ذات السرير المزدوج والتلفزيون ومكيف الهواء، متجاهلاً بقية الشقة. كنت قد وضعت بعض الخطط في السابق بشأن هذه الشقة؛ فكرت في أن أشتريها، وأنني في نهاية المطاف سأقنع مالكها العجوز بأن يبيعني إياها بسعر معقول. لكنه لم يعد من دأبي؛ والآن ومع رحيل مينا وأنكور لم أعد أبالي بعودته، حتى إن لم يعد نهائياً. تكفيني هذه الغرفة فقط للعيش فيها، وللتذمر والندم ولعق جراحي. فلو حدث وأحسست بالملل أو أدّى انقطاع التيار الكهربائي إلى توقف مكيف الهواء عن العمل، كان دائماً في استطاعتي أن أخرج إلى الحيز الصغير العشبي الذي يشبه طابع البريد، والذي كنت أتقاسمه مع جاري. الآن على الأقل لم أعد في حاجة إلى حماية نفسي من تقريع مينا الدائم لي بأنني لم أستطع قطّ فعل الشيء المناسب في الوقت المناسب، أو بأنني أعيش في عالم خيال من صنعي؛ على العكس من راجيف - بالرغم من أنها لم تقل ذلك يوماً - الذي اشترى أرضاً في الوقت المناسب، وبنى عليها منزلاً في الوقت المناسب أيضاً، سقوفه مرتفعة ومصنوعة من خشب الساج ونوافذ كستنائية اللون.

على الطاولة المستديرة في غرفتي كانت ثلاثة أنواع مختلفة من الويسكي، وزجاجة جن وزجاجة غير مفتوحة من خمر البكاردي. أما الثلاجة الصغيرة، فقد كان فيها من مكعبات الثلج والمياه المعدنية ما يكفي لأماسٍ عدة. راجيف كان هناك أيضاً. لم يكن في إمكانه أن

Twitter: @alqareah

يشرب أياً من هذه المشروبات دون أن يعقب ذلك بالتقيؤ. لم يكن يستطيع أن يشرب إلا النبيذ الأبيض. كيف يمكن لأحد أن يثمل بسبب شربه للنبيذ الأبيض؟ أما أنا، فكان أقصى ما عانيته هو صداع شديد في الرأس والتهاب في الحلق عند الصباح.

كانت هناك ثلاثة أو أربعة كتب بالقرب من سريري، وكمية كافية من السجائر ومنفضة سجائر كبيرة. كان في إمكاني تجنب رؤية من لم أرغب في رؤيته، كما كان في إمكاني عزل كافة الأصوات التي لم أشأ سماعها. حتى ماضيّ نفسه نادراً ما ولج إلى هذه الغرفة. كان موجوداً في بقية أرجاء المنزل ومغلفاً في أغلب الأحيان في علب كرتونية داخل الخزانة، حيث يفترض أن تأتي مينا لتأخذها يوماً ما. كانت موضبة ومحفوظة بعيداً عن الأنظار، آمنة في الظلام، لا يمسها أحد ولا يذكرها أحد. الطريقة التي تركتها فيها مينا منظمة ومبوبة في كتاب تمارين قديم؛ فلقد دونتها وفهرستها بطريقتها الواقعية المفرطة. أكثر تلك العلب الكرتونية كان موضوعاً في الغرفة الثالثة التي اعتدنا تسميتها غرفة الضيوف. لم يقم فيها ضيف قطّ. كانت هذه الغرفة في واقع الأمر غرفة نوم مينا الاحتياطية التي كانت تستعملها عندما تسوء الأمور بينها وبيني. عندما يغلق مصراع النافذة بيننا، تبدأ عملية تبادل الاتهامات مترافقة بكلمات قاسية وتعابير لاذعة. كانت تستعمل هذه الغرفة عندما يزعجني كل ما فيها: الطريقة التي تسرح فيها شعرها من الخلف، أو الطريقة التي تنظف فيها

Twitter: @alqareah

أسنانها بالفرشاة، أو الطريقة التي تثقل فيها عينيها ووجهها بالمساحيق حتى في الليل. أو ربما كانت تستعملها للهروب مني بسبب رائحة فمي الصباحية، أو بسبب عادتي في إلقاء ثيابي على الأرض، أو رغبتي في احتساء فنجان الشاي الصباحي. بالتدريج، وخلال السنين القليلة الماضية، انتقلت أشياؤها المهمة إلى تلك الغرفة: رف كتبها، وملفاتها التي تحتوي على شهاداتها الجامعية ورسائل التوصية. غالبية مواد التجميل العائدة لها أصبحت في تلك الغرفة، بالإضافة إلى مرآتها الدائرية التي كانت تتفحص فيها وجهها بشكل متمعن ولساعات طويلة في أيام نهاية الأسبوع، ثم تبدأ عملية ترميم الأماكن التي بدأت السنون تضع عليها لمساتها الأولى المترددة. كما انتقلت إلى تلك الغرفة وعلى إحدى الطاولات فيها صورة والديها، وأيضاً - ولحسن الحظ - جهاز السي دي للألحان الهندية الكلاسيكية العزيز جداً على قلبها. تلك كانت الغرفة التي انتقلت إليها عندما اكتشفت، قبل سنتين - بالرغم من أنني لم أواجهها بذلك - أن راجيف كان أكثر من مجرد صديق قديم للعائلة.

لكن الانتقال إلى تلك الغرفة لم يكن بعيداً بما فيه الكفاية.

شعرت بالسعادة لأنها قامت بتوضيب أشيائها التي غلفتها بشكل جيد، ثم قامت بتخزينها بعيداً عن الأنظار. كل تلك الأشياء كانت ستبدو عديمة المعنى ومؤلمة بشكل لا داعي له: فالصور وقصاصات الصحف والرسائل القديمة والقصائد الشعرية والبطاقات البريدية

Twitter: @alqareah

يكون لها معنى فقط إذا كان شخص آخر يشاركك فيها؛ وإلا فإن المرء يكون كمن يخادع نفسه. ولأنني تقدمت في السن فإنني لا أستطيع خداع نفسي بهذه الأشياء أكثر من ذلك. فضلت أن أترك هذا الجزء من المنزل بماضيه المطوي لبلرام.

في الصباح الباكر، عندما كان لون السماء لا يزال رمادياً داكناً والهواء رطباً، وسواد الليل لم يختفِ كلياً، كنت أفتح باب غرفة النوم وألتقط الصحيفة من على العشب، حيث كان يقذف بها صبي الصحف من سلّة دراجته. كانت الصحيفة تستقر أحياناً في أصيص الورود وأحياناً تحت الكرسيّ. تلك الصحيفة كانت وسيلتي الوحيدة للتواصل مع العالم الخارجي بما تحتوي عليه من عرض لسياسة الائتلاف الحكومي، والجرائم على صفحتها الثالثة، وصفحة الوفيات وصفحة المفقودات وإعلانات الزواج والمقالات الافتتاحية المملة والصور البراقة للطبقة المخملية مطبوعة، ويا للمفارقة، على ورق رخيص، بالإضافة إلى وصفات للطبخ لا يستساغ طعمها... وعندما يحدث أحياناً أنني لم أكن أستطيع أن أتواصل مع هذا الكمّ من المعلومات، كانت تنتهي الصحيفة في سلة القمامة بالمطبخ نصف مجعّدة ونصف مطويّة. لم تكن مينا لتسمح بحدوث شيء كهذا أبداً. فسلة القمامة في المطبخ هي مخصصة لفضلات المطبخ. أما الصحف فكان يجب أن تطوى بطريقة أفضل مما كانت عليه عندما نستلمها، وتوضع فوق كومة الصحف في المرآب، حيث تكون صحف كل شهر مربوطة

Twitter: @alqareah

بإحكام ضمن مجموعة مستقلة عن المجموعات الشهرية الأخرى.علّمها والدها أن هذه الطريقة تنمّ عن ذوق رفيع، من الواضح أنه كان يحكم على الناس طيلة حياته من خلال الطريقة التي كانوا يجمعون بها الصحف، أو من خلال ضرورة أن يكون كعب الحذاء يلمع بالقدر نفسه الذي تلمع فيه مقدمته، أو من خلال الكيفية التي توضع فيها الشوكة والسكين على الصحن، والشكل الأنيق الذي يجب أن تظهر عليه طاولة الكتابة في منازلهم، أو أي أمور أخرى لا تقل تفاهة. كما كان عليّ تناول الفطور المكون من رقائق الذرة والحليب البارد في فنجان مختار بعناية فائقة من على رف مليء بالفناجين، اشتريتها بحضور مينا في عطل نهاية الأسبوع كتذكارات من محلات مكشوفة في سوق الأحد، أو من متحف بعيد منعزل بالقرب من نهر تملأ سماءه طيور النورس التي لا تتوقف عن الصياح، والطائرات التي تهبط من حين إلى آخر. نعم، لقد كان شراء فناجين القهوة كتذكار عن الزمان والمكان واحداً من العديد من اهتماماتها الشخصية، وهو واحد من الاهتمامات القليلة التي كنت أشاطرها إياها. دهشت من حقيقة أنها تركتها كلها لي دون أن تختار اقتسامها مناصفة معي.

كنت أقارع الظلام في غالبية الأمسيات بطرقي الخاصة السخيفة. كنت أقارعه بالاستحمام أو بإغفاءة أو بمعاقرة الخمر. أعرف أنني كنت أحب هذه الجزئية الأخيرة عندما كنت أحوم حول الزجاجات والكؤوس على الطاولة المستديرة كي أختار شراب ذلك اليوم. هل

Twitter: @alqareah

سيكون شراب اليوم ويسكي خفيفاً مع مكعبات الثلج والكثير من الصودا الطازجة الفوارة الحادة المذاق؟ أم هل يكون منقوع الشعير النابت المدَخّن ونصف المفحم والمستنبت في الجبال النائية، أو شراب البكاردي الحلو والمر ممزوجاً بالكولا؟ وكنت أتساءل طيلة هذا الوقت في ما إذا كان من المناسب أن أصبّ لنفسي كأساً وأبدأ باحتسائها. ولكن كان ما أسمعه عن معاقرة الخمرة عندما يكون المرء وحده، يقف حائلاً بيني وبين فعل ذلك. أليس من المفترض أن أسوأ مظاهر الوحدة معاقرة الخمر، ألا يُعدُّ ذلك ضرباً من ضروب الانتحار البطيء، وشكلاً منحطاً من أشكال الاستمناء، واحتفالية منعزلة تنم عن الضياع والاكتئاب؟ ومع ذلك، كنت أحمل كأساً وأترك هذه الأفكار تتساقط من حولي. كان ذلك يمثل دوراً روتينياً لا بد من تمثيله؛ كان لعبة يكون فيها المرء خصماً لنفسه، يخسرها قبل أن تبدأ. وعندما كانت الرشفة الأولى في طريقها إلى معدتي حارقة في طريقها عبر حلقي، و باحثة عن طريقها الجديد المؤدي إلى ساحة شعوري، كنت أعرف حينئذ أنه كان عليّ فعل ذلك. إن الهواجس التي تنتابنا بشأن شرب الخمر عندما نكون وحيدين هي ترف لا يتمتع به سوى الأشخاص الذين ليسوا مضطرين أن يكونوا كذلك. إذا كان في استطاعة امرئ ما، أن ينام وحده، ويستيقظ وحده ويأكل وحده، ويفكر وحده، ويتحدث وحده، يوماً بعد آخر، لماذا لا يكون في استطاعته أن يشرب وحده؟ مرت أمسيات عدة وأنا أفكر على هذا النحو. غلبني النعاس وأنا مسترخ في كرسيّ على الشرفة الضيقة المطلة على

Twitter: @alqareah

الحديقة العشبية وبجانبي كانت مجلة إباحية وكأس خمر ثالثة لم أكن قد أنهيت شربها بعد.

عندما نهضت وآثار الخمر تعج في رأسي، شعرت بجفاف في حلقي وبانتفاخ في داخل عينيّ. عرفت ساعتها أنه يجب أن أسيطر على نفسي. الألم والإحساس بالذنب والعار، والتحكم في مستقبل أنكور؛ ازدحمت كل هذه الأفكار في فنجان الشاي أمامي مثل حفنة من المحلّفين الذين أجمعوا على قرار. كان عمره عشر سنين فقط. لم يكن يجوز أن يتعذب، أو يكبر وتكبر معه فكرة أن أباه السكير المهووس والمحبط هو من أفسد كل شيء. لا بد من أن يعرف الحقائق كلها يوماً ما: كل القصص التي نخفيها عن أبنائنا. وإذا لم أنتبه إلى نفسي بالقدر الكافي، فلن يكون في المستقبل من يمكن أن يخبره هذه الحقائق. في بعض الأيام عندما أكون غير قادر بأن أحتمل أكثر، أنكمش على ذاتي وأغمض عيني وأعود إلى السرير آملاً أن تتحسن الأمور.

غالباً ما شعرت بأن الاستحمام بالماء البارد كان مفيداً، على الأقل بشكل مؤقت. كان الماء يضرب وجهي وينسكب على جسمي جارفاً معه الخمول الشديد ومزيلاً وجوه المحلّفين الكالحة. وهكذا كان في مقدوري أن أحكم على نفسي برفق مرة أخرى. ففي المحصلة، كنت أنا من أسيء إليه. أنا كنت الضحية، ولست المذنب. لم أخطئ بحق أحد: لقد كان تصرفي صحيحاً. لا يجوز أبداً أن أتخلى عن هذه

Twitter: @alqareah

الفكرة الأساسية. هذه هي الطريقة الوحيدة التي كان يمكن بواسطتها متابعة حياتي. ابن بار وطالب نجيب وزوج مخلص وأب صالح. على الأقل هذا ما كنت أرغب في التفكير فيه. كنت في غاية السعادة عندما أقنع نفسي بتلك الحقائق الأساسية. وعندما كنت أفشل في ذلك وتخذلني الروح القتالية، لم يكن يبقى لديّ أمل سوى أن ينقضي النهار لأبدأ بتحسس الحياة أثناء الليل، مستخدماً فقط الأضواء الضرورية جداً، وفاتحاً فقط الأبواب التي من الضروري تركها مفتوحة، مثل شقّ باب خزانة الثياب أو فتحة صغيرة في درج المكتب. في تلك الأمسيات، كان من السهولة بمكان تناول كأس من الخمر وأحياناً اثنتين أو ثلاث أو أربع. كنت مديناً لنفسي بإنقاذها من هذا البلاء.

أخيراً وبعد انقضاء أربعة أسابيع أو خمسة على مغادرة مينا وأنكور المنزل نظرت إلى لحيتي في مرآة الحمام، وحلقت ذقني. قمت بذلك كما لو أنني كنت أنزع عن سابق تصور وتصميم طبقة من الحياة أرميها في حوض مغسلة الحمام، وأزيلها بالماء المتدفق بقوة من صنبور المياه. أحسست أنه لو رنّ الهاتف الآن فسأرفع سماعته دون خوف، وأنني لو احتسيت الخمر مساء ذلك اليوم، فسأتوقف عن الشرب بعد تناول كأسين من الويسكي. بدأت من جديد ممارسة نشاطاتي اليومية مثل إرسال ثيابي للغسيل، وإضاءة الأنوار في غرف المنزل المختلفة، وتفقد علبة بريدي بدافع الفضول إن لم أقل بدافع الأمل، وتلميع حذائي... وأخيراً عودتي إلى العمل.

Twitter: @alqareah

-٥-

والآن إلى ذلك المكتب التعيس في منطقة كونّوت. أعلم أن اسمها تغير الآن ولكن بالنسبة إليّ، سيبقى اسمها دائماً منطقة كونّوت. ليس من المهم الاسم الذي تطلقه عليها، فهي عموماً منطقة قذرة. إنها أكثر مناطق دلهي قذارة. في الحقيقة هي مركز القذارة لما أضحى يعرف عموماً بالمدينة القذرة.

في منطقة كونوت الكثير من السيارات المتوقفة، والكثير من السيارات على الطرقات، السيارات التكية الصغيرة الرخيصة التي يمكن أن تتبعج إذا ضغطت عليها بمقدمة إبهامك. كما أنه يلزمك وقت طويل لتصل إلى تلك المنطقة من مكان سكنك. قبل أن تكون لديّ، وفيما بعد، لدينا - أنا ومينا - سيارة من صنع كوري، وهي النوع الذي يقتنيه الجميع في هذه الأيام وتشبه رغيف الخبز الصغير، كنت أحشر نفسي مع رزمة من الأشخاص البؤساء الذين تفوح منهم رائحة التعرق قبل تجاوز إشارة المرور الحمراء والوصول إلى مستشفى مولتشاند. كرهت جميع الذين كنت ألتقيهم عند الإشارات الحمراء كل يوم: المرأة العجوز التي تجاوز عمرها المائة سنة، وهي تبيع البخور الذي يستعمل في المعابد منذ أن قتل زوجها في سنة ١٩٨٤ في أحد شوارع دلهي بواسطة دولاب محترق، والرجل ذا اليد المبتورة الذي يبيع مناديل للوجه، والصبيان المصابين بالرمد الذين يبيعون آلات حاسبة ملونة؛

Twitter: @alqareah

وفي أيام السبت، كان الجميع يحمل بيديه علباً صغيرة يطفو فيها الزيت. يستجدون منك بعض النقود؛ وإن لم تفعل، يهددونك باللعنة الأبدية التي ستحل عليك من إله يوم السبت.

من كان يلقي بالاً لهذه اللعنات؟ كان على مقربة من المكان الذي كنت أعيش فيه جباناً، رجل أقوى مني، رجل سلبني زوجتي وابني. كانت الدنيا تقدم لي أسوأ ما لديها. ومن هذه النقطة كان من الممكن أن تسير الأمور بشكل أفضل.

من المفترض أن تتحسن الأمور على مواقف الإشارات الحمراء بعد أن تمّ أخيراً بناء جسر للمشاة. كنت في الأشهر الأخيرة أرى أعمدة هائلة الحجم ترتفع في كل مكان؛ لكنني كنت أستغرب فكرة أن بناء هذه الأعمدة لم ترافقه أي ضجة. أذكر أنّ عند بناء أول جسر للمشاة في دلهي قرب ديفينس كولوني، كانت آلات الحفر تصدر أصواتاً تصمّ الآذان. بدت طرقات دلهي القديمة وكأنها تقلب رأساً على عقب مع كل بادرة تغيير كبرى، إذ كان يقذف بالماضي إلى حيث بقايا المدن السبع التي تمّ دفنها في الوقت الذي بدأ فيه بناء مستقبل، أهم مظاهره جسور المشاة المتأرجحة في الهواء والمنتشرة في كل مكان، والأضواء الزئبقية البراقة، وعربات بيع الآيس كريم والتي ستحل كل مشكلاتنا. يا له من عالم سريع واثق ومجنون.

في كل مرة أمرّ فيها فوق جسر المشاة القديم، أشعر أنني لا أزال

Twitter: @alqareah

أسمع صدى صوت آلة الحفر من بعيد يتغلغل في ثنايا عظامي. ما زلت أشعر بلهب الحرارة الأصفر للصيف الذي انقضى قبل مدة طويلة وتلاشت معه رياحه اللافحة. في ذلك الصيف تجمّعنا في غرف مسدلة ستائرها، ننتظر هبوط الليل واللحظة السحرية التي سنحصل فيها على حبات الآيس كريم بطعم البرتقال، وكؤوس عصير الليمون المثلج الحلو المذاق، ونستنشق رائحة الأرض الرطبة الأخاذة التي تبدأ بالانتشار حالما يبدأ الحدائقي برش الماء على جذور الورود العطشى. في ذلك الصيف كنا نسمع، بالتزامن مع أصوات آلات الحفر المكتومة، صوت سعال جدتي لأمي، السيدة العجوز الهادئة التي كانت كثيراً ما تخبئ لي الفواكه المجففة عن بقية الخلق. في ذلك الصيف بدأت جدتي تحتضر.

وبينما كنت أطلق لعناني على ذلك المكان، استطعت أخيراً أن أجد مكاناً أركن فيه سيارتي في شارع باراكامبا. كان الصبي الذي أخذ مني مفاتيح السيارة وأعطاني في المقابل إيصالاً أصفر باهتاً لا يمكن قراءة ما هو مكتوب عليه، قد رمقني بنظرة فيها الكثير من التوبيخ الواضح. لم آت إلى هنا منذ مدة طويلة، هذا ما بدت نظرته وكأنها كانت تقول لي. فأربعة أسابيع أو خمسة هي مدة طويلة ولا يمكن لأماكن ركن السيارات في حي كونوت أن تحجز لأشخاص يغيبون عنها طيلة هذه المدة. كنت سأقول له إن ذلك كان بسبب مرض التيفوئيد ولكنني كنت أعرف أنه لن يصدق ذلك. العالم يتابع حركته والحياة

Twitter: @alqareah

تستمر؛ هذا ما كانت نظرته تريد أن تقول. كنت سأقنع بما يمكن أن أحصل عليه منه وببطء، وإذا كنت لطيفاً معه ومواظباً على المجيء فقد أستطيع إعادة ترميم مصداقيتي لديه مرة أخرى بالقدر الذي يستطيع معه أن يقابلني بابتسامة ويأخذ مفاتيح السيارة ويركنها في منطقة ظليلة تحت إحدى الشجرات.

اندفعت بين الحشود محاولاً السير بطريقة لا أضطر فيها إلى تعريض قميصي الأبيض للاصطدام بالكثير من الأكتاف. كنت أستطيع فيما مضى أن أسير الهوينا في حي كونوت. وكان الناس يأتون إلى هنا للتجوال عند المساء. كان العشاق يأتون وهم يشبكون أيديهم المتعرقة والمضطربة قرب النافورة لأكل وريقات البيتل المحشوة باليانسون والتوابل، أو تناول الآيس كريم بنكهة المانغو على أوراق الشجر الخضراء، أو لاحتساء الشاي الفاخر الذي يتناوله مع كرات الجبن روّاد المطاعم التي كانت تفوح منها روائح البسكويت المحشو بالآيس كريم، وهم يستمعون إلى ألحان الخمسينيات المنبعثة من علب الإسطوانات الموسيقية. عليّ الآن أن أشق طريقي وسط جيش من بائعي المناديل، وبائعي حمّالات المفاتيح، وبائعي الموز، وبسطات المحافظ الجلدية المزيفة، وحاملي رزم تحتوي على ثلاث قطع من الألبسة الداخلية بسعر قطعة واحدة، وبائعي تقاويم سنوية ومفكرات، وبائعي أطعمة الوجبات الخفيفة المكونة من البطاطا والحمص والسلطة مع البطاطا المسلوقة والبطاطا غير المقشرة والبندورة

Twitter: @alqareah

والليمون. كلها كانت معروضة بحلول الساعة التاسعة صباحاً. بعضهم كان يتناول وجبة إفطار مكونة من البطاطا والحمص والفاصولياء والصلصة.

كنت أتمنى لو أنه لم يكن يتوجب عليّ القيام بذلك. ليت المكتب كان في مكان آخر؛ ربما في الدور الأول من مبنى في شارع هادئ وارف الظلال في جورباغ أو غولف لينكس أو في مركز هابيتات الجديد. كنت سأؤدي عملي بشكل أفضل في مكان كهذا، ولكن الشركة التي أعمل بها سبق لها أن اشترت حيزاً في هذا المبنى، في وقت كان من المنطقي فعل ذلك، أي في وقت حافظت القمصان البيضاء على بياضها طيلة النهار. في تلك الأيام لم يكن يتخلى أحد عن حيز اشتراه أو استعمله في منطقة كونوت، حتى ماسح الأحذية خارج مبنى ستيتسمان هاوس، أو ذاك الرجل الأعور الذي كان يبيع أقلام الحبر الناشف وخرطوش الحبر قرب المكتبة الأمريكية. بالإضافة إلى ذلك، كان البناء جديداً لمّاعاً، فيه محل ألبسة مشهور في الطابق الأرضي ومطعم أنيق في الطابق المتوسط، وهو ذلك النوع من المطاعم التي يقصدها رجال الأعمال عادة مع رفيقاتهم. أغلق محل الألبسة بعد أقلّ من شهرين؛ أما المطعم فتحول إلى وكالة سفريات.

لم أكن وحدي في ذلك المبنى. كنت واحداً من آلاف عدة. لكنني كنت من بين القلائل الذين ما زالوا يذكرون أيامه الأولى. كانت جدرانه الزجاجية والرخامية مزينة بلوحات حجرية باللون البني ولون المغرة

Twitter: @alqareah

الذهبي. كان البناء مزوداً أيضاً بوسائل إطفاء الحريق على الدرج ونوافذ زجاجية بأطر معدنية. كما تذكرت بانديتجي، الشاب الذي كان يتباهى بأنه المشرف على المصعد المصنوع من الفولاذ والمليء بالمرايا، والمزود بمبصقة ولوحة معدنية تشير إلى أن المصعد يستوعب تسعة أشخاص أو ٦٥٠ كيلوغراماً، أيهما أخف. ما زال بانديتجي في المكان نفسه، جالساً على مقعده الخشبي الصغير في زاوية المصعد. بالرغم من مضيّ السنين كان دائماً يسألني عن حرارة الطقس في الخارج وعن ارتفاع الأسعار وعن صحتي وعن رأيي في الحكومة. تقدم في السن وما زال يقوم بالعمل نفسه: يأخذ الناس إلى الأعلى وينزلهم إلى الأسفل في هذا المصعد، وهو يتحدث ويتثاءب. لقد كان شاهداً على فقدان مرايا المصعد بريقها، ورأى في هذه المرايا التي فقدت بريقها كيف تحول شارباه إلى نسخة كاريكاتورية بيضاء مضحكة عن الشاربين اللذين كانا يلمعان في الماضي كمقود دراجة.

لا أنظر كثيراً في المرآة هذه الأيام إلا إذا اضطررت إلى ذلك اضطراراً؛ إنني أتجنب النظر حتى في مرآة مصعد بانديتجي التي فقدت بريقها. أنظر إلى أجزاء من المرآة فقط. أنظر إلى النقطة التي تظهر أين أبدأ بوضع شفرة الحلاقة عندما أحلق ذقني، كما أنظر إلى المكان الذي ستتحرك عليه فرشاة الأسنان بشكل دائري وهي تنظف بقايا الطعام العالق في الأجزاء العلوية من أسناني. أنظر إلى مشطي

Twitter: @alqareah

الأحمر وهو يتخلل بسرعة شعري الذي أصبح خفيفاً مع مرور السنين. لكنني لا أنظر إلى المرآة بشكل كامل كما كنت أفعل مرات ومرات عندما كنت طالباً في الجامعة لأرى كم كنت أبدو جذاباً وأنيقاً ومحطِّماً للقلوب. في أيام الشتاء كان يلزمني وقت طويل للخروج من الحمّام. كان البخار المتصاعد من الماء الحارّ الذي كنت أصبه من حلة ضخمة تشتعل تحتها الأخشاب في ذلك الموقد الخشبي، يغطي المرآة الصغيرة في الحمام. كنت دائماً أتوق إلى رؤية نفسي في المرآة بينما أنشف كتفي بمنشفة بيضاء وزرقاء ثم أمررها على صدري وتحت إبطيَّ ذراعيّ القويتين. كنت أمسح البخار العالق بالمرآة وأنظر فيها بابتسامة يغلفها الزهو والإعجاب وهي تعلو وجهي في اللحظة التي أحس فيها أنني جاهز للخروج إلى العالم، وإلى المستقبل، وإلى آلام منتصف العمر اللعينة. أما الآن فإني أمقت منظر المرايا الكاملة الطول، التي تجدها في الأماكن الفخمة وفي مصاعد فنادق النجوم الخمس، وفي الغرف الفاخرة وفي النوادي والحانات ومراكز التسوق. هذه المرايا تفرض عليّ أن أرى كل ذاتي: أنا الغريب الذي أوغل أكثر مما تخيلت، بعيداً في السنين؛ أنا الرجل المتعب الذي فاته موعد الحافلة المتجهة إلى مكان ما.

أتساءل إذا كان بانديتجي ما زال يتذكر كيف كان شكلي في الأيام الخوالي، أو إذا كان لاحظ التغيير الذي طرأ على شعري و بطني ومشيتي وبشرتي، وهل يهمه أي شيء مما ذكرت.

Twitter: @alqareah

«أهلاً بالسيد أفتاب. لم أرك منذ مدة طويلة. ماذا حدث؟ هل كنت مسافراً، خارج البلد؟»

«لا، لا. لا شيء يستحق الذكر».

«لا شيء يستحق الذكر؟» لم يصدق كلمة مما قلت. «آمل أن كل شيء على ما يرام، لم يكن السبب حمى أو نزلة برد؟»

مرت لحظة وددت خلالها أن أوقف المصعد بين طابقين لأخبره ماذا حدث معي، لأخبره بداية كيف تركتني زوجتي وأخذت معها ابني الوحيد.

«لا يا بانديتجي، أنا بخير».

لم أكن أستطيع أن أخدعه بحكاية التيفوئيد، فهذه الحكاية مضى عليها وقت طويل.

«كما تشاء. لكن انتبه إلى نفسك. سيحل الطقس الحار باكراً هذه السنة. إنه القرن الجديد والألفية الجديدة. الزمن! أشياء كثيرة تتغير في العالم. كل هذا بسبب التجارب النووية والأبنية التي يتم تشييدها. لم يتركوا شجرة واحدة. هل تتذكر تلك الظلال التي كنا نتفيأ بها في هذا الجوار؟ حيث بيوت ريفية وأشجار. البيوت الريفية كانت تبنى للإنجليز، الأشجار كان يزرعها الإنجليز. تركونا، وانهار وراءهم كل ما بنوه أيضاً».

Twitter: @alqareah

توقف المصعد بشكل غير مريح في الطابق الثامن. فُتحتْ أبواب المصعد محدثة صريراً. خرجت من المصعد وكانت عيناي مثبتتين على حذائي. تركت باندیتجي على مقعده داخل المصعد وكان يرخي يده المتجعدة على ركبته التي كانت تؤلمه، بينما كانت اليد الأخرى تلامس نهاية شاربه، وهو غارق في تأمل يوم آخر من عالم ضائع.

بدت غرفة مكتبي وكأن شخصاً قام بتوضيبها، كما لو أنني لن أعود إليها أبداً، أو أنني مت وهم بانتظار أحد، ربما من أقاربي ليأتي ويلملم أشيائي كي يخلي المكان للمدير التالي للعلاقات العامة، لشخص يضع الجلّ على شعره الأسود، ويلبس ثوباً داخلياً رخيصاً تحت قميصه الأبيض الفاخر، حاصل على درجة جامعية من الخارج ويتحدث بلكنة أمريكية خفيفة. ربما كانت تلك أمنية باسو، وربما كان هو من أعطى توجيهات لترتيب المكتب على هذا النحو. شعرت بالغضب يصعد إلى أعلى رأسي، وكتمت رغبة جامحة بداخلي وهي أن أدخل إلى مكتبه وأقطع عليه فطور الصباح المتكون من الأرز المطحون المُبخر والكاري، وأسمعه ما يستحق سماعه. لم أفهم قطّ لماذا لا يتناول فطوره في منزله قبل مجيئه إلى المكتب. لم يكن السبب أنه كان يشعر بالجوع. فأول شيء يقوم به بعد أن يلج مكتبه صيفاً أو شتاء هو أن يتجه إلى هاتفه ويطلب فطوره المفضل، وهو وجبة من الأرز المطحون المبخر، ويقوم بالتهامه كما لو أنه لم يتناول طعاماً منذ أيام. ربما كان هذا جزءاً من خطة دنيئة ومعقدة يحسبها

Twitter: @alqareah

جيداً وتدل على بعد نظر بشأن توفير ما يمكن توفيره من النقود، وتتعلق بالفرق المستقبلي بيني وبينه عندما يحال كلانا إلى التقاعد. من الممكن أن يؤمن له هذا الادخار فرصة للاشتراك في نادي الغولف، أو شراء سيارة من آخر طراز أو حتى فرصة الموت في مستشفى أكثر نظافة.

كانت طاولتي نظيفة. لم تكن هناك أي صحف أو مجلات ملقاة في أي مكان بالغرفة. كانت سلة المهملات فارغة من الأوراق؛ كما كانت أغطية الكومبيوتر الواقية من الغبار موضوعة على جهاز الكومبيوتر والطابعة. الشيء الوحيد الذي لم يكن موجوداً في الغرفة كان إكليلاً من الأقحوان ولوحة على طاولة المكتب، كتب عليها: «رحمة الله عليه». نظرت حولي باحثاً عن نباتات الزينة التي كنت قد وضعتها في الغرفة. حتى هذه النباتات كانت قد نقلت من المكتب، ولكن لحسن الحظ فقد نقلت إلى غرفة جوي؛ كان في إمكاني رؤية هذه النباتات من خلال الزجاج الذي يفصل مكتبينا. بدأ توتر أعصابي يخف تدريجاً. ربما قامت بوضعها في غرفتها لأنها أرادت أن تسقيها بشكل منتظم؛ ربما كانت هي من أشرف على إبقاء غرفتي نظيفة ومرتبة.

كان من الواضح أن الأسابيع التي قضيتها بعيداً عن المكتب لم تشكّل لجوي مشكلة تُذكر. يبدو أنها قضت هذه المدة بهدوء ذلك أنه لم يكن عليها القيام بأي عمل سوى الاهتمام بمظهرها والظهور بصورة جديدة. فدائماً ما كانت تقوم بأشياء كهذه. كانت قارئة نهمة لعمود في

Twitter: @alqareah

إحدى الصحف اليومية التي لم أعد أذكر اسمها؛ ذلك أن جميع تلك الصحف كانت تبدو متشابهة وخصوصاً في ما يتعلق بالصور الملونة الباهتة المطبوعة بطريقة رديئة. إنه عمود الطرائق الخمس - تعرفون هذا النوع من الأعمدة - خمس طرائق لصباغة شعرك، وخمس طرائق لترتيب غرفتك، وخمس طرائق لطلي أظافرك التعيسة، وخمس طرائق لتحصلي على جسد رائع. أتساءل في ما إذا كانوا سيخرجون إلينا يوماً بخمس طرائق لممارسة الجنس. أعد بأنني سأحتفظ بقصاصة من هذا العمود تحت زجاج طاولتي تماماً مثلما تفعل جوي بقصاصات موضوعاتها المفضلة.

كان من الواضح أنها قرأت بعض المقالات الجيدة خلال الأسابيع التي قضيتها في المنزل. فقد فقدت بعض وزنها، وبدت وكأنها تخطو نحو الثلاثين من عمرها بالرغم من أنني عرفت من خلال اطّلاعي على ملفها أنها ستبلغ الثانية والأربعين في شهر تشرين الأول/أكتوبر القادم. لم يكن أحد ليصدق أنها بلغت هذا العمر إذا لم يتسنّ له الاطلاع على ملفها الشخصي، أو النظر إليها لمدة كافية كي يلاحظ كيف أن جلدها متهدل على شكل دوائر حول عظم ترقوَتها، ومتجعد على شكل دوائر مركزة حول مرفقها. هكذا تستطيع أن تكشف العمر الحقيقي لكثير من النساء. في بعض الأحيان، عندما أمشي في الشارع، أجد نفسي أحدق في أيدي النساء، وأعدّ الدوائر المتجعدة عليها مثلما يحصي المرء عدد الدوائر الموجودة على جذع شجرة هرمة.

Twitter: @alqareah

لاحظت أن جوي أجرت تعديلاً ما على شعرها؛ فقد بدا أنه مغسول للتو. ليس هو بالرطب ولا هو بالجاف أو المسرّح. يبدو أنها استبدلت مثلها الأعلى في الأسابيع القليلة الماضية فحولت تسريحتها من شكل إلى آخر بحيث أصبح مظهرها يدل على أنها سكرتيرة كفء وجذّابة، وبالنسبة للبعض، تمتلك شيئاً من الغواية يدل على ذلك منظر رموش عينيها المثقلة بالتبرج وشعرها الذي ليس برطب أو بِجاف. فكرت في أنني يمكن أن أواجهها يوماً بصوتي الرسمي المتسلط: «اسمعي يا جوي، هذا مكتب كما تعلمين وليس احتفالاً باذخاً في بيت ريفي. أريد منك أن تسرحي شعرك وتتشفيه قبل قدومك إلى المكتب وإلا فإنني سوف ألتقط مشطاً وأمشط شعرك نيابة عنك بنفسي...» ولكن كان سيبدو هذا وكأنه شكل من أشكال التحرش الجنسي، وهذا بالضبط ما كان باسو يتوق إلى حدوثه. بالإضافة إلى ذلك، لا بد من أن أحداً أخبرها بدايةً أن تسريحة الشعر تلك تناسبها تماماً، وأنها أظهرت إلى العيان شخصيتها الداخلية، أو أي شيء من هذا الهراء. ربما شعرت بما يشبه الإحساس بالخديعة أن باسو يمكن أن يكون ذلك الشخص الذي امتدح تسريحتها الجديدة أثناء غيابي وهو يمر أمام مكتبها واضعاً إحدى يديه في جيب بنطاله، و يلوح بالأخرى نادباً حظه.

وهكذا، قررت ألا أقول شيئاً. لم يكن لأي شيء سأقوله أن يغير من الأمر شيئاً؛ لا بل ربما يجعلها تشعر بالنفور مني لبضعة أيام، كما يمكن أن تعبس في وجهي وترفض إعداد القهوة لي. وهكذا

Twitter: @alqareah

وبدلاً من كل ذلك، فقد رسمت على وجهي ابتسامة لطيفة وأخبرتها أنني أشعر بتحسن كبير عدا بعض من بقايا ضعف في ساقيّ لازمني لأسابيع عدة بعد الإصابة بالتيفوئيد، ونعم كنت أعتني بنفسي وأشرب فقط عصير البرتقال صباحاً ومساءً. كما طلبت إليها أن تتلطف ـ ليس من الضروري أن يتم ذلك الآن ـ وتحضر النباتات إلى غرفتي لأشعر أنني أقيم بين الأحياء من جديد. ثم، وبعد أن احتسيت قهوتي وشعرت بالقوة تعود إلى أعصابي طلبت إليها أن تعيد ترتيب كل هذه الأسماء التعيسة وأرقام الهواتف والعناوين التي أضعتها، ونتف حياتي المتشظية والمخلفات البائسة لتلك السنين من العطاء المستمر.

كان أداؤها جيداً في اليوم الأول. فقد رتبت ثلاث صفحات تتضمن أسماءً وعناوين وأرقام هواتف، مرتبة بحسب التسلسل الأبجدي على جهاز كومبيوترها. لم يخامرني شك في أنها كانت تريد من خلال ذلك أن تثير إعجابي، خصوصاً الجزء المتعلق بالترتيب الأبجدي. لم أخبرها قطّ أنني ملمّ بكل هذه الأشياء المتعلقة بالكومبيوتر منذ ثلاث سنوات، أي قبل وقت طويل من بداية تلقيها دروساً مسائية في كيفية استخدام الكومبيوتر. أظن أنها أخذت هذه الدروس لتحسين فرصها في الحصول على وظيفة أفضل وللارتقاء على السلم الوظيفي. ربما كانت هذه هي رغبتها، وربما لم تكن كذلك. سوف تكتشف المسكينة جوي يوماً ما؛ جوي، تلك المسكينة العجوز التي كانت مثيرة في يوم

Twitter: @alqareah

من الأيام، عزيزتي جوي الفضولية والمعقدة والتي تنتمي إلى الطبقة الوسطى، أن السلالم غير ذات أهمية. السلالم لا تؤدي إلى أي هدف، فكلما تسلقت السلالم أكثر شعرت بحاجة أكبر إلى تسلق درجات إضافية. كل ما تحتاج إليه هو أن تجد درجة على هذا السلم واسعة ومريحة ولا خوف من الوقوع منها؛ وأهم ما في الأمر هو أن تبقى هناك، إذ لا توجد درجة على السلم إلا ويمكن أن يقع المرء منها. أردت أن أمسك بها وأقول لها: «إنني متمسك بالدرجة التي أجلس عليها يا جوي وأعرف أن باسو العجوز يحاول أن يدفع بي عن هذه الدرجة. وأعرف أنه في النهاية لن تكون لديّ القوة لأتمسك بها. بدأت لتوي أشعر بوهن في رسغيّ وذراعيّ. سيقذف بي يوماً ما بعيداً عن هذه الدرجة ولكنني سوف أقاومه». أردت أن أخبرها عن الصفاء الذي هبط على عقلي في تلك الليالي عندما جفاني النوم، وكيف أن هذا الصفاء أضاء عقلي مثل كرنفال من الداخل. أردت أن أحكي لها كيف كنت أخطو فوق البقعة العشبية بقلق واضطراب وأراقب عربة العجلات الثلاث تمرّ أحياناً بالقرب مني، أو ذلك العامل المخمور وهو عائد إلى منزله، وبعد ذلك كيف كنت أسكب لنفسي كأساً آخرى من الويسكي بعمق ثلاث أصابع وأضع فيها ثلاثة مكعبات من الثلج، وأشعر أنه ما زال في مقدوري احتساؤه. ليتني كنت أستطيع استجماع قواي؛ ليت باستطاعتي إقناع نفسي أن ثمة ما يستحق أن يقاتل المرء من أجله في نهاية المطاف.

Twitter: @alqareah

تركت جوي تلك الصفحات الثلاث بشكل طبيعي على طاولتي. أدهشتني مقدرتها على القيام بما طلبته منها بهذه السرعة وهو ما قمت ببنائه بجهد كبير على امتداد العديد من السنين قطعة وبالحبر الأسود والأخضر والأزرق. لا بد أنها كانت تستمع إلى الأحاديث التي كنت أجريها، على ما أظن. أو أنها ربما كانت لديها موهبة طبيعية أهّلتها لتكون سكرتيرة ناجحة في المقام الأول، وتتمثل في القدرة على الاستماع وتدوين الملاحظات والتصنيف والتذكر. ربما كانت قد كتبت بشكل اعتباطي أي اسم سمعتني أذكره، أو أي رقم هاتف أو عنوان وجدته فوق طاولتي، أو البطاقات الشخصية التي كنت أرميها، على مجموعة من القطع الكرتونية السميكة المغلفة بأغطية عليها رسوم كانت في حوزتها لتشارلي براون وهو يبتسم. في أي حال لقد قامت بالمهمة خير قيام. حصلت في نهاية المطاف على ثلاث صفحات من مفكرتي، وأكاد أراهن أنها تحتفظ بنسخة من هذه الصفحات الثلاث في حال فقدتها مرة أخرى أو ربما بدافع الفضول، والأقرب إلى الظن أنها بذلك أرادت أن تضفي لمسة ما، من الواقعية، على ثرثرتها خلال فترة الغداء.

لو رغبت حينئذ، كان في إمكاني الجلوس في المكتب والاتصال بكل الأشخاص الموجودة أسماؤهم على تلك الصفحات الثلاث لسؤالهم عن خططهم في تلك الأمسية، أو في اليوم التالي، أو خلال عطلة نهاية الأسبوع، أو العطلة الصيفية. كان يمكن أن أخبرهم باغتباط أن مينا

Twitter: @alqareah

تركت المنزل وأنني أصبحت حراً من جديد وأن في إمكاني لقياهم مجدداً والانضمام إلى حفلات أعياد الميلاد وحفلات المناسبات وحفلات التسويق وحفلات بداية أو نهاية الموسم، أو أي حفلات أخرى. حفلات من كل نوع: الحفلات المخطط لها بعناية؛ المدعوون إليها أسماؤهم موضوعة في لائحة مدروسة ومعدة إعداداً جيداً بأهدافها المعلنة وأهدافها الخفية، وبلائحة الطعام فيها، وجدول أعمالها، والجزء المتعلق بالكوكتيل؛ وفي النهاية، بالفوضى المنتشرة في المكان، والصحون المليئة بأعقاب السجائر المطفأة، وذكريات عن أحاديث منها ما كان جدياً، ومنها ما كان مجرد ثرثرة، والتعليقات اللاذعة والتلميحات وتبادل البطاقات الشخصية. لكن مجرد التفكير في هذه الأجواء جعلني أشعر بالغثيان؛ فانكفأت عنها يرافقني شعور بالهلع الحقيقي. طويت هذه الصفحات الثلاث ووضعتها في الجانب الأيسر من درج طاولتي، وهو ذلك الجانب نفسه الذي كنت أحتفظ فيه بدليل المطاعم وطوابع البريد والعلبة التي تحتوي على خطيئتي المتمثلة بالرسالة الأخيرة التي كتبتها لي روحيني وصورتنا المشتركة الوحيدة.

قلت في سري، دع جوي تكمل بقية الأرقام إن استطاعت ذلك، وإلى أن يتم ذلك، ففي إمكاني الانتظار. في المحصلة، أنا من فقد مفكرته. أما الآخرون فلم يفقد أحد منهم مفكرته.

ومع ذلك لم يرن الهاتف في المنزل لأيام عديدة.

Twitter: @alqareah

عندما رن جرس الهاتف أخيراً في أوائل شهر كانون الأول/ديسمبر، تركته يرن ويرن ويرن، بينما كنت أراقب الجهاز بتمعن كما لو أنني أردت أن أعرف المتصل من خلال صوت رنين الهاتف، ولأحكم على صدقه أو صدقها من خلال نغمته الحادة. هل كان هذا الرنين يحمل في طياته إصرار مينا المعهود؟ أم أنه شخص آخر أراد أن يتحدث إلي أو يطلب مني شيئاً؟ هل كان شخصاً يريد أن يقدم لي خدمة بمجرد أنه يجري هذه المكالمة، أو أنه أراد فعلاً أن يتحدث إليّ؛ إليّ أنا من بين كل الناس في هذا العالم؟ توقف الرنين وفكرت بيني وبين نفسي أنني لن أجد جواباً أبداً لأي من أسئلتي العصابية. بعد ذلك رن الهاتف مرة أخرى، وفي هذه المرة، قمت بالتقاط السماعة فوراً.

-٦-

كان المتصل جامشيد. كان ذلك يعني أن المتصل أيضاً زوجته بريندا وابنته روحان التي تبلغ من العمر أحد وعشرين ربيعاً، وذات الأسنان الناتئة، وابنهما المهووس بالهامبرغر ورقائق البطاطا. أنسى اسمه دائماً. نسيت اسمه منذ اللحظة التي ولد فيها، مروراً بكل تلك السنين التي مضت عندما ذهبت أنا ومينا وكنا متزوجين حديثاً، إلى مستشفى جنوب دلهي للتوليد لعيادة بريندا، حاملين معنا كتاباً ضخماً عن تربية الأطفال، وعلبة رضاعة للأطفال على سبيل الهدية. أشعر بالذنب عندما أنظر إليه. لو لم نقدم للأم زجاجة الرضاعة، ربما لما

Twitter: @alqareah

كان الولد نما بهذه الطريقة الوحشية مثل برميل مليء بطعام من الخردة؛ فهو يُشاهَد دائماً وهو يحمل كأساً ورقية من سائل الكولا الكبيرة الحجم.

بادر جامشيد فوراً بالهجوم.

«أين كنت طيلة هذه المدة؟ لا اتصال، لا شيء».

«لكنك أنت أيضاً لم تتصل».

«فهمت. سيكون الأمر على الشكل التالي. فهمت. لم نتصل. بعد كل هذه السنين تبادر بالحديث بمنطق الرسميات».

«لا توجد مشكلة يا جامشيد. أنا بخير وسعيد باتصالك».

استرخى بعد هذه العبارة.

«إسمع يا أفتاب، لا نريد أن نبدو وكأننا نتدخل في ما لا يعنينا. نعرف أنك كنت في صدد حل بعض الأمور. فكرنا أن نعطيك فسحة من الوقت، لكن صدقني أنني وبريندا كنا نفكر فيك دائماً. فيك وفي مينا يومياً. شيء محزن. كل ما حدث محزن جداً. إنه يحطم قلبي».

«كيف العائلة؟»

«ستقوم روحان بعرض لوحاتها في المعرض يوم الخميس المقبل. المعرض هو في قبو تريفيني وهي توّاقة جداً إلى حضورك. يجب أن

Twitter: @alqareah

تحضر وتدعو أكبر عدد من الأشخاص للحضور معك. إنها تعتمد عليك كثيراً وعلى معارفك في إعطائها قوة دفع كبيرة وثقة بالنفس».

طبعاً. هذا هو سبب اتصاله. لماذا أرادني أن أحضر كل معارضه، وكل معارض بريندا؛ وقبل سنة ونيف تقريباً، في كل معارض روحان أيضاً. كنت أصغي إليه وهو يطلب إليّ الاتصال بالمصورين والمصممين والمحررين الإبداعيين، وكُتّاب المخطوطات وعارضات الأزياء، وصانعي الأفلام وحثهم على الحضور وإبداء إعجابهم، وربما شراء لوحات روحان التصويرية التي تتضمن فازات مكسورة، وأساور ملونة، وتلالاً من ألوان النباتات المقدسة وثلاث حبات بندورة وبرتقالة نصف مقشرة ولمبات قديمة في أحد المحلات. أستطيع تخيل كل ذلك في اللحظة التي كنا نتحدث فيها. وسوف يقومون بترتيب هذه المعارض على مدار الفصول الأربعة، الصيف والخريف... أتعبني مجرد التفكير في الأمر.

كانا يضعان أسعاراً مرتفعة جداً لمعروضاتهما. كان هذا دأب جامشيد وبريندا منذ مدة طويلة، وسيبقيان كذلك حتى نهاية حياتهما الفنية. فهو دائماً ما كان يضع سعراً مرتفعاً لرسوماته، وكانت هي تضع أسعاراً مرتفعة للغاية لتماثيلها الخشبية. أظن أنني أعرف كيف بدأ بهذا الأسلوب. كان جامشيد أيام الفقر الأولى يرسم في خيمة من البلاستيك الواقي من المطر، عندما كان يسكن في منطقة ديفنس كولوني. كانت الغرفة التي يسكن فيها عبارة عن استوديو للرسم وغرفة

Twitter: @alqareah

نوم وصالة استقبال في الوقت نفسه. كانت هناك قطع من قماش القنب وفراشي الرسم موضوعة في فنجان، وكانت هناك أيضاً قطع من القماش القديم مطلية بالدهان وجدران عارية. كان الترف الوحيد الذي يشعر بوجوده يتمثل بمجموعة من النباتات ذات الأوراق العريضة، والتي كانت موضوعة على الشرفة المكشوفة الملاصقة لتلك الغرفة. أما بريندا، وكانت طالبة علم نفس في سنتها الثالثة بجامعة السيدة شري رام والتي كانت تراودها أفكار غائمة عن النحت، وكان دبوس أنف جدتها الذهبي يضفي على وجهها جاذبية مميزة، فقد كانت تأتي إلى تلك الخيمة في فترات بعد الظهر. وجدت أول منحوتة لها مكاناً بين تلك النباتات الخضراء، وهذا ما أضفى على المنظر العام شكلاً متكاملاً. عندما زرت الخيمة في إحدى الأمسيات، وجدت زجاجة فارغة من الخمر وكأسين قرب خفّيها على طرف الفرشة الممدودة على الأرض، وشممت رائحة ممارسة الجنس مختلطة مع الرائحة النفاذة للألوان الزيتية. شعرت بالحسد تجاههما عصر ذلك اليوم لشجاعتهما وتمتعهما بالحرية ولطبيعتهما الفنية وحبهما الهارب من أعين الفضوليين.

ربما كانت هذه هي الفترة التي قررا فيها أن يصبحا من الطبقة الغنية في المستقبل. هناك بعض المنطق في استراتيجيتهما تلك على ما أظن. فالأحمق الذي سيشتري إحدى معروضاتهما، سيدفع مبلغاً كبيراً من المال. وعليه فإنه سيضع هذه القطعة في غرفة الاستقبال

Twitter: @alqareah

وليس في غرفة مكتبه أو في الممر أو في غرفة نومه. سوف توضع حيث يمكن للناس أن يروها ويتحدّثوا عنها أو يقتربوا منها ليتفحصّوها، أو حتى ربما ليسألوا بطريقة فيها الكثير من الخجل الناجم عن الإحساس بقلة الذوق عن المبلغ الذي تم دفعه للحصول على هذه القطعة البائسة. هذا ما كان ينتظر المضيف حصوله، وفي الوقت عينه، في مكان ما بعيد من هذا المكان، في استوديو جامشيد، يكون هذا الأخير ممسكاً بفرشاته بيد، في الوقت الذي تكون فيه يده الأخرى تمشط لحيته الفوضوية من دون وعي: فهو في صدد إكمال واحدة من رسوماته التي لا بد من أن تكون لها فخامة لوحات بيكاسو نفسها. ومن يعلم! فقد يأتي يوم ويصبح فيه هذا الرسم محط الأنظار، وربما يعرض للبيع في المزاد العلني. كنت دائماً أعتقد أن بريندا هي الأكثر عقلانية نظراً إلى ثقتها الكبيرة بنفسها والطريقة التي تبيع فيها تماثيلها الثقيلة. أظن أنها حاولت في الفترة الأولى من حياتهما المهنية إقناعه بخفض أسعار رسوماته كي يبيع أكثر ويحقق مبدأ العدالة كما يقولون. دع أعداداً أكبر من التماثيل والرسومات تظهر في الممرات كي يراها الناس، الكثير من الناس وهم يخلعون معاطفهم وشالات أعناقهم، وأيضاً وهم ينظرون إلى أنفسهم في المرآة. دعها تصبح مشهورة إلى درجة أن الناس يمكن أن يلقوا نظرة على لوحة مرسومة على قماش القنب بألوانها البنية الباهتة ويهمسوا بصوت ينم عن وعي فني وهم يرشفون جرعة من الخمر من كؤوسهم:

Twitter: @alqareah

هذا الرسم لجامشيد، أو عندما تقع أعينهم على تماثيل خشبية ملساء يصرخون: أوه، متى اقتنيت منحوتة بريندا هذه؟ لكن خطة بريندا المنطقية لم تقلع قطّ. فقد رفضها جامشيد بسرعة.

في أي حال، لم أكن أعرف أن كل ذلك سيسبب لي الكثير من الإزعاج. كان من الممكن أن أقوم بزيارة معارضهم من دون أن أشتري شيئاً. كان يمكنني مثلاً الذهاب إلى معرض روحان التصويري، والتجول والنظر إلى الصور بطريقة تنم عن الذكاء ، متفوهاً ببعض التعليقات البليدة على الإضاءة والزوايا، ومصافحاً أيدي العديد من الأصدقاء المشتركين الذين لا بد من أن يجتمعوا هناك لشرب كأس من النبيذ والمغادرة بعد ذلك. أعني أنّ من الناحية التقنية لم يكن هناك ما يمنعني من القيام بذلك. ففي المحصلة كان جامشيد يريدني أن أكون هناك فقط لمجرد الاجتماع بالآخرين، وللاستفادة من تعليقاتي حول عمل مصورة شابة واعدة، ولإعطاء المناسبة الكمية المناسبة من الثقل المطلوب والتجربة والكرامة والاحترام.

من جانب آخر، متى كانت آخر مرة خطوت فيها خارج المعرض الذي أقامه أي فرد من هذه العائلة من دون أن أشتري قطعة واحدة على الأقل؟ ربما كان ذلك لأنّني شعرت بأن ليس من اللياقة أن تخرج هكذا، كان الأمر سيئاً سيبدو لو أن جامشيد وبريندا ظنا أن أعمالهما لا تعجبني بما يكفي، أو أنهما لا يعجباني بما يكفي. كان ذلك سيظهر

Twitter: @alqareah

وكأنه نوعٌ من الخيانة للعهد الذي قطعناه سوياً في تلك الغرفة في منطقة ديفنس كولوني.

لا أعرف أين اختفت كل تلك الأغراض؛ ربما كانت مينا تعرف. أحببت دائماً رسومات جامشيد منذ أن قام برسم سريع لها وهي جالسة على حافة الكنبة بالقرب من لمبة جلدية بعد شهور قليلة على زواجنا. يوجد الآن ثقب كبير في غطاء اللمبة الجلدية. تركت مينا البيت ولكن رسمها كان لا يزال على جدار غرفة الطعام عندما أغلقت المنزل. أظن أنها تركت الرسم هناك بشكل مقصود لتعذبني بطريقة أو بأخرى. كان رسماً بسيطاً لكنه كان متقناً، وتجلى ذلك في التشابه التام بين الأصل والرسم، وفي استخدام سائل الرسم. كان جامشيد يتميز بوجود شحنة عاطفية صادقة في داخله، آنذاك على الأقل. فهو لم يقم بعمل رسم لي ولمينا معاً قطّ، على الرغم من أنه كان يتحدث عن هذا الموضوع دائماً، ولهذا فهو ربما له الحق في أن يعرف أين خبأت كل رسوماته التي اشتريتها: في أي حقيبة وفي أي خزانة وفي أي مرآب.

أظن أن بعض تلك الرسومات لا تزال ملقاة في المكتب وملفوفة بورق الفقاعات للحماية. لا بد من أن باسو سرقها كلها الآن، أو أنه ربما أهداها لحبيبته نيتا. كان يجب عليّ الاتصال بمينا والطلب إليها أخذ الرسومات جميعها قبل أن أترك المكتب. كان يمكن أن أهدي بعضها لجوي على سبيل هدية الوداع. كان ذلك سيسعدها جداً، وربما اعتقدت أنني كنت أمارس معها شكلاً من أشكال الغزل الفني. وهذا ما

Twitter: @alqareah

كان ليسعدها فعلاً. إنها من النوع الذي يدغدغ مشاعره الغزل الفني كالشعر والرسم وقصاصات من الشعر المنثور الذي لا معنى له. كان يمكنني بعد ذلك القول لها إنني أرغب في معاشرتها، وإنني طالما رغبت في ذلك منذ اليوم الذي بدأت فيه العمل في المكتب. كنت أود التأكد مما إذا كان ذلك سيدغدغ مشاعرها.

-٧-

هذا القطار يعاني سلبيات طائرة ليس فيها أي إيجابيات. فالمقاعد ضيقة وهي ثلاثة على كل جانب يفصل بينها ممر. كنت محشوراً إلى نافذة القطار؛ وعلى عكس الطائرة فإنهم هنا لا يقدمون النبيذ الأحمر الذي كان سيساعدني على تحمل هذه الرحلة. يجلس إلى جانبي مباشرة شخص بلباس عسكري أسود لم أستطع أن أميّزه. تظهر في فمه أسنان ناصعة البياض تحت شاربين يلمعان، وأستطيع شم رائحة البريليانتين في شعره. أعرف أنه متلهف للحديث معي ليضيع الوقت، وهو ما أتوقع أنه سيقوله دون شك، كما لو أن هذا هو الشيء الوحيد الذي ما زلت أجيده ألا وهو مساعدة شخص أحمق في زيّ عسكري مزيف ليضيع الوقت في طريقه إلى بلدته. كنت سأقول له لو بدأ بالتحدث إلي إنني أطلب عادة ثمناً لهذه الخدمة. كتمت رغبة شديدة في الذهاب إلى الحمام خلال الدقائق العشرين الماضية؛ إذ كان عليّ أن أمر من أمامه وأطلب منه أن يطوي صينية الطعام أمامه، والتي فتحها منذ أن بدأ

Twitter: @alqareah

القطار بالتحرك. ولو بادرته بالحديث لفتحت شهيته على البدء بالمحادثة التي كنت أخشى أن تُفرض عليّ.

وعليه، فقد أغمضت عينيّ متظاهراً بالنوم تاركاً عقلي يخب مع الصوت المكبوت لدواليب القطار.

في تلك الأيام كانت الرحلة بين دلهي وبومباي تستغرق اثنتين وثلاثين ساعة. يضفي الليل عنصر إثارة على الرحلة؛ هناك موسيقى في الجو وفتيات في المقصورة المقابلة؛ إذ إن موعد احتفالات الجامعة بدا قريباً. كان القطار يتهادى صوب بومباي عابراً الجسور الطويلة التي كانت تمتد على سرائر صخرية متثائبة عبر الأشجار الصامتة ومعابر الطرق الصغيرة المهجورة إلا من ضوء أحمر وحيد وقنديل من الكيروسين. كان القطار غالباً ما يتوقف مفسحاً الطريق في وسط السهل المظلم لقطارات أكثر سرعة، كما كان يتوقف خارج المفارق الكبيرة إلى أن يعطى الإذن بالحركة. هذا ما جعل الرحلة تستغرق اثنتين وثلاثين ساعة. في إحدى المحطات، خلعت خفّ القنب الذي أنتعله، وجاكيت الطيارين ذات الياقة المصنوعة من الفرو، وذهبت في اتجاه نهاية الممر. كان الجميع نائماً ما عدا مفتش التذاكر وشخصاً آخر، يدخنان عند الباب. وكان كل منهما قد رفع ياقة سترته للوقاية من البرد. وكان هناك أيضاً ولد صغير السن يلبس طاقية بالية غطت الجزء الأكبر من رأسه ورقبته تاركة حيزاً صغيراً ظاهراً من وجهه، يصب الشاي من إبريق مصنوع من الألمنيوم في فناجين خزفية

Twitter: @alqareah

بنية اللون. كان مذاق الشاي شبيهاً بمذاق الوحل المشوي لكنه كان حاراً وحلو المذاق. وكان القمر يرسل شعاعه الشاحب عبر السهل، وبدت النجوم أكثر قرباً من أي وقت مضى.

لاح من بعيد ضوء أحمر على السكة يشير إلى اقتراب دخول القطار في أحد التقاطعات الكبيرة. وبرزت أضواء المدينة وراءه كومضة بعيدة في السماء. مشيت داخل القطار. شعرت بالحرية والحيوية. كان هناك الكثير مما ينتظرني في العالم والحياة والمستقبل والحاضر. حدقت في الأعلى ذلك أنني شعرت غريزياً بأن ثمة من ينظر إليّ. كانت إحدى الفتيات من المقصورة الأخرى. كانت ذاهبة إلى العيد نفسه المقام في بومباي. كانت تنظر من خلال الزجاج بعينين ناعستين. انعكس نور القمر الشاحب على وجهها. رفعت من دون تفكير فنجان الشاي الخزفي في اتجاهها. ابتسمت وأومأت لي برأسها إيماءة خفيفة. هرعت في اتجاه الصبي قرب الباب آملاً ألا يبدأ القطار بالتحرك. وبما يشبه المعجزة فقد بقي القطار واقفاً بينما كنت أشتري الشاي وأقدم لها الفنجان. دفعت بيدها البيضاء النحيلة من خلال الزجاج نصف المفتوح لكنها سحبتها بسرعة كما لو أنها خافت من لسعة برد. أمسكت بالفنجان بكلتا يديها وبدأ البخار المتصاعد من الفنجان يشكل ما يشبه السحابة فوق النافذة إلى درجة أنني بالكاد كنت أراها. أثناء ذلك بدأ القطار بالتحرك، فرميت فنجاني في الأدغال الشائكة تحت سكة القطار وعدت مسرعاً إلى مقعدي.

Twitter: @alqareah

بدأ القطار يتباطأ بما يشبه التسكع عبر سهول وَسَطِ الهند البنية اللون. سار في طرق بديلة طويلة كما لو كان متردداً بشكل مقصود بشأن الوصول إلى محطته النهائية. فكان يمارس لعبة السلالم والثعابين عبر الأرض ذات التربة الحمراء والتربة السوداء والوهاد الصخرية الموازية لمجاري الأنهار الجافة والأساطير حول العصابات الهندية. كنا نجلس على الدرج ونمسك سكة القطار الفولاذية الباردة ونترك البلاد تنساب عبر عقولنا مترافقة مع الرياح التي لم تكن لها نهاية. كنا نرى الليل يهبط على مئات من القرى حيث يُحرق روث البقر ويثير سحاباً شتوياً يرتفع إلى عنان السماء. أما في الصباح فقد كنا نجلس في عربة الطعام التي عمرها كعمر العالم نفسه إلى طاولات عليها مناديل مطوية وعلب الملح والفلفل ومنافض سجائر بيوترية ووردة اصطناعية. بحثت عن مثل عربة الطعام هذه في أصقاع الأرض لكنني وجدت عربات تقدم وجبات سريعة وشطائر وقهوة مسكوبة في كؤوس خاصة لاحتسائها خارجاً في أماكن أنيقة ومناسبة. لكن لم تقع عيناي على مثل هذا الكسل ومضيعة الوقت اللذين كانا يجريان عبر هاتين الطاولتين، وخصوصاً الطريقة التي كان يتم فيها التعارف وتبادل الأحاديث التي ليس منها طائل، مع تناول القهوة والبيض المقلي المملح قليلاً.

بعد ستة أيام على انقضاء زحمة العيد، أصبحت تلك الفتاة الجميلة الشاحبة الوجه أول فتاة أقوم بتقبيلها. بقيت رائحة عطرها النفاذة في

Twitter: @alqareah

مخيلتي لوقت طويل، في الوقت الذي كان شعرها يحتضن رأسي، وعلق في ذهني منظر حوض السهل الممتد أمامي عندما كنت أنظر إليه من فوق كتفها وهو يتلألأ بأنواره الحمراء والخضراء المتجهة صوب البحر. ما زلت أحتفظ بالقصاصة التي كتبت عليها ملاحظتها المترددة التي تودعني فيها. إنها ما زالت مطوية في مكان ما، داخل إحدى حافظات نقودي القديمة التي فقدت لونها منذ وقت طويل.

أظن أن ذكريات كهذه تجعل من رحلات القطار مصدر حنين إلى الماضي بالنسبة إليّ. في المقابل، تشعرني الرحلات الجوية بالإثارة الجنسية. أفترض أن لهذا علاقة بالنبيذ الذي يقدم أثناء الرحلة أو ربما بسبب الارتفاع أو بسبب وجود المضيفات الجويات؛ حيث أشعر بحفيف لباس الساري الحريري الذي يرتدينه، وهنّ يمشين بجانبي ويلامسنني بأطراف أجسادهن على كتفي، بالإضافة إلى منظر أطراف تنانيرهن مسترسلة على ظهورهن، أو ببساطة، بسبب الإحساس بأن هاتيك النساء محصورات معي في هذا الحيز الضيق والمغلق؛ كل هذا يجعل كل الجنس الذي أستطيع تخيله يتلاعب في رأسي. كان هذا واحداً من الأشياء التي كانت تزعج مينا؛ أنا متأكد من أن هذا الأمر كان أحد الأسباب التي جعلت مينا تتركني. أرادت الشيء الحقيقي وفي الفراش، المرة اللعينة تلو المرة اللعينة؛ ولكنني لم أكن أستطيع مجاراتها في رغبتها.

Twitter: @alqareah

- ٨ -

كانت مينا تتصل بي بين الفينة والفينة بعد أن هجرتني. ومن دون وعي مني، وعلى الرغم من كل التشويش والكره الذي كنت أشعر بهما نحوها كنت أنتظر مكالمتها. كنت دائماً أنتظر مكالماتها الهاتفية طيلة السنين الأربع عشرة الماضية، وكنت أدعو في سري أن تكون هي التي ستكون في انتظاري لأقوم بالاتصال، وأن تكون لديّ من القوة ومن الرجولة ما يكفي لأجعلها تنتظر تلك المكالمة. ولكن لم أتمكن من القيام بذلك عندما كان عمري ستاً وعشرين سنة أو عندما بلغت الأربعين. والأنكى من ذلك أنني في سن الأربعين لم يكن لديّ وقت للادعاء أكثر من ذلك. وهكذا وجدتني في انتظار مكالماتها تماماً كما أفعل الآن خائفاً من رنين الهاتف وأنا على متن هذا القطار. أعلم أنها لن تستطيع الاتصال ولن تحاول القيام به إلا إذا قمت بإخبارها عن مكان وجودي. هذا القطار ليس من نوع القطارات التي توفر الخدمات الهاتفية؛ وكنت قد أعدت جهازي الخلوي في اليوم الذي تركت فيه المكتب، وهذا ما وفّر لي إحساساً بالحرية وعدم الالتزام. وقد لازمني بعض من هذا الإحساس بالحرية لاحقاً. أشعر أن في استطاعتي البدء من جديد يوماً ما. وفي اللحظة التي أتجاوز فيها الإحساس بالعزلة والإحباط والغوص في الشفقة على الذات، لربما أستطيع حتى الاستمتاع بعزوبيتي من جديد. هل أن كل الأشياء التي لم أستطع القيام بها كانت بسبب أن كلفتها ثلاثة أضعاف؟ ربما استطعت يوماً ما،

Twitter: @alqareah

أن أسافر بحراً أو جواً إلى آيسلندا أو أركب في عربة تجرها الثيران صوب كيلاش مانساروفار، أو أتجول في المدن الساحرة على طريق الحرير؛ أو حتى القيام بما يصعب تصديقه، الذهاب إلى إحدى المدن الغريبة والولوج إلى حانة للعازبين... لا! عاد الأمر يبدو مقززاً من جديد.

أحياناً كانت مينا تتصل بي إلى المكتب. كانت اتصالاتها إلى المكتب الأكثر صعوبة؛ ذلك أنني كدت ألمح طيف ابتسامة على وجه جوي عندما كانت تحول لي المكالمة وبعد ذلك تتكئ على الزجاج الفاصل بيننا لتتأكد من أنني سمعت صوت جرس الهاتف وأنني أمسكت بالسماعة. لم أكن أستطيع منع الإحساس بأنها كانت تسترق السمع، وحتى عندما لم تكن تفعل ذلك فإن مجرد نظرتها إليّ من خلال الفاصل الزجاجي كانت كافية لجعلها تسمع كل ما كانت مينا تقوله لي. لم يكن يهمني كثيراً أن تسمع ما أقوله أنا، لأن ما كنت أقوله لم يتعدَّ كلمات مثل «نعم» و«كلا» أو «لننظر في الأمر» أو «أظن ذلك» أو أنني «سأبذل أقصى جهدي اللعين»؛ عبارات لم تكن تلزمني بشيء ولا تكشف شيئاً، حتى إنها لم تكن تعني شيئاً، إذا فهمَت ما أعنيه. لكنني لم أشأ أن تعرف جوي أو أي شخص آخر ماذا كانت مينا تقول لي. لم أشأ أن يعرفوا أنها ما زالت تتلاعب في كل مظهر من مظاهر حياتي، وأتصورها وهي تفتح خزانتي باحثة عن دثارها بين ثيابي الداخلية، أو تنقب في أهم أوراقي التي جمعتها منذ

Twitter: @alqareah

عشرين سنة باحثة عن مغلف بريد جوي، أو أنها ما زالت تحتفظ بي مكبلاً وملتصقاً ومشدوداً إلى شبكة من أسئلتها وملاحظاتها. ولقد توصلت إلى الاستنتاج بأنني رهن إشارتها وطوع بنانها مقابل لا شيء.

لكنها كانت تتحدث عن نفسها في معظم الوقت. تحدثت في آخر مرة اتصلت فيها عن المرأة التي تدير وكالة غوث الأطفال والتي بدأت مينا ترسم بعض التصاميم الفنية لها. كانوا يستخدمون هذه التصاميم كبطاقات تحية بريدية وتقاويم سنوية وأشياء من هذا القبيل. كان من الأفضل بالنسبة إلى تلك السيدة الغبية، أعني المديرة، لو أنها فتحت مكتب سفريات أو صالون لقص الشعر أو لإعطاء دروس في الطبخ. فهي كما كانت تقول مينا، لم تكن لديها أي فكرة عن الأطفال، ولم تكن لديها أي مشاعر تتعلق بالغوث أو الفن. وأكثر من ذلك، لم تكن تتمتع بأي تعاطف تجاه هذه القضايا؛ وإذاً كيف يمكن أن تدير وكالات غوث لأطفال يتامى، أو أطفال منبوذين إذا لم يكن الإحساس بالتعاطف يتقطر من كل ذرّة في كيانها. تابعت الاستماع إليها لمدة خمس وعشرين دقيقة، وما زلت حتى الآن أتساءل عن السبب الذي منعني من قفل سماعة الهاتف. لم أكن مديناً لها بذلك بعد الآن. لست مديناً لها بشيء، لست مديناً لأحد بأي شيء.

كانت هي، وجميع من أعرف، مدينين لي بكثير من الأشياء.

Twitter: @alqareah

لكنني كنت أستمع، وكنت طوال الوقت، أراقب جوي من خلال زجاج النافذة وهي متبرجة بطبقة جديدة من أحمر الشفاه قبل مغادرة المكتب لتناول الغداء. غالباً ما كنت أتساءل إلى أين كانت تذهب لتناول الغداء. هل كانت تأكل كل يوم في غرفة الطعام المخصصة للموظفين أم أنها كانت تخرج إلى منطقة كونوت المزدحمة في هذه الحرارة الخانقة؟ لو كنا نعيش في بومباي، على الأقل في الجزء البسيط الذي أعرفه من بومباي، لافترضت أنها كانت ستذهب إلى أحد المحلات التي تبيع السندويش مع السلطة في منطقة فلورا فاونتن، والذي تقصده السكرتيرات عادة حيث يتسنى لكلّ منهن الاختلاط بسهولة مع مثيلاتها من ذوات السيقان النحيفة، والمرتديات فساتين فضفاضة من الأسفل، ولديهن موضوعات كثيرة للثرثرة حول مدرائهن المتوسطي العمر؛ وهناك ستسترعي اهتمامهن بقصص عن زوجتي التي انفصلت عني من أجل رجل أصغر مني وأكثر جاذبية، ومع ذلك فهي ما زالت تتصل بي وتسوّيني بالأرض، وتبدي استغرابها من قبولي بذلك. كانت هذه القصص ستؤدي بهنّ إلى حال من الهستيريا وهنّ يتناولن شرائح البندورة والخيار.

وجدت أن من الأسهل التعامل مع هذه المكالمات الهاتفية في المنزل. توجد في المنزل آلة استقبال المكالمات وهكذا فلا حاجة إلى وجود جوي. كان يمكن أن أختار التوقيت المناسب إما للرد على المكالمة وإما للإدعاء بأنني لست موجوداً في المنزل، وأنصت إليها

Twitter: @alqareah

وهي تترك لي رسالة على الآلة: «هذه أنا، مينا. اتصل بي. أحتاج إلى التحدث إليك».

أجل. وماذا عن السنين الأربع عشرة وكل الأوقات التي كنت أنا من أحتاج إلى التحدث إليها، عندما كنت أنا أحتاج إليها للجلوس معي والإصغاء إلى مشاكلي والمضايقات التي أتعرض لها. وقتها تركتني وانكفأت إلى قوقعتها الأنانية. أيام الشِّعرى[1] الصامتة أضحت سنوات الشعرى الصامتة. وبدأ توحدنا كزوجين يتآكله الصمت ويدمره من الداخل تماماً كالسكر الذي، في رأي الدكتور راو، يرتفع بنسبة مخيفة في مناطق جسدي الرئيسية والفرعية. يمكن للصمت أن يدمّر كل شيء، فهو يدفع العقل للشرود في كل الاتجاهات؛ كما أنه يؤدّي وبصورة تلقائية، بما يمكن أن تحوكه الأحاديث اليومية والأحاديث العادية حول محلات السمانة وأفلام السينما والكتب والصحف من حال المد والألفة بين الزوجين إلى حالة من الجزر المنفلت. فبدلاً من أن تبدي رأيها في سبب تردي الوضع بيننا، اختارت الصمت. وبدلاً من أن تصغي إلى شكوكي السوداء، دفعتني في اتجاه الصمت المقرون بالشرود. إذاً، لماذا تطلبني الآن؟

أتحدث إليها عادة عندما تقول إن الأمر يتعلق بأنكور. كانت تعرف

---

(١) الشعرى: كوكب نيّر يطلع عند شدة الحر. وفي التنزيل: «وأنه هو ربُّ الشعرى».

Twitter: @alqareah

أنني سأرد على كل تلك المكالمات، ولكنها كانت تعرف أيضاً أنها لا تستطيع أن تستخدم هذه الحيلة غالباً؛ وإلا فإنني سأتجاوز هذا الأمر أيضاً ولن أرد على مكالماتها حتى إن كانت تحتاج فعلاً إلى التحدث إليّ.

تبين لي أنّ من الأسهل بالنسبة إليّ التحدث إلى مينا عبر الهاتف إذا كان لا بد من ذلك بدلاً من أن ألتقيها. وهذا ما جعل الخوف من الله يسكن في داخلي. أول مرة أراها فيها في الحقيقة بعد أن هجرتني كانت في نادي جيماخانا. كانت برفقة نيني. تسمرت وراء أحد الأعمدة حتى لا تريانني وهما خارجتان من البار الصغير. كانتا مستغرقتين في الحديث. بدأت أتساءل في ما إذا كانت كؤوس شراب البلودي ماري ووجبات الشيش كباب ما زالت تسجل على حسابي. شعرت بضرورة أن أقوم بتفحص الفواتير بشكل دقيق في نهاية الشهر. ولكن بعد أن أمعنت التفكير في الموضوع، قررت أن المسألة لا تستحق العناء. فأنا لن أثير الموضوع مع مينا في أي حال. دعهما تتناولان شرابهما المفضل، البلودي ماري مع طبقة كثيفة من الملح على حافة الكأس، واتركهما تتناقشان كيف أن راجيف هو عشيق أفضل وأكثر تفهماً وأكثر نجاحاً مني، وكيف يكون في انتظار مينا دوماً وكيف يتفهم مزاجها المتقلب واتجاهات رغباتها، وكيف يعرف متى يبدأ بالملامسة ومتى يعانق ومتى يعضّ.

كانت دائماً تقضي كثيراً من الوقت مع نيني. كان لديهما الكثير من

Twitter: @alqareah

الأمور المشتركة: الاثنتان كانتا متوسطتي الطول، ولكلتيهما عينان سوداوان؛ كما كانت تربط بينهما ثلاث سنوات من المرح في الجامعة وذكريات عن الحبيب الأول. كما أنهما هجرتا زوجيهما. دائماً ما كنا، أنا ومينا وراجيف نتساءل في ما إذا كان لنيني عشيق أيضاً. فهي ربما لم تكن من النساء اللواتي يستطعن البقاء من دون عشيق لمدة طويلة. أحياناً كنت أرى تلك النار في عينيها؛ ذلك الوميض الذي كان يحثني على الرغبة في أن أدفعها إلى قرب الزاوية وراء الباب وأطرحها على السرير أو على الطاولة. كنت أشعر بهذه الرغبة في الوقت الذي لم أشعر يوماً بأي ميل نحوها. تحملتها كرمى لعيني مينا بالرغم من أن كلبها المدلل وهو من فصيلة التشيهواهوا والذي كانت تناديه باسم بوني كان يجعل القشعريرة تدب في أوصالي. ينتابني إحساس بأن هذا الكلب المخيف كان السبب الذي من أجله قرر زوجها براشانت حزم حقائبه وتوقيع أوراق الطلاق.

كان بوني يلازمها طيلة الوقت. كان يختبئ داخل كنزتها ويطل من بين ثنايا حقائب التنس ويجلس على كتفيها. كان لونه مزيجاً غريباً من السمرة والسواد. وكانت هناك زاوية في غرفة الاستقبال في منزلها مخصصة لكتب عن الكلاب من فصيلة التشيهواهوا تتناول طرائق إطعامها وحركات تدريبها وتاريخ هذه الفصيلة وأهميته الثقافية، وكيف تحول كلب من أصول مكسيكية إلى معبود أمريكي. ذهبت في أحد الأيام لأرافق مينا من منزلها. نظرت إلى رف الكتب ذاك. كان أكثر عنوان لفت

Twitter: @alqareah

نظري هو «الأم تعرف ما هو الأفضل: ما الذي يجب ألا تفعله لكلبك». كان هذا الكتاب موضوعاً هناك بعناية فائقة. ربما كانت تقرأه يومياً. فوق رف الكتب ذاك، كانت هناك ورقة مطبوعة على الكومبيوتر وكان مكتوباً عليها ما يلي: «في هذا البيت الكلب هو العائلة»شعرت بعد قراءتها بما يشبه لسعة السوط، فابتعدت عن الرف.

علمت أن الأمور ذهبت إلى أبعد ما يجوز أن تصل إليه عندما سمعتها تقول لمينا: «هل تعلمين أن خمسة وثمانين في المئة من الكلاب تعاني مشكلة في صحة أسنانها، والمهم أن يتخذ المرء الإجراءات الوقائية». حتى مينا وجدت في هذا الأمر الكثير من المبالغة. وعندما تجاوزت دهشة نينا مما فعلته صديقتها حدود ولائها لها، أخبرتني بأن نيني اشتركت في مجلة أمريكية متخصصة بالكلاب من فصيلة التشيهواهوا، واستفادت من تلك المجلة بأن اشترت كل مستلزمات العناية بأسنان بوني: لعب على شكل الديناصورات لتقوية أسنان بوني ومضادات نخر الأسنان وخيوط تنظيف الأسنان. كما أخبرتني بأن براشانت جن جنونه عندما اكتشف ذلك. والآن بما أن براشانت لم يعد موجوداً، فإنها تستطيع هي وبوني تنظيف أسنانهما بالخيط لمنع التسوّس.

ينتابني إحساس بأن نيني بطريقة أو بأخرى هي من ألهمت مينا لاتخاذ قرارها بحزم أمتعتها وهجري. فلولاها ما كانت مينا لتتركني

Twitter: @alqareah

حتى إن جثا راجيف على ركبتيه متوسلاً أن تذهب معه. لا أستطيع أن أشرح لماذا ينتابني هذا الإحساس. ولكن هذا ما أحس به فعلاً ولا يوجد أحد من حولي لأقنعه بذلك سوى نفسي.

عندما رأيتهما تتحدثان وهما تبتعدان عني في ذلك النادي شعرت بخطئي وعجزي وعدم وجود أي نفع يرجى مني. صعد الشعور الصفراوي المتشائم نفسه إلى حلقي عندما ذهبت مينا إلى منزل بريندا لحضور حفلة عشية عيد الميلاد، وهي الحفلة التي تنظمها بريندا سنوياً وتقدم فيها النبيذ الحار اللاذع كي تتفرغ هي وجامشيد عشية رأس السنة للاحتفال بادئين بنادي الغولف مروراً ببيت رحب في منطقة فاسانت فيهار، وأخيراً وصولاً إلى بيت ريفي محاط بالضباب وراء منطقة كتب مينار المحاط بالكلاب والحرّاس.

أصرّ جامشيد على حضوري. أظن أنه انزعج من الطريقة التي خرجت بها من قبو تريفيني بعد شرائي صورة صغيرة بالكاد تساوي شيئاً. ربما أحس بطريقته الخاصة المعقدة أن شيئاً ما كان يثير غضبي، وربما ظن أن مينا كانت السبب.

قال: «يجب أن تأتي. سوف يكون هذا مفيداً لك وسيسعد حضورك جميع المدعوين».

سألته وشكوكي في ازدياد: «جميعهم؟»

Twitter: @alqareah

أجاب: «أوه، لا أعرف. تعلم أن بريندا تنظم قوائم المدعوين. ومن ناحيتي، لا أعير الأمر اهتماماً. ما يمكنني فعله هو تلوين قوائم الدعوة أو رسمها، وأفضل تلوينها. في أي حال، ما عليك إلا الحضور. فعيد الميلاد يحل مرة واحدة في السنة».

أظن أن الوحدة أتعبتني. فالمنزل بدأ يضيق علي، والسقف من فوقي بدا أقل ارتفاعاً بكثير، والنوافذ أضحت أكثر تضيقاً والجدران من حولي في حركة دائمة. شعرت أن الخروج من المنزل يمكن أن يحل المشكلة. طبعاً لم أعدّ الذهاب إلى المكتب خروجاً من البيت بل أحسسته سجناً آخر مع جوي وباسو وبانديتجي والمواعيد والسمعة والراتب الشهري... وجميع الخفراء بعضلاتهم البرونزية المفتولة وهم يقومون بحراسة المبنى. وهكذا، ولدهشة جامشيد، ذهبت إلى الحفلة.

كان المنزل مضاءً. كان الخدم غير المتجانسين في مظهرهم يلبسون معاطف سوداء مقفلة بأزرار إلى الأعلى، ومنتعلين أحذية خفيفة مطاطية. كانوا يدخلون إلى الرواق ويأخذون السيارات ليركنوها بعيداً، ويتركوا علبة السرعة في وضع المحايد كي لا تسد أي سيارة الطريق في حال رغب أحد في المغادرة. كان حشد المدعوين قد بدأ بالوصول والتجمع في صالون الاستقبال وبعدها بدؤوا بالتدفق باتجاه غرفة التلفاز حيث كان شخص كبير الحجم يلبس جاكيت بيضاء وربطة عنق كبيرة سوداء مقوسة. كان هذا الشخص يصب الشراب للمدعووين من وراء منصف رخامي. كانت أطباق الدجاج المشوي

Twitter: @alqareah

والكباب وصلصة النعناع والتوابل وعيدان الأسنان الصغيرة الحجم الملفوفة من طرفها العلوي بأوراق السلوفان الخضراء والحمراء والزرقاء، وهي من النوع الذي كنت أستخدمه عندما كنت في الصف الرابع في المرحلة الابتدائية لتغليف كتاب الحياة البرية، تصل تباعاً، وتحضر بواسطة طهاة يقومون بعملهم ربما في المرآب أو الشرفة أو في خيمة نصبت في الحديقة الخلفية لهذه الغاية.

كنت قد وصلت إلى البار من دون أن يبادرني أحد ممن أعرفهم بالحديث. كانت واحدة من تلك الحفلات البليدة. رفع الرجل خلف البار حاجب عينه بطريقة استفهامية، ونجح في أن يبدو مهذباً من خلال انحناءة خفيفة باتجاهي:

«كأس ويسكي مع الثلج من فضلك».

لم يشعر بحاجة إلى الانحناء أكثر من ذلك. رفع بصره باتجاهي قائلاً: «ليس لديّ ما أقدمه هنا سوى الكوكتيل يا سيدي».

«فهمت. أي نوع من الكوكتيل تقدم؟»

فجأة، شعرت برغبة في افتعال معركة.

«كوكتيل البطة الرجراجة، والضفدعة الوثابة، والسعدان البني بلون الشوكولاته، والعيون الخضر».

Twitter: @alqareah

«كوكتيل العيون الخضر، هذا نوع جديد. والسعدان البني، هل هذا الكوكتيل من اختراعك؟»

حملق الرجل فيّ غاضباً؛ ولكن في هذه اللحظة رآني جامشيد.

«تعال يا أفتاب، تعال، دعك من أنواع الكوكتيل المخملية هذه. دعني آخذك إلى البار الحقيقي».

قادني باتجاه غرفة المكتب وفتح خزانة صغيرة. كنت أعرف أنه يحتفظ بأنواع خاصة من الويسكي هنا. كل أنواع الويسكي المصنوع من الملت الصرف.

«هذا اليوم مميز، ولهذا سأقدم لك مشروباً مميزاً».

أمسك بشغف بواحدة من هذه الزجاجات.

«هذه يا صديقي زجاجة ويسكي مقطرة من الملت الصرف من نوع رولز رويس، ماكالان ١٩٤٦».

صب ما مقداره نصف إنش في كل من الكأسين وناولني واحدة.

«تحسس رائحته. تحسس رائحة نبات الخلنج الشمالي».

«من أين حصلت عليه؟»

«حصلت عليه مقابل لوحة يا صديقي. لوحة واحدة مقابل زجاجة واحدة. علمت أن ثلاثة آلاف زجاجة فقط من هذا النوع وصلت إلى الهند وتباع الواحدة منها بألفي دولار».

Twitter: @alqareah

انتابني شعور عارم بالذنب. فقد تعودت شرب الرم القوي المستحضر من التلال ممزوجاً بالكولا مع جامشيد عندما كنا شباباً. وبدأت أحسب كلفة نصف الإنش من هذا الشراب.

أغلق جامشيد عينيه بتلذذ. رفعت كأسي وتساءلت في سري عن سبب احتفالي بفشلي الكامل وبخساراتي الفادحة بهذه الطريقة المكلفة جداً.

تحدثت إلى كثير من المدعوين تلك الأمسية؛ ولا بد أنني كنت مسلّياً وجذاباً. خمنت ذلك بسبب كثرة البطاقات الشخصية التي وجدتها فيما بعد في جيبي. أمضيت وقتاً لابأس به مع إحدى مذيعات النشرة الإخبارية في التلفزيون، التي كانت تلبس ثياباً من ذلك النوع الذي يشعرك أنها ستتزوج خلال دقائق، فقد كان فستانها من مخمل اللينغا، وفي جيدها عقد ضيق من قطع معدنية مذهبة براقة، وقرطان مدوّران كبيران من الذهب في أذنيها. كانت تقف هناك في الزاوية وتحمل بيدها كأس كوكتيل من مشروب العيون الخضر، تنتظر أن يمر الناس بها زرافات ووحداناً لإلقاء التحية. تركتها حالما لاحظت وجود الخطوط الحزينة المتشكلة حول زوايا عينيها والتي كانت تخرب تبرجها.

كانت هذه حفلة أكبر مما تعودت بريندا أن تقيم عادة. لم يكن المدعوون فقط من الفنانين، ولكن كان من بينهم مصممو الأزياء

Twitter: @alqareah

والمحامون والأطباء. أكثر ما أثار فضولي هو وجود الأطباء. فعادة لم يكن لهم مكان في مثل هذه الحفلات. لكن الأطباء الموجودين في تلك الحفلة لم يكونوا من أطباء الخدمات الصحية التابعة للحكومة، كما أنهم ليسوا على شاكلة تلامذة الدكتور راو العجوز الذي كان لينفث دخان سيجارته الحمراء والبيضاء بازدراء عندما يتم ذكر حفلات كهذه أمامه. ينتمي هؤلاء إلى نوع جديد من الأطباء الذين يعدّون أنهم الممثلون الحقيقيون للطب التعاوني، ودعاة النظرية التي تقول ببيع قلوب جديدة، وشرايين جديدة، وكلى جديدة، لمن يستطيع شراءها تماماً كما يتم شراء سيارات جديدة أو برادات أو مكيفات هواء. أتوا إلى هذه الحفلة مثلما كانوا يفعلون كل ليلة تقريباً بسيارات جديدة قدمت لهم على سبيل الهدية وكدفعة أولى على حساب قيامهم بترتيب الكثير من عمليات جراحة القلب المفتوح، وتخطيط القلب والتصوير الشعاعي لأوعية القلب الدموية أو ما شابه ذلك. كان هؤلاء من فصيلة الرجال القساة الغلاظ الذين يثملون حتى وقت متأخر من الليل، وفي الصباح يقومون بعلاج مرضى القلب؛ كانوا رجالاً من الصنف الذكي المسلح بمهارة عظيمة لا تفيد شيئاً؛ وكانت البلاد قد علقت آمالاً كبيرة على هؤلاء لتقديم العون لها في حل مشاكلها. كان من بين هؤلاء طبيب اعتقد الجميع أنه يعمل في حقيقة الأمر جاسوساً لصالح دولة أجنبية. لم يكن أحد يعرف أين يعمل هذا الطبيب ومع ذلك فقد ظهر فجأة وهو يملك سيارة جديدة ومنزلاً ريفياً، وكان يقضي إجازاته السنوية في منتجعات فخمة في أوروبا.

Twitter: @alqareah

كانت توجد في الحفلة نسوة يلبسن دثارات كبيرة، وقمصاناً عارية الظهر ولباساً من نوع الساري المصنوع من القطن الناعم؛ كما كنّ يضعن فوق رؤوسهن كعكة شعر رمادية مثبتة بأمشاط كبيرة ومسلات. وكانت هناك أيضاً نساء أخريات بلباس من الحرير المتموج وقمصان تقليدية فضفاضة منسوجة يدوياً، وكانت تزين أعينهن خطوط تبرج سوداء سميكة. كن يحملن حقائب من الجلد الطبيعي وينتعلن خفوفاً من الجلد ويضعن الحنّة على شعورهنّ... كلّ هؤلاء النسوة كنّ ينتمين إلى القبيلة التي انضمت مينا إليها. استطعت التعرف إلى البعض منهنّ، واللواتي التقيتهن بمحض المصادفة في مركز الهند العالمي أو في قبو تريفيني. كما تعرفت فوراً إلى كاتب جوي المفضل ذي المقال المتعلق بأفضل خمسة أشياء لأي شيء.

رأيت مينا وراجيف يدخلان الغرفة قبل أن تقع عيناهما عليّ. رأيتها وهي تخلع دثارها الكريمي اللون الغالي الثمن، وتطويه بطريقتها المعتادة المتمثلة في التفكير في شيء آخر في الوقت الذي تقوم بوضعه على ذراعها. كانت تبدو في حال جيدة وكانت جميلة وسعيدة. هذا أكثر شيء شعرت بالانزعاج حياله: سعيدة. كان لها المظهر نفسه الذي كانت تتحلى به أيام زمان بعد أن نكون قد انتهينا من المعاشرة الزوجية، وبعد أن تكون قد استفاقت من إغفاءتها القصيرة وأخذت حمّاماً ساخناً. أتساءل فيما لو كانت هي وراجيف قد قاما بالشيء نفسه عصر هذا اليوم، يستمتع الواحد منهما بجسد الآخر وهما

Twitter: @alqareah

يتباهيان من دون أدنى إحساس بالخجل بتوحدهما الذي اكتشفاه حديثاً.

ظهرت بتسريحة شعر جديدة، أصبح شعرها قصيراً وأنيقاً، كما لاحظت تعديلاً جديداً أجرته لعينيها، وهو تعديل جعل عينيها تبدوان أكثر سواداً، ما أبرز تنافراً بارزاً بين لونهما الجديد ولون بشرتها الفاتح، كما كانت تلبس ثوباً من الأثواب التي اعتادت أن تلبسه في الأشهر الأخيرة التي سبقت انفصالنا، وكان مكوناً من الحرير الطبيعي والقطن المصنع يدوياً بألوان بنية وخضراء داكنة وقريبة من لون الصدأ. أصبحت الآن امرأة لها عالمها المخملي، إذ لا يتوقع أحد الآن أن يراها لابسة الجينز أو البنطال أو اللباس الحريري ذا الألوان الزاهية التقليدية. أعتقد أن لباسها الجديد هو الزي الرسمي لقبيلتها من النساء اللواتي يعملن في وكالات غوث الأطفال أو مجلات جادة أو منظمات غير حكومية. هذه الملابس هي المرادف النسائي للّباس الحريري التقليدي الفضفاض وغطاء الرأس الصوفي، والخفوف التي ينتعلها جامشيد والرجال الآخرون في تلك الأمسية. كان راجيف يلبس زياً مماثلاً أيضاً. كان يلبس اللباس التقليدي الفضفاض بلون البيج تحت غطاء الرأس ذي اللون البني الداكن. كما كان يلمع في جيب صدره قلم من ماركة مون بلان.

ما يجعلك تشعر بالانتماء إلى هذه المجموعة هو القلم من ماركة

Twitter: @alqareah

مون بلان، واللباس التقليدي المنسوج يدوياً؛ هذا ما يجعلك تظهر بمظهر المثقف الملتزم والغني في بالوقت نفسه. لا بد أنني كنت الوحيد في تلك الحفلة ممن لم يكن يمتلك قلم مون بلان. كنت ممن ما يزالون يؤمنون بالجودة التقليدية لقلم باركر ٥١. أظن أن الناس يعتقدون أن هذا شيء غريب وطريف وغير مألوف، يمكنك أن تسميه ما تشاء إلا أن تقول إن له علاقة بالزمن الذي نعيش فيه الآن.

في اللحظة التي دخلا فيها، خرجت حاملاً كأسي إلى الشرفة. كانت هناك في الخارج نار تُضرم وكانت هناك أيضاً مجموعة أخرى من الأشخاص. لم أكن بحاجة إلى مواجهة راجيف ومينا، كما لم أكن في حاجة إلى لفت نظر الآخرين إلينا ومنعهم متعة استراق النظر إليّ وأنا أجري معها ومع عشيقها حديثاً سخيفاً من ذلك النوع من الأحاديث التي تجري في الصالونات. ولذا اخترت البقاء خارجاً أراقب الطائرات وهي تهبط، وأتحدث إلى أي شخص جاء وجلس بجانبي في تلك الكراسي الدائرية المصنوعة من الخيزران والموضوعة حول النار. جلست أصغي إلى شخص ظننت أنه أكثر الرجال أهمية في تلك الأمسية. كان موظفاً دبلوماسياً من جمهورية بيلاروسيا. كانت الطريقة التي قدم نفسه فيها مفاجئة وغريبة في الوقت نفسه، قال: «أنا من روسيا البيضاء». وبعد ذلك مباشرة شرع في الحديث عن الحرب الأهلية الروسية، وأزمنة الثورة والدم المراق على الثلج النقي الأبدي، وكانت هذه الصور نفسها التي طاردتني عندما كنت طفلاً منذ أن

Twitter: @alqareah

قرأت خلسة وبقلب وجل بضع صفحات من كتاب مكسيم غوركي المغلف تغليفاً جلدياً بلون الدم.

كان يعزف على الغيتار بعذوبة طيلة تلك الأمسية للمجموعة الصغيرة المتحلقة حول النار، وغنّى أغنيات روسية قديمة ذكّرتني بأشياء غريبة كثيرة، ذكرتني بالذرة ذات اللون الأصفر الذهبي وبالقطارات الطويلة وبالرقص حول النار في الثلج، وبالفتيات، بوجوههن الباسمة المتألقة، وبالزهور الحمراء الندية على دثارهن الأسود الملفوف حول رؤوسهن. غنى كما لو كان يغني لنفسه غير آبهٍ للجموع التي بدأت تكبر ببطء من حوله، وبدأ الناس يتحلقون حوله إلى درجة أنه لم تعد هناك كراسي خيزران كافية للجميع.

جعلني غناؤه أشعر بالرغبة في الانخراط بالبكاء.

تدهشني الأشياء التي تشعرني بالرغبة في البكاء في هذه الأيام: ومضة ابتسامة، شبابٌ نَضِرٌ يتألق في وجه، عاشقان أحمقان شابان يتبادلان النظرات في حافلة للركاب، رجل يأتي إلى منزله حاملاً حقيبة وكيساً من المشتريات وعلى وجهه تلك النظرة التي توحي بأنه سيكون مع عائلته بعد لحظة؛ وبعدها سيتناول الشاي المسائي، طريقة جوي في تنظيف طاولتها مساء كما لو أنها لن تعود إليها ثانية أبداً، ذكرى أمي وأنا أسير بجانبها على أرض رقعة الداما الرخامية في نهار مشمس، في الوقت الذي كان الناس يحتفلون فيه بعيد باسانت

Twitter: @alqareah

بعماماتهم وبألبستهم الفضفاضة التقليدية بلون الزعفران ويأكلون الأرز المطبوخ بطعم الزعفران... أشياء صغيرة وغريبة تثير فيّ الرغبة في أن أجلس وأمسك رأسي بيدي وأجهش بالبكاء. أظن أن مبعث هذا هو شيء في داخلي يحرضني على القيام بذلك. يبدو وبشكل واضح أن الديبلوماسي البيلاروسي قد نسي تماماً الجمال الأخاذ الذي أثارته أغنيته. لكنني سوف أذكرها لوقت طويل مثلها مثل كل اللحظات التي غاضت بعيداً، ولكنها تومض في عقلي في فترة إحساسي الكئيب بالوحدة. لا أجرؤ على وصفها بالعزلة. فالعزلة بهذه الدرجة ستعني الموت.

تناولت كأساً أخرى، وتابعت تلك الألحان والكلمات وهي تطفو وتلتف وترقص وتدور من حولي وتشفط كل السمّ والحزن، وكل تلك النتف من التعاسة التي استوطنت في مكان ما، داخل أعماقي. لو تم لي ذلك، لو تم ذلك حتى لليلة واحدة فقط، لكنت جثوت على ركبتي وقبلت يدي المغني، ولكنت صليت من أجل أن تتجمد ألحانه وتتحول إلى ذهب وأن تصبح كلماته السحر عينه.

حدقت مرة أو اثنتين من خلال الستائر المربوطة من أطرافها في داخل الغرفة الكبيرة فرأيت مينا تراقص راجيف. كانت دائماً تراقص راجيف، حتى في تلك الأيام الخوالي، وكنت دائماً أعرف أن ثمة انجذاباً جسدياً يشدّ أحدهما إلى الآخر، وكانا يعبران عن هذا

Twitter: @alqareah

الانجذاب بواسطة الرقص معاً كلما وجدا إلى ذلك سبيلاً. كان جسدها يضج بالحيوية. وكان خدها الذي تزينه تلك الغمازة الناعمة التي أعرفها جيداً ينجرف نحوه مترافقاً مع ضحكة حقيقية تلمع في عينيها السوداوين. لم أكن أجيد الرقص بتاتاً. كنت أدوس على أصابع قدمها في كل مرة حاولت أن أرقص معها رقصة بطيئة من النوع الحميم، أو كنت أتحرك بسرعة كبيرة، كما أنني لم أحاول أن أتدرب على الرقص عندما كنا وحدنا. أظن أنها سعيدة بذلك الآن، فهي ليست بحاجة إلى التدريب الخاص مع راجيف.

خرج راجيف لاحقاً إلى الشرفة وبطريقة تنم عن ذوق رفيع، سحب سيجارة من علبة فضية. أمضى قليلاً من الوقت معي كما لو أنه كان يمسك بيدي معبراً عن أسفه لكل ما حدث. تلك كانت برودته الوقحة التي طالما جرفته بعيداً عني، والمتمثلة بقدرته البذيئة على القيام بأي شيء يريده وإن ذهب العالم بعد ذلك إلى الجحيم. وبلغت اللامبالاة عنده درجة التعبير عن الأسف ليس بسبب أنه أخذ مني زوجتي بل بسبب أنه أخذ صحيفة من غرفتي دون أن يأخذ مني إذناً. كان غريباً أنني لم أقف على قدمي وأتركه وأمشي، أو أنني لم ألكمه بقبضة يدي على وجهه البنّي الغامق الوسيم. عرفته منذ سنوات، حتى قبل أن أتزوج مينا. كان راجيف واحداً من أوائل الناس الذين دونت أسماءهم في مفكرتي.

Twitter: @alqareah

- ٩ -

دخل اسمه إلى تلك المفكرة بعد أن عدت من بومباي هارباً من سهرات شرب الرم في سنشاين تيرس. أفقت على الحزن الذي أجج ضحكة روحيني اليائسة تلك؛ أضف إلى ذلك، الإحساس بالذنب لأنني كنت أنا من زاد هذا الشعور باليأس لديها. كما أيقظتني خسارتي لمعركتي الأولى في عالم الأعمال الذي لا يرحم.

أمضيت الكثير من الوقت وأنا أتجول في منطقة كونوت أيامها باحثاً عن وظيفة، بالطبع عن وظيفة مناسبة. زرت الأماكن المعتادة التي كانت تعدُّ في تلك الأيام «راقية» مثل الفولغا والوينغرز والستاندرد والبانكورا لتناول الغداء أو شرب القهوة أو لمجرد الثرثرة. التقيت راجيف للمرة الأولى عندما كنت أتناول وجبة كباب مع صلصة التوابل والنعناع في مطعم بانكورا. كان راجيف برفقة الشخص الذي أبحث عنه عندما داعبت مخيلتي فكرة رومنسية عن الانضمام إلى مجموعة تجار الشاي، التي تتخللها صور من الألبسة الكتانية البيضاء ومباريات التنس في الصباح الباكر ورحلات على الدراجات النارية حول التلال الخضراء الندية. كان الرجل نفسه مديراً تنفيذياً لشركة للشاي، وذا خلفية أميرية من نوع ما. كان هادئاً ومتميزاً وحسن التربية؛ وكان يضع حول عنقه دثاراً حريرياً أنيقاً، وكان بلباس لاعبي التنس الأنيقين، ويتصرف بمنتهى التهذيب. أخبرني عن أشياء حول صناعة الشاي

Twitter: @alqareah

جعلتني أطرد هذه الفكرة من رأسي للأبد. حدثني عن أجيال من العبيد الذين عملوا في مزارع الشاي، وكيف كانوا يُرغمون على اقتلاع أوراق الشاي وفرطها من قبل المشرفين البريطانيين على ظهور خيولهم، كما أخبرني عن أوضاع العاملين في هذه المزارع في الوقت الحاضر وكيف أنهم يكدون ويعرقون مقابل أجور زهيدة. لم يكن يحاول أن يقنعني بهذا النوع من الأعمال. في الواقع كان هو نفسه مصاباً بالملل من هذا الوضع. أراد أن يمتهن الصحافة، ولهذا السبب كان بدوره يلتقي راجيف، وهو صديق قديم له منذ أيام الدراسة. تبين لنا ذلك ونحن نتناول الغداء. ضحكنا كثيراً. أحببت راجيف في تلك اللحظة. كان يضحك بصوت عال ومن أعماقه مثل رجل ذي قلب كبير وضمير حي. كان قلبه من الكبر بحيث أنه اتسع لزوجتي كما اكتشفت لاحقاً، وأن ضميره كان من النظافة بمكان إلى درجة أنه ما زال يتحدث إلي.

كان حينها مراسلاً مبتدئاً لصحيفة مسائية براتب مائة روبية في الشهر، كونه يحمل شهادة دبلوم من كلية ديتلاين للصحافة التي تقع في نهاية شارع بنشكيوان. كنت عاطلاً عن العمل. أظن أن حال الفقر المدقع الذي كنا نعانيه هي ما وطد أواصر الصداقة بيننا. تحدث إليّ مراراً عن أكثر المهام التي كُلّف بها إثارة. فقد اختار ست شخصيات مشهورة: راقصة ومعلقاً إذاعياً وقائد فريق الهوكي الوطني وشاعراً وسياسياً معارضاً ورساماً محترفاً للكاريكاتور. وكان قد سألهم

Twitter: @alqareah

جميعهم السؤال التالي: «ماذا كنت ستفعل إذا علمت أنك لن تعيش أكثر من أربع وعشرين ساعة؟» ولكن عندما عاد في اليوم التالي اختلطت الأجوبة في حقيبته. نسيت كل الإجابات التي حصل عليها باستثناء الجواب الذي أعطته إياه الراقصة المشهورة. أجابت بأنها كانت ستأخذ مسّاجاً جيداً، وتشرب كأساً من النبيذ الأبيض المثلج وتمارس الجنس لمدة أربع وعشرين ساعة. أتذكر هذا الجواب جيداً لأنه أثارني كما أثار راجيف. عنوَن قصته بهذا الاقتباس من جوابها واستلم نتيجة لذلك رسالة شكر رسمية من رئيس التحرير. اتصل بي وكانت برفقته اثنتان من الصحفيات المبتدئات، واحتفلنا بهذه المناسبة بأطباق من الجامون الحار المغطّس بالعصير.

بين الحين والآخر ومن أجل الحصول على نقود أكثر، كان يجري لقاءات أطول لصالح مجلات أخرى. ذهبت معه ذات يوم أحد بعد أن أحسست بكثير من الملل من البقاء في المنزل لإجراء مقابلة مع بروفسور متقاعد كان يعد بتأمين زوجات مثاليات للجميع من دون استثناء. كانت إعلاناته في كل مكان: على جدران المدارس ومواقف الحافلات وعلى جذوع الأشجار والمحلات التجارية التي تباع فيها أوراق البيتل المحشوة باليانسون، وعلى خطوط القطار الممتدة على مسافة ألف ميل بين دلهي وأسّام. كانت هذه الإعلانات تصرخ: «بناء رقم ٢٧، شارع ريغرابورا. قم بزيارتنا على الأقل».

كان البروفسور يعيش في منزل كبير منعزل، وكان شبه مختفٍ وراء

Twitter: @alqareah

أكوام من البطاقات التي انهالت عليه من كل حدب وصوب. وبعد أن يتفحصها جميعها بدقة من خلال نظّارته المربّعة المتموضعة بشكل متناسق على أرنبة أنفه، كان يقوم بتصنيف هذه البطاقات في مجموعات على طاولة مكتبه. كان يفصل البطاقات المرسلة من أشخاص ينتمون إلى طائفة البراهاميين عن بطاقات الأشخاص من طائفة الفيشياس، كما كان يفصل بطاقات أبناء طائفة الكارتريس عن بطاقات أتباع طائفة الأروراس. أما بطاقات أبناء طائفة المانغليكس فقد كان يفصلها عن جميع البطاقات الأخرى. بعد ذلك كان يقوم بتدوين ملاحظات على كل واحدة من تلك البطاقات بخط يده الصغير والأنيق، الذي كان يجب أن يكون صاحبه موظفاً في المحاسبة. كانت تلك الملاحظات تتعلق بالدخل واللون والشروط المطلوبة من مثل الدراجات الهوائية أو السكوترات أو السيارات، كما كانت تتضمن معلومات عن الخلفية التعليمية، وهل هي مثلاً في مجال العلوم أو الفنون، وعدد الإخوة والأخوات وهل هم متزوجون أم غير متزوجين... أعطانا موعداً لمقابلته في الليلة المخصصة لأبناء طائفة البراهاميين. راقبناه وهو ينتقل من عائلة إلى أخرى وكان أثناء ذلك يهمس بوعود كاذبة، وفيها الكثير من المبالغة عن السعادة الأبدية التي سيحققها للعشرات المجتمعين هناك بين المقاعد الخشبية وفي الشارع وتحت أضواء أعمدة الشارع وحتى بجانب زرائب الخنازير. تساءلت في سري عن عدد الزيجات التي تتم بنجاح بواسطة هذه الطريقة، وكم من هذه الزيجات التي تمت قد استمرت. فكرت في أنه

Twitter: @alqareah

لو كان زواجنا، أنا ومينا قد تم ترتيبه بواسطته، لكان تبين للبروفسور عقم فكرة زواجنا مباشرة. ربما كان قد سلمها بدلاً من ذلك إلى راجيف في اللحظة نفسها ووفر على الجميع كل هذه المشاكل. كان البروفسور سيقول لمينا: اسمعي ها هو الرجل الأفضل لك، مشيراً إلى راجيف، بينما يقف هذا الأخير بهدوء. هذا هو الرجل الذي سيهتم بك وهو من يحضر إلى المنزل الكثير من النقود، ولن يكون عليه أن يتمزق بين الشكوك والمخاوف، وهو أيضاً سيوفر لك المتعة التي تنشدينها في الفراش. لا تذهبي في الاتجاه الآخر، كان ليتابع، مشيراً إليّ بمكر وخبث وبنظرة فاحصة. ففي هذا الاتجاه تكمن المرارة ويكمن التردد والضعف والطلاق...

المهم، كان هذا التحقيق الذي أجراه راجيف حدثاً كبيراً وضع على غلاف مجلة شبابية تديرها امرأة نكدية تصبغ شعرها بطريقة فاقعة وتضع على عينيها كحلاً ضبابي المظهر وبطريقة رديئة. لقد قادته إلى عالم فُتِح له على مصراعيه، ثم شق طريقه بنفسه فيما بعد.

نعم لقد عرفت راجيف منذ تلك الأيام، وهكذا عندما خرج إلى الشرفة بعد أن راقص مينا، لم يكن هناك داعٍ لنستغرق في الحديث. كان من الصعب عليّ أن أغضب منه بالرغم من أنه يعيش الآن مع من كانت زوجتي لمدة أربع عشرة سنة. أظن أنه كان يفهم ذلك، وأظن أيضاً أن هذا الشعور كان يؤرقه ويجعله مستاءً مما جرى. وطبعاً جعلني هذا الإحساس أشعر بالارتياح.

Twitter: @alqareah

-١٠-

لم أنس قط تلك الليلة في البناء رقم ٢٧، في شارع ريغاربورا لأنها كانت تخطر في بالي كلما نظرت من نافذة مكتبي إلى الفناء الخلفي لمنطقة كونوت - إلى ذلك العالم القبيح الملطخ بأوراق البيتل، والمتداعي من مخازن ومرآبات ومراحيض عامة ووِرش. في آخر المنطقة وبعد سنوات عدة على زيارتنا تلك كنت أقرأ الإعلانات التي تحث على زيارة البناء رقم ٢٧ في شارع ريغابورا مكتوبة بخط أسود سميك على الجدران الصفراء المتداعية، وتبين لي وقتها أن البروفسور العجوز ما زال يتابع مهنته بعزم. ولكن فجأة، وفي إحدى الليالي تم طلاء هذه الإعلانات وحلت مكانها إعلانات انتخابية.

كنت أرى من خلال تلك النافذة أيضاً شاحنات عدة تابعة لمصنع الكولا مع فارق أنها لم تكن تابعة لشركة الكولا، بل لشركة شبيهة بها، شبيهة بها إلى حد بعيد. كنت أستطيع رؤية سوق شانكار وهي مجموعة من المحلات الحقيرة تحت الأرض، ذات الشرفات الإسمنتية والأعمدة التي لا حصر لها. كانت كل بوصة من تلك الشرفات مستغلة بالمعروضات، فناجين بلاستيكية، ودبابيس للشعر، وسوارات جلدية للساعات، وألبسة داخلية، وكعكات شعر اصطناعية، وأقفال ومفاتيح وأقلام حبر ناشف. عالم من الرخص، والأشياء المستعملة والإجرام. نادراً ما ساقتني قدماي إلى هناك. كان كافياً بالنسبة إليّ أن أنظر في

Twitter: @alqareah

اتجاه تلك السوق بين الحين والآخر من نافذة غرفتي على ارتفاع ثمانية طوابق.

كنت أنظر من خلال تلك النافذة أكثر من النوافذ الأخرى. وفي بعض الأيام لم أكن أنظر إلى الداخل، أي إلى المكتب. بعض تلك الأيام كان مريعاً. كنت بالكاد أستطيع تحمل باسو.

لم أحب باسو قط. لم أستطع أن أحبه يوماً واحداً طيلة السنوات الخمس التي عملنا فيها معاً. كنت أكره حقيقة أنه رئيسي في العمل وأنه في نهاية كل ثلاثة أشهر كان يكتب تقريراً عني: عن حس المبادرة لديّ وقدرتي على اتخاذ القرارات وإدارتي للفريق ومقدرتي على الإمتاع وموهبتي الاجتماعية وحتى مقدرتي اللغوية اللعينة. كان في الفقرة الأخيرة من التقرير ذي الصفحتين يوصي بقيامي بأفضل الطرق التي يمكنني بواسطتها أن أصبح مديراً أفضل للعلاقات العامة وأن أكون مكسباً أعظم للمنظمة ومُسَنّناً أكثر فائدة في دولابه الكبير. كنت دائماً أشعر في أعمق أعماقي، وبغض النظر عما يقرره المجلس أنني كنت أنا رئيسه وليس العكس، وأنه إذا كان لا بد من أن يقوم أحد بمنح الآخر شهادة وتوجيهات لتحسين الأداء وتطويره، فإنه أنا من له الحق في إعطائها للسيد شانتانو باسو: السيد باسو الذي رَكَنَ زوجته لعشرين سنة خلت، بصمت في شقة على الجانب الآخر من منطقة يامونا وانتقل للعيش مع نيتا (اسم عائلتها غير معروف) التي تبلغ الثانية والثلاثين من العمر، السيد باسو الذي كتب تقارير استخباراتية

Twitter: @alqareah

عن زملائه في الجامعة خلال فترة الطوارئ سنة ١٩٧٥، السيد باسو الذي قام بتزوير عدد الساعات التي قضاها في إحدى الرحلات ليحصل على نصف يوم عمل إضافي يزيد ريعه إلى راتبه. لم أكن في حاجة إلى الفقرة الأخيرة الطويلة في نهاية التقرير. كنت لأوصي بطرده من العمل بكلمة تناسب الوصف:

الاتجاه: إلى الأسفل.

الفائدة: معدومة.

الفائدة الاجتماعية: تكاد لا تذكر.

وهكذا.

كان باسو في حاجة ماسة ليكون له اسم في عالم القطاع الخاص أو ما كان يتصور أنه عالم القطاع الخاص. وكان مبعث هذه الحاجة قضاءه اثنتين وعشرين سنة في القطاع الحكومي قبل أن يأخذ تقاعداً مبكراً وينضم إلى شركتنا. أراد كما قال، أن يصبح جزءاً من مد التغيير التاريخي العظيم للّيبرالية الاقتصادية. لكننا كنا جميعاً نعرف أنه فعل ذلك ببساطة لأنه أراد مرتباً أفضل. كان يدعي دائماً أنه ليس من النمط الحكومي، أو من نمط السيد الهندوسي، وأنه لا يمثل الروتين الحكومي، أي إنه لا يؤخر الأعمال وأنه سيحقق كل الأهداف بلمح البصر: دعونا نمارس العصف الذهني، دعونا ننادي بعضنا بعضاً

Twitter: @alqareah

بأسمائنا الأولى. هذه الأخيرة هي ما أثار أعصابي وهي أنه علي أن أناديه باسمه الأول: شانتانو. حتى إنه قال لي ذات مرة: ناديني باسم شانتي.

شانتي! صديقي!

لتذهب إلى الجحيم!

حاول جاهداً إقناعي أنه في اليوم الذي حصل فيه على تقاعده المبكر، قام بحزم كل فرصه الحكومية ومهاراته من أجل البقاء وعقلية اللف والدوران والفساد التي اكتسبها في سبيل تعيينه مديراً إضافياً عاماً في مديرية الإعلان والدعاية المرئية، ورميها من الطابق الثالث المكيف والمزدحم من مبنى ال (بي تي آي). لكن من الواضح أنه أبقى على كل سترات السفاري الرمادية والبنية والبيضاء التي لديه، وثيابه الشتوية المنسوجة من الصوف، وثيابه الصيفية المنسوجة من القطن التي كانت تخاط خصيصاً له في محل صغير في وسط منطقة كونوت، والذي كان دائماً ما يتحدث عنه، لكنه لم يشأ أن يفصح عن عنوانه: خياطون ممتازون من الجيل الثالث؛ كان هذا أكثر ما يوضحه حول الموضوع تاركاً الأمر عند هذا الحد.

قرأ على عجل الكثير من المجلات المتخصصة بالإدارة التعاونية كي يعوض عما ضاع منه خلال السنوات الاثنتين والعشرين التي لم يقرأ فيها سوى الملفات الحكومية بأوراقها الخضراء، وأطرافها

Twitter: @alqareah

المعدنية وصفائحها. ثمة أشخاص يصدقون كل ما يقرؤونه في المجلات. كان يقرأ عن كيفية معالجة الضغوط الناجمة عن العمل في الأسابيع الأخيرة. قام في أحد الأيام بصرف كمية من حبات الفاصوليا لكل عامل في الإدارة، حبات من كل الألوان: القرمزي والأحمر والأصفر والأخضر الفاتح في مغلفات متصلة بعضها ببعض كي نقوم بالضغط الشديد عليها إذا ما أحسسنا بضغط العمل. كنت أتساءل عن ماهية خطوته التالية. كنت أستطيع تخمين ذلك.

دخل إلى المكتب ذات مرة حالما انتهت التدريبات الصباحية للضغط على الكرات، وأعلن وهو على باب المكتب عن اكتشافه أفضل طريقة للسيطرة على الضغط في العمل؛ وهذا الاكتشاف سيجعل عالمنا يعج بالأشخاص المبتسمين الضاحكين السعداء المتحررين من أي ضغط يسببه الإرهاق في العمل. هذا الاكتشاف الذي أعدّه بمثابة الدواء هو ممارسة الضحك. كل ما عليك فعله هو الوقوف والبدء بالضحك إذا انتابتك نوبة من ضغط العمل. أو: قم بالضحك ست عشرة مرة في اليوم بمناسبة أو من دون مناسبة. انظر إلى أقرب نبتة في أصيص وأبدأ بالضحك، انظر خارج النافذة إلى صفوف المباول التي تظهر في نهاية الشارع وأبدأ بالضحك. لا تكتفِ فقط بالابتسام وحدك، بل اضحك بصوت مرتفع، وأكثر من ذلك: قهقه. وبينما كان يقف هناك بسترته السفاري الرمادية الداكنة وشعره الدهني الكثيف المضمخ بالملح والتوابل، أطلق ضحكة عالية من دون أي سبب موجب لذلك.

Twitter: @alqareah

«لا شيء يريح الأعصاب مثل الضحك».، وتابع قائلاً: «كان الله في عون الشخص الذي لا يضحك الآن. أريد أن أسمع الضحك يجلجل مرة كل نصف ساعة على الأقل في هذا المكتب. أريد منكم أن تضعوا أعصابكم في ثلاجة وتتصرفوا باسترخاء».

أجل! يمكنه أن يذهب مباشرة إلى الجحيم. قلت في سري: يا شانتي، أيها العجوز، سوف لن أضحك وأنا أحدق في شاشة كومبيوتري. كنت أتألم. بالإضافة إلى ذلك، كنت دائماً أشعر بحب الضغط الناجم عن العمل. فهو آخر ما بقي لي. فهو يوفر لي النشاط والحيوية. وبلغة مجلات باسو، فقد كان الضغط يصب في صالحي. وهكذا قلت لباسو في سري: من فضلك، دعني أحتفظ بأعصابي المشدودة وتوتري الحاد، واضحك أنت كما تشاء.

كان يعرف أنني لا أحبه. وكان يعرف أنني أعرف أن سكينه مغروزة في داخلي، وأنه ينتظر الفرصة المناسبة كي يفتلها بعنف ويقضي عليّ.

كنت أنتظر أحياناً أن يقوم بفتل تلك السكين تلك الفتلة القاتلة التي يمزق بها أحشائي وينهي الأمر، حتى نستطيع جميعاً الذهاب إلى منازلنا ومشاهدة مباريات الكريكيت على التلفاز أو شيء من هذا القبيل. وأحياناً كانت تنتابني رغبة في الذهاب إلى مكتبه والضغط بركبتي على خصيتيه إذا كانت ما تزال لديه خصيتان، فقد تناقل

Twitter: @alqareah

الموظفون في المكتب نكتة تقول إن نيتا قد أقفلت عليهما في خزانة حديدية، أو ضربه بسكين في أحشائه ثم التوجه إلى أقرب مركز بوليس لتسليم نفسي.

نعم. كانت بعض تلك الأيام سيئة بما فيه الكفاية.

- ١١ -

كان الفطور الذي يقدم على متن هذا القطار سيئاً للغاية. كان عبارة عن بيض ملفوف مقلي بكثير من الزيت تفوح منه رائحة لدنة مع قطعتين من خبز لا طعم له، وكمية من شرائح البطاطا، وظرفين من عصير البندورة التي لا يمكن قصها من أحد أطرافها حيث يجب أن تُقص؛ بالإضافة إلى فنجان من القهوة الخفيفة. ومع ذلك كان هذا الفطور يجعلني أمضي الوقت في انتظار توقف القطار في المحطة التالية وذلك كي أستطيع الوقوف والتمطي قليلاً. كنت فيما مضى، أستطيع ومن دون أي إحراج مد رجليّ والتمطي على المضاجع الخشبية القاسية في مقصورات الدرجة الثالثة؛ وذلك لأن تلك المضاجع كانت مخصصة للحقائب والفرشات الملفوفة وسلال الفواكه وقوارير المياه المعبأة من شركة إيغيل. أما الآن فجلّ ما أستطيع فعله هو تبديل موقع رجلي والتمطي وانتظار أن يتوقف القطار في ساهارنبور.

Twitter: @alqareah

أذكر من ساهارنبور الروائح المنبعثة منها؛ أذكر رائحة الزيت النفاذة على الجلود الخام، والرائحة الطيبة لعيدان قصب السكر وهي تقطع تحت أشعة الشمس، والرائحة القوية للسكر المُصنع غير المكرر؛ بالإضافة إلى الآلاف من الذباب الأسود الكبير الحجم والمترنح بسبب أنه كان يقتات على الكثير من عصير قصب السكر. أذكر أننا توقفنا هنا في طريقنا بالسيارة في إحدى سفراتنا من ديهرادن إلى دلهي؛ وهي السفرات التي كنا نقوم بها كلما كان لدى والدي اجتماع في دلهي، وكنا ننحشر جميعاً في سيارة الموظفين لقضاء بضعة أيام عند جدتي، ولقاء الجيش الذي لا حصر له من العمات والخالات والأعمام والأخوال وأولادهم. كنا نشتري الخفوف المتينة من هناك، ولم نكن نصدق كم كنا محظوظين بالأسعار التي باعونا إياها بها. كانت تلك الخفوف من النوع الذي يلبسه المزارعون عادة. وكانت تغطس بالزيت ليصبح بعدها الجلد الأسود ليناً مثل قشرة ثمرة المانجو.

الخضرة الداكنة للأشجار في تلك المنحدرات خلف سكة القطار اليوم، هي الخضرة نفسها الداكنة التي كنا نراها في سفراتنا بالسيارة عندما كنا نتوقف في البساتين على جانب الطريق ونراقب الصبيان وهم يتأرجحون في أشجار المانغو المعمرة. كانت الأغصان مليئة بثمرات المانغو السهارنية، وهي من ذلك النوع الذي أحبه بسبب تلك الطعمة الحادة التي تشعر بها فجأة في سقف الحلق. كان المانغو

Twitter: @alqareah

الساهاراني مدوراً وأصغر حجماً من نوع السافيدا، وأقل مستوى من نوع الدوسيهري، ولم يكن بجودة النوع الذي يدعى اللانغرا نفسها أو الشوسا. ومع ذلك فقد كان المانغو الساهاراني، الفاكهة الأكثر تواضعاً، هو المفضل لدي.

لم أتناول هذا النوع من ثمر المانغو لسنوات طويلة. في الحقيقة لم أتناول أي نوع من المانغو بالطريقة الصحيحة لسنوات خلت، إذا كنت أجلس على درج سلم كوخ تحت ظل شجرة داكنة الخضرة وأمد يدي إلى دلو مليء بثمر المانجو المبرد بالماء الذي يُضخ بمضخة يدوية في المنتصف بين مدينتين. لم يعد المانجو مفيداً لي، مثل كثير من متع الحياة الأخرى: فهي حلوة المذاق جداً وهي من الأطعمة المحظورة جداً مثل الشوكولاته والجاتوه والنبيذ، كما تقول المجلات المتخصصة بمرض السكري، وهي المجلات التي بدأت بقراءتها بكثير من التوجس منذ أن ظهرت نتائج تحليل دمي في عيادة الدكتور راو. كانت مينا تقول: في هذه السن يجب توقع حدوث شيء ما، وإلا فإننا سنعيش جميعاً إلى الأبد.

لا أنوي أن أعيش إلى الأبد، معاذ الله. هذا ما قلته للدكتور راو بصوت أجش مليء بالسخرية، وهو يحدق في التقريرالمتضمن نتائج تحليل دمي القاني: نصف أنبوب تحليل قبل تناول الإفطار ونصف أنبوب تحليل بعد أن أنهيت فطوري في مطعم المستشفى المكوّن من

Twitter: @alqareah

قطعتين من الخبز المحمص وبيضتين مقليتين بلون أصفر باهت وفنجان شاي من دون سكر على طاولة مربعة الشكل، عليها غطاء أبيض من الميكة لحجب الإضاءة. وجدت نفسي أحدق من خلال شبك نافذة المطعم المعدني في بقعة من العشب المغبرّ لم يقم أحد بسقايته أو العناية به، ولكنه كان هناك دائماً وفي الموقع نفسه المعتاد؛ ثم وجدتني أتمتم بأن العالم بخير بوجود أشخاص مثل الدكتور راو. كان باستمرار وعلى امتداد سنين طويلة يأتي إلى هذا المستشفى يومي الثلاثاء والجمعة لمعاينة المرضى الذين لم يتمكنوا من زيارة عيادته المكتظة في كارولباغ.

حتى أنا لم أقم بزيارة عيادته في كارولباغ لسنوات. لم أزره هناك منذ أن انتقل من المرآب الموَسّع ذي الصفوف الثلاثة من المقاعد إلى منزل مجاور. قمنا بزيارات عديدة أيام الطفولة إلى ذلك المرآب للقيام بالطقوس الصيفية المؤلمة المتمثلة بحقن ضد أمراض التيفوئيد والكوليرا والباراتيفوئيد والخضوع لجهاز قياس الحرارة المريع (تي أي بي سي)، وكلها من إنتاج شركة البنغال للكيماويات التي كانت تباع في صيدلية مقابل الدوار الذي تقع فيه العيادة/المرآب، التي كانت تفوح منها رائحة ماء المغص. بعد أخذ الحقن، وقبل أن تبدأ البقع المؤلمة بالانتفاخ في أذرعنا، وقبل أن يبدأ الإحساس بالحمى ووجع الرأس الذي يجعلنا نشعر بالرغبة في الاستلقاء، كنا نعبر الشارع من العيادة إلى أحد المتاجر ونتفرج على

Twitter: @alqareah

السمكات الذهبية والزرقاء في حوض السمك وهي تتثنى في الفقاعات المائية.

كانت للدكتور راو لمسة واثقة. كان مشهوراً في دلهي كلها بالطريقة التي يعطي فيها الحقن، وتتمثل في كيفية إدخاله للإبرة في اللحم بطريقة سَلِسة ثم يتبعها بالسيرنج. كان ينهي إعطاء الحقنة حتى قبل أن تشعر أنها بدأت، وأنت ما زلت مستلقياً على طاولة الفحص الضيقة. بعدها يبدأ بإشعال سيجارته الحمراء والبيضاء قبل أن ينادي على المريض التالي. لم يكن جميع مرضاه أو مشاكلهم التي عالجها بقادرين على جعل الدكتور راو يتخلى عن محبوبته السيجارة الحمراء والبيضاء، وكان مدخناً شرهاً جداً في تلك الأيام. لم يتأثر بشيء إلى أن أصيبت ابنته بعدوى فيروسية في الصباح وماتت مساء اليوم نفسه. توقف عن التدخين منذ ذلك اليوم، ولا أعرف إذا كان قد حدث له شيء آخر أيضاً.

بينما كان يحدق في تقريري كان قد أصبح تقريباً أعمى. لكن رؤيته الطبية كانت ما زالت واثقة كما كانت دائماً. إذا لم أكن أرغب في البدء بأخذ دوائي مباشرة، وإذا لم أكن أريد لقلبي أن يتوقف فجأة أو تتصلب شراييني أو تتعطل كليتاي، وإذا لم تكن لدي رغبة في أن أصبح أعمى مثله وتقطع أصابع قدمي لمنع الإصابة بالغرغرينا، فيجب علي أن أسيطر على نفسي وعلى مستوى السكر في جسمي. سرد علي بصوته الأجش وبطريقة قاطعة كمثل قديم، كل ما يجب وما لا يجب

Twitter: @alqareah

عليّ فعله؛ ولكن أهم ما قاله هو أن التمارين الرياضية ضرورية، وأنه يجب «القيام بهذه التمارين لمدة عشرين دقيقة يومياً وعلى مدار خمسة أيام في الأسبوع إلى أن يستعيد جسمك حيويته».

الشخص الذي باعني جهاز الدراجة الثابت الذي يضمن أن يعيد لي حيويتي شرط القيام بالتمارين خمسة أيام أسبوعياً، كان بائعاً غريب الأطوار. ظننت أنه كان من طراز المثقفين الذين يمارسون الوظيفة الخطأ. طالما شعرت بتعاطف شديد مع الأشخاص الذين يجدون أنفسهم في الوظيفة الخطأ.

كنت جزءاً من هذه الفئة، من فئة الأشخاص الذين قُدِّرَ لهم أن يقوموا بأعمال مقرفة في البداية. كان يجب أن يكون هذا البائع في جامعة عريقة بأبنيتها ذات القباب الرائعة ومروجها الخضراء، يمشي بسرعة في أروقتها المزدحمة ويومئ في رأسه بطريقة شبه لاشعورية للطلبة الذين يمرون به، ويفكر بالأسئلة العويصة من مثل كيف، وكيف لا، ويبحث في الليالي من خلال منظار عقله عن أجوبة من مسافات أقلّ عزلة. بدلاً من كل ذلك جعلت الحياة منه بائعاً للتجهيزات الرياضية في محل للأدوات الرياضية يتوسع باطراد في سوق لودهي، لا يعيق توسعه أكثر من ذلك سوى وجود محل للخياطة ومصبغة ثياب في الجهتين المقابلتين لمحل الأدوات الرياضية. أثناء قيامه بعرض دراجات التدريب والدراجات الثابتة، كان يفكر ويناقش وهو يرفع نظّارته المربّعة السوداء السميكة عن أرنبة أنفه حيث ما فتئت تنزلق

Twitter: @alqareah

عن أنفه، وكان يجهد نفسه في الإجابة عن أي أسئلة بريئة وبسيطة أوجّهها له، ناقراً بأصابع قدميه بشكل لا مبالٍ على القضيب المثبت على حلقات رفع الأثقال وهو يضطرب ويقسم الأيْمان المغلظة. لكنه باعني جهاز دراجة التدريب الثابت بحسم قدره عشرة في المائة كما عزز ذلك العرض بأن أقنعني بالتوقيع على عقد صيانة للجهاز مدته سنتان. أعقب ذلك بتنهيدة، وابتسامة وانحناءة خفيفة كما لو كان يعتذر عن دوسه على أصابع قدمي في حافلة نقل ركّاب مزدحمة.

وبينما كنت أغادر المحل، قمت بتصنيفه في رأسي كواحد من الشلة الخاصة، أي مجلس المدراء، أو مجلس المطبخ لرابطة الرجال في الوظائف الخطأ. قلت في سرّي، يا له من شابٍّ مسكين، وذلك في الوقت الذي كنت قد أدخلت نصف علبة جهاز التدريب في صندوق السيارة الخلفي بمساعدة من أحد عمّال المحل. كان جزء من العلبة قد علق خارج صندوق السيارة الذي لم أتمكن من إغلاقه لكنه كان من الثقل بحيث لا يُخشى من وقوعه. وكان عليّ أن أستعمله بعد أن بذلت كل هذا الجهد لشرائه. ومن يدري، فلربما استطاع أن يضع حداً لهذا القاتل الصامت الذي بدأ ينهش في قلبي.

قال الدكتور راو إنه يجب علي مزاولة الرياضة لمدة عشرين دقيقة في اليوم، ولم يكن هذا بالشيء الكثير. التزمت بهذا التوقيت لبضعة أيام كنت خلالها أقوم بتحليل دمي بشكل يومي، وأتدرب كل مساء،

Twitter: @alqareah

وأراقب معدّل السكر وهو ينخفض نقطة نقطة على الجهاز الصغير لقياس مستوى السكر. ثم حدث بعد ذلك شيء بشكل مفاجئ منعني من الاستمرار في التمارين بشكل منتظم. جعلني هذا الشيء أشعر بكثير من الحزن والوحدة. إن الوحدة التي يشعر بها المتدرب على سباق المسافات الطويلة وهو يركض بابتهاج عبر الآفاق المفتوحة مثل الشيتا في الغابة، في الوقت الذي تُستنزَف طاقة عضلاته المشدودة رويداً رويداً، ليست شيئاً بالمقارنة مع الإحساس بالوحدة التي يعانيه المصاب بمرض السكري وهو يتدرب على دراجته الثابتة. هذه الوحدة هي من النوع السرّي والمدمّر والقاتل. إنها تعاند على طول الخط كل ما تتوق إليه. إنها عائق في وجه كل ما تفكر فيه من الأشياء الحلوة والجميلة والأطعمة الطيبة المذاق، وهي تفصلك من خلال ستار غير مرئي عن كل ما تحب وتشتهي. فوراء هذا الستار يمكن رؤية صفوف من قطع الشوكولا والجاتوه وعصير ثمر الجامون الساخن وأكواب من الجعة التي تعلوها الرغوة، ترتشفها شفاه عقيقية حمراء شابة، كما تبدو لناظريك شرائح البطاطا المقلية المُحمرة والمغطسة بصلصة الخردل ومخفوق شراب الفريز المكثف وهو يصعد في الشرّاقة إلى الأفواه، والنبيذ الفاخر الذي يجعل جانبي الفم يمتلآن بالدفء بمجرد النظر إليه. أعلم الآن أن النظرة إلى الأمور بتلك الطريقة كان خطأ. كان يجب أن أكون أكثر استعداداً «لمواجهتها» بواسطة القيام بتعداد الحريرات والكاربوهيدرات ومحتوى الألياف، وأن أكون المريض النموذجي الناجح والمطيع والمستجيب للتعليمات الطبية. وعليه لن

Twitter: @alqareah

يكون في مقدور الدكتور راو القول بصوته الأجش: «هيا إلى تناول الدواء، يا ذا الطبيعة البهيمية». فبدلاً من الانتظار للوقوع طريح الفراش، وحيداً يغمرني الشعور بالأسى على نفسي، كان عليّ استخدام جهاز التدريب ذاك بشكل أفضل، وأن أحرص على صيانته مجاناً كما هو مدون في العقد، وأتدرب عليه صباحاً ومساء. بدلاً من هذا كله، طلبت من بالرام أن يستخدمه لتجفيف ملابسي الداخلية.

كانت مينا لتتوقع حدوث شيء كهذا من اليوم الأول. كانت لتعتريها الدهشة لو علمت بالمدة التي التزمت فيها بالتدريب. ربما كنت دائماً مخطئاً وإن بدرجة خفيفة، في جميع تصرفاتي.

كان فيجاي سينغ، الرجل الذي يجلس في المقعد المجاور وعلى العكس مني تماماً، يتعامل مع منطق الأشياء بطريقة صحيحة. نعم، نحن الآن، يتحدث الواحد منا إلى الآخر. لم أستطع المقاومة أكثر من ذلك. كان لا بد لي أن أقوم من مقعدي ولذلك توجب علي أن أطلب إليه بلطف أن يطوي صينية طعامه. وقد قام بذلك بمنتهى الانشراح، وكان يبدو عليه الامتنان لأنني هيأت له فرصة بدء حديث بيننا. عليه أن يسرع الآن بالبدء بالحديث معي لأن دقائق فقط تفصلنا عن الوصول إلى محطة ساهارانبور.

قال: «في الهند، وفي ساهارانبور تحديداً، هذا الزي الذي ألبسه له مفعول السحر. لن يكون في مقدور أحد أن يخدعني، لن يطلبوا مني

Twitter: @alqareah

أجرة أعلى من التسعيرة في عربة التونفا، وسيؤدون التحية لي عندما أخرج من المحطة، ولن يطلبوا حتى التحقق من تذكرتي. بالطبع لديّ تذكرة. المال؟ المال ليس مشكلة بعد الآن، كما ترى. أعطاني الله فوق ما أستحق، لكنني لم أصرف جنيهاً واحداً، ولا جنيهاً واحداً في غير محله».

كان يضع على صدره شارة من النحاس مكتوباً عليها عبارة «ضابط أمن»، بخط ناعم.

أضاف: «هذه شارة مترو لندن للأنفاق، كما تعلم. وظيفتي هي تفحص الدعائم. الشركة التي أعمل بها مسؤولة عن تركيب الأعمدة الحديدية المملوءة بالخرسانة وتثبيتها في الأرض كي لا تميد الأرض تحت وطأة حركة القطارات. مهمتي هي تفحص تلك الأعمدة. وهو عمل مضن كما تعلم؛ ذلك أنه يتوجب علينا أن نبقى تحت الأرض لساعات طويلة. ولكن أريد أن أسألك هل هناك مجال للتقدم لولا العمل المضني؟»

أنظر إلى زيّه الأسود غير المناسب لهذا الطقس، وإلى حذائه السميك ذي النعل المزدوج من ماركة أوكسفورد والذي يغطي كاحله، وإلى بطاقته الشخصية التي أخرجها من جيب قميصه كما لو أنه كان يريد أن يقول لي إنه يقول الحقيقة.

لم يصل إلى لندن في يوم واحد. كانت المسافة طويلة بين لندن

Twitter: @alqareah

وساهارانبور. عمل في العديد من المناطق في العالم، في عبدان ومسقط والنروج. وعاش وحيداً في لندن لمدة تسع سنوات. لم يشتر سيارة، ولم يأخذ قرضاً لشراء منزل ولم يأخذ أسرته معه إلى لندن. لا يدخن ولا يشرب وليست له علاقات نسائية مطلقاً. بل على العكس من ذلك تماماً؛ فهو يوفر ألف جنيه في الشهر: قم بتحويلها إلى روبيات، ويصبح لديك منزلان بطابقين في ساهارانبور. الرجل له ثلاثة أبناء متعلمون، وابنتان تستعدان للزواج هذا الشهر. يطبخ طعامه بنفسه في لندن على الطريقة الهندية القديمة، ويشتري الخضروات التي يبتاعها من محلات خاصة بثمن بخس، لا يؤمن بأكل اللحوم وليس لديه أصدقاء مطلقاً.

كان يدير حياته بالطريقة الصحيحة: بحزم وحسم. وعندما يصل إلى منزله في ساهارانبور، ينزل من عربة التونغا وسط التحيات والانحناءات، ويبدأ بتوزيع الهدايا التي اشتراها من المحلات التي تقدم تنزيلات بغرض تصفية المحل، وسوف يغمره حب زوجته له واحترام أولاده وحسد جيرانه.

يا فيجاي سينغ، أنا أحبيك، أنا أحسدك. ليتني مثلك استطعت أن أدير حياتي بالطريقة الصحيحة.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

ساهارانبور

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

-١٠-

القطار ينحدر بانسياب وتؤدة وكأنه على وشك أن يغفو في أحضان الساعة العاشرة التي حلّت وحلت معها تلك الغمامة التي لا سبيل إلى الهروب منها، والتي كانت تلف محطة قطار ساهارانبور. يُفتح الباب ويندفع الهواء الساخن داخل القطار، لا تزال بقايا أواخر الصيف هنا. يحاول جميع ركاب المقصورة الخروج منها لكن فيجاي سينغ هو أول من يخرج. يشير بشيء من العجرفة إلى أحد الحمالين ليحمل له حقيبتيه. يداه كلتاهما تشدان على يدي، ويشكرني، ويقول لي إنه استمتع كثيراً برفقتي في هذه الرحلة، وبعدها يختفي في الزحام. أقاوم رغبتي في النزول من القطار. ثم، وبعد انقضاء دقائق خمس من الدقائق العشرين وهي مدة الاستراحة، أجدني أمشي عبر رائحة الفحم والروث والمانغو التي تطفو فوق رصيف المحطة وتسمم أشعة الشمس الكرومية الصفراء.

من على حافة الخطوط الحديدية، حيث كنت أقف، كان رصيف المحطة يتراءى لي طويلاً وموحشاً. كانت خلفي عربة عليها كل أنواع الخردة التي تباع عادة على أرصفة المحطات مثل المجلات والأعداد القديمة من الصحف وزجاجات المياه وورق اللعب ومقصات الأظافر

Twitter: @alqareah

وحمالات المفاتيح. كانت هنالك أيضاً امرأة عجوز حفرت السنون آلاف الخطوط العميقة في جلدها، تبشرني بالسعادة الأبدية عبر لسانها المتورم الدامي وفمها الذي تساقطت أسنانه، شرط أن أرمي لها قطعة نقدية معدنية. لا أقل من السعادة الأبدية، ضمن تنزيلات كبيرة. كل شيء يجب أن يباع، كل السلع معروضة بسعر واحد. أرمي لها بقطعة نقدية معدنية وأتابع طريقي دون أن أنتظر أن آخذ منها ما يمكن أن تقدمه لي من هذه الصفقة.

عندما زوّجونا ـ أنا ومينا ـ في الساعة العاشرة صباحاً على الشرفة المحاطة بالستائر في نادي القوات المسلحة، وعَدُونا أيضاً بالسعادة الأبدية. كان هذا الوعد متوضعاً في كل شيء: في الكتاب المقدس، وفي البركات التي انهالت علينا من الجدّيّن المرتعشين، وفي رائحة نبات الأذريون الملتف حول عنقي، وأوراق الورود التي كانت تدهسها أقدامنا. ثم تَرَكنا الجميع ونحن نمسك بهذا الوعد الذي بدا لتوه رخيصاً وأجوفَ مثله مثل أي شيء تم ابتياعه على وجه السرعة من محل للتنزيلات، وأسرعوا إلى القاعة وبدؤوا بالتهام الدجاج المقلي بالزبدة والخبز الهندي التقليدي والسبانخ وخميرة الحليب المفروط، والمنزوع الدسم وأشياء أخرى.

قبل ثلاثة أشهر فقط، كنت قد ركنت سيارة العائلة أمام مجموعة من الشقق السكنية في منطقة رابيندرا ناغار. نظر والديّ بسرعة إلى الشقة ذات اللون الأصفر في الدور الأول من البناية وهزّ رأسه موافقاً.

Twitter: @alqareah

«دي ـ آي، منطقة راقية، لكن ليس بالقدر المطلوب».

ذكّرته أمي بلطف أن علينا أن نركز فقط على الشيء الأكثر أهمية: «دعنا نرى الفتاة». كانت سعيدة لمجرد أنني وافقت على المجيء أساساً، وأنني وضعت حكاية روحيني ورائي. لم ترغب في أن تخرب المشهد أي اعتبارات عرضية. فقد لزمها بضعة أسابيع من المحاولات الصبورة للتقريب بيني وبين والدي وإقناعنا بأن نبدأ بالتحدث أحدنا إلى الآخر من جديد.

بدت الفتاة عندما رأيناها للمرة الأولى، مرحة وجميلة. كانت في مقتبل العمر وكان ثغرها يفترّ عن مشروع ابتسامة، وكانت تلبس تنورة سفلية فضفاضة صفراء شاحبة، أما شعرها الذي كانت قد غسلته لتوّها، فكان يتراقص على كتفيها. كلماتها كانت قليلة. ركزت على مساعدة أمها في وضع الشاي على طاولة الغداء التي تستوعب ستة أشخاص وتحتل نصف الغرفة. وقد شدّني إليها سواد عينيها الذي يحيط به إطار من الغضب المكبوت الذي تبرزه خطوط طويلة من الكحل، بالإضافة إلى شفتيها المكتنزتين.

قالت أمها بتباهٍ وهي تضع قطع البيتزا المستطيلة الصغيرة في صحوننا: «إن مينا هي من أعدت قطع البيتزا الصغيرة هذه».

ثم التفتت بعدها إلى طبق الحلويات.

Twitter: @alqareah

«هذه كلها طبعاً من السوق. هناك محل ممتاز في سوق خان وهذه الحلويات هي من أجود الأنواع، فهي طازجة وطرية إذا اشتريتها في تمام الساعة الرابعة بعد الظهر».

أكلنا وتحدثنا بينما كنا نتناول طعامنا في الوقت الذي كنا فيه ندير بعناية دفة الحديث نحو الجهة المقصودة.

«إن طبيعة وظيفة أفتاب تجعله في الواقع مشغولاً دائماً. أنت تعرف أن هذه المناصب الإدارية في القطاع الخاص أكثر تطلباً بكثير من الوظائف الحكومية». هذا ما قاله والدي موجهاً كلامه إلى والد مينا الذي هز فوراً برأسه موافقاً.

«نعم، بالطبع. انظر إلى حالي. لو كنت موظفاً في القطاع الخاص، لما توفر لدي الوقت لبناء منزلنا. إننا على وشك الانتهاء من بنائه وهو يقع في القطاع ١٥ في منطقة نويدا».

استدرت نحو صحن الفستق الحلبي المملح والهش، وسمعت الأبوين يدليان ببيانات إيحائية حول مركزيهما وسياراتهما وبيوتهم والشخصيات المهمة التي يعرفانها. طيلة ذلك الوقت، كنت أراقب يدي مينا الشاحبتين تسري فيهما رعشة خفيفة تسببت في اهتزاز أساور معصمها الفضية. التقت عيناي عينيها مرة أو مرتين، وكانت تشيح بنظرها عني. عند انتهاء تلك الأمسية، لم نستطع الاتفاق كلياً على مسألة وجوب أن أمرّ بهم ثانية في الأسبوع نفسه «لكي يُعطى

Twitter: @alqareah

الشابان فرصة التحدث أحدهما إلى الآخر، إذ إن هذه هي الكيفية التي تتم فيها عملية التعارف في هذه الأيام وفي هذا العصر».

التقينا ثانية مرتين متتاليتين وكان اللقاءان يشوبهما شيء من الإثارة. كانا أيضاً مشحونين ببعض التوتر. كنا نجلس مرة على الأريكة الصفراء في تلك الغرفة نفسها، وكنت أراقب مينا وهي تعبث بدثارها ذي الألوان المتموجة، والذي يغطي الرأس والكتفين، في الوقت الذي كنت فيه أشرح لها طبيعة عملي في المكتب. أخبرتني بدورها عن طبيعة دراستها وعن الامتحانات التي كانت ستجريها بعد أربعة أشهر. في المرة الثانية، كنا نتمشى جيئة وذهاباً أمام شرفة شقتها باحثين عن بصيص من التفاهم بيننا في الوقت الذي كانت فيه عصافير الليل تطير عائدة إلى أعشاشها في الأشجار المعمرة في حديقة لودهي غاردن، وفي الوقت الذي كانت فيه آخر خيوط أشعة الشمس تتوضع فوق قباب القبور التي كانت تعلو على تلك الأشجار. بعد ذلك، ولأنني لم أستطع افتعال أي سبب يدعوني لإبداء أي معارضة تذكر، أخبرت أبي أنّ وسعنا إتمام عملية الزواج إذا كان هذا الأمر يناسب الجميع. كتبت رسالة إلى روحيني في إحدى تلك الأمسيات أعلمها فيها عن كيفية التقائي مينا، وأودعت الرسالة في مكتب بريد جورباغ الذي يقع مباشرة خلف البناء الأحمر القديم الذي يقع فيه مكتب مايت.

غادر عدد كبير من الركاب بالإضافة إلى فيجاي سينغ القطار في

Twitter: @alqareah

محطة ساهارانبور. لم أتوقع أن يغادر القطار مثل هذا العدد. فلقد اعتدهم ورغبت في أن يرافقوني حتى نهاية الرحلة، أي حتى وصولنا إلى رصيف المحطة المعتاد، حيث يمكنني حينئذ إيجاد طريقي بنفسي من دون أن يساعدني أو يرافقني أحد. وكانت المقاعد الثلاثة الفارغة الشديدة الزرقة بجانب مقعدي تخبرني أنها ستمضي في طريقها تماماً كما سأمضي أنا في طريقي، وكما مضى كل من مينا وراجيف في طريقهما، وكما مضت روحيني في طريقها قبل سنين مضت.

بعد قضاء ثلاث ساعات سوياً في القطار نبدأ بتعوّد وجود الآخرين. نتعود وجود كثير من الأشياء الأخرى: الألوان الباهتة للسجادة، والنباتات ذات الخضرة المريحة، ورائحة طهو الطعام، والأغاني المنبعثة من أجنحة الخدم أثناء تحضير الفطور، والكلب المتكوّر على نفسه والقابع فوق الممسحة أمام مدخل المنزل، وفحيح الصنبور في الوقت الذي كنا ننتظر فيه تدفق الماء منه في الساعة الرابعة بعد الظهر أيام الصيف، والتوتر المنخفض... وحتى القلاح الذي يتجمع بين ثنايا أسناننا وحولها. ليس من المهم أن نحب تلك الأشياء أو لا نحبها، نرغب في أن تتغير أو لا... نحن ببساطة نتعود وجودها.

أنظر إلى ما وراء المقاعد الفارغة. جمع من اليافعين يجلس خلفي منذ أن انطلقنا من محطة دلهي. يتناقش هؤلاء حول ما إذا كانوا

Twitter: @alqareah

سيغنون بعض الأغاني. أظن أنهم سيبتدؤون بالغناء في اللحظة التي تتجمع لدى أحدهم الشجاعة للبدء بذلك. إن الخطوة الأولى هي الأكثر أهمية.

قبل سنتين تقريباً، عندما تأكد أخيراً أن الوعد بالسعادة الأبدية كان مجرد كلام فارغ، قامت مينا أولاً بالانتقال إلى غرفة الضيوف. أخبرتني حينها بكل شيء: أنها خرجت برفقة راجيف لتناول العشاء عندما كنت خارج المدينة، وأنهما جلسا تحت ضوء البدر على الدرج العريض من الحجر الرملي وهما يصغيان لأزيز الحشرات في الأشجار. أخبرتني أنه توسل حبها وأنه أمسك بيدها واعتصرها لدرجة أن خاتمها بدأ يؤلم أصابعها، وأنه كان من الجرأة بمكان بحيث أنه انحنى نحوها وقبلها على خدها، وأنها أخيراً استسلمت لجاذبيته الجسدية القوية التي طالما شعرت بها تجاهه. كنت متأكداً أنها في الصباح التالي لا بد أنه انتابها شعور بالذنب، وأنه كان من الخطأ حصول ما قد حصل. لكن حينئذ، كان كل شيء قد انتهى. فقد تذوقت مينا المتعة الجسدية الدنيوية التي لم تحصل عليها لسبب أو لآخر بين ذراعيّ.

حدث ذلك لأنني أخفقت بالقيام بما كان يجب علي القيام به. كان عليّ أن أذهب إلى راجيف، لا لكي أطلق النار عليه في حوض الحمّام، كان عليّ أن أستدعيه وأطلب إليهما الجلوس أمامي وأصرخ في

Twitter: @alqareah

وجهيهما لخيانتهما لي. كان هذا ليريحني بشكل أو بآخر. لكن، وبدلاً من ذلك، انكفأت خلسة ولعبت دور الرجل الشريف. سمحت لمينا بالبقاء ظناً مني أن كل شيء سيعود إلى سابق عهده. ظننت أنه على الأقل ستعود الأمور إلى مجراها كما كانت في السابق. تغاضيت عن اتصال راجيف بها، تغاضيت إلى درجة أنه بدأ بزيارتنا في المنزل من جديد كما لو أن شيئاً لم يحدث. ألم يكن هذا بالضبط ما حدث بين نيني وبراشانت؟ لقد كانا يقضيان أيام العطل معاً حتى بعد أن تم طلاقهما، كانا يذهبان معاً إلى السينما، وكانا ما زالا يحتفظان بحساب مصرفي مشترك. كنا حينها لا نزال زوجين. كان هذا هو السبب الذي أشعرني بالجبن... أو ربما ادعيت أن هذا كان الأفضل بالنسبة إلى أنكور.

كنت غالباً ما أكتم في داخلي غيظي وشعوري بالمهانة. لم يؤدِّ ذلك إلى أي شيء يذكر سوى معرفة أن هذه لم تكن إلا الخطوة الأولى. بعد ذلك بدأت الأمور تزداد سوءاً بالرغم من أننا لم نلاحظ ذلك في بعض الأحيان. بدأنا تدريجياً بالتوقف عن الظهور معاً كزوجين، وتوقفنا عن القيام بأي من الأعمال العادية التي يقوم بها الزوجان عادة بطريقتهما الخاصة مثل الذهاب لمشاهدة فيلم في قاعة سينما بدلاً من مشاهدة فيلم فيديو مستأجر مساء كل يوم جمعة؛ أو ممارسة لعبة السكرابل عندما كانت تمطر بعد الظهر مخترعين كلمات لا يفهمها سوانا مثل السكويش والتوت والكريدي،

Twitter: @alqareah

والمشاركة في شرب القهوة من دون حليب من كوبينا المفضلين. لقد كنا معاً فقط لأننا متزوجان.

وهكذا فعندما أخبرتني مينا أثناء تناولنا الغداء في مطعم تريفيني أنها قررت الانفصال عني لتعيش مع راجيف لم ينطوِ ذلك على أي مفاجأة. جرحت كبريائي في الصميم، وتشظت الأنا الذكورية العظيمة في داخلي، لكن فعل الخيانة بدأ قبل سنتين؛ وقد اعتدته. كنت من دون أي وعي مني أعدّ نفسي للخطوة الأخيرة هذه. دعوني أعترف أنني خلال هاتين السنتين، خنت ذلك العهد الأجوف لزواجنا مرة واحدة فقط، وقد حدث هذا عندما كنت في إحدى المدن البعيدة في ليلة فردوسية؛ قمت فيها بتقبيل فتاة لا أعرفها كانت تضع أحمر شفاه بلون برتقالي على جسر منعزل ولم أرها بعد ذلك.

جمع اليافعين ورائي يوزعون على بعضهم شطائر ومعجنات محشوة بالأناناس، وهذه تنتمي إلى قائمة الممنوعات التي يحظر عليّ تناولها. أشعر بالغيرة من قدرتهم على تناول ما يشتهون بحرية، وأحنّ إلى تذوق طعم القشدة السميكة والأناناس الهش؛ لكنني لست غيوراً من شبابهم أو قلة خبرتهم أو حماقاتهم المطلقة. فلا يزال أمامهم الكثير مما يتوجب عليهم تعلمه والكثير من الأذى الذي سيلحق بهم والكثير مما سيخجلون منه. انتابتهم موجة من الحماس لمجرد أن القطار بدأ يتحرك بسرعة من جديد. يقولون إن هذا القطار لن يتوقف في

Twitter: @alqareah

العديد من المحطات بعد انطلاقه من ساهارانبور. سيتوقف فقط في روركي وهاريدوار.

هناك فتاة ضمن هذا الجمع، فتاة بلباس أسود يزيد من شفافية جمالها الذي لا يبدو أنه في متناول اليد. إنها تعيد إلى ذاكرتي طيف فتاة التقيتها بعد روحيني. كانت لهذه الفتاة تلك النظرة البريئة نفسها المنبثقة من عينين واسعتين، ولقد أحبتني لمجرد أنني كنت أضحكها. كنت ألتقيها في أمسيات تلك الأيام التي لم يكن لدي فيها أعمال أخرى أقوم بها، وعندما كان ينتابني التعب جراء البحث عن عمل محترم في دلهي؛ وفي أمسيات تلك الأيام التي كان عليّ ألا أعمل فيها شيئاً سوى الانتظار، في تلك الأمسيات الصيفية الجوفاء التي لا أثر فيها لنسمة هواء. كنت ألتقيها للتأكد من أنني قادر على إضحاكها. كانت تضحك تحت شجر الجامون، في العتمة وعلى العشب الندي. كنت أمرغ أنفي في عنقها الذي يعبق بالعطر. لم يكن هناك الكثير من الكلام، لم تكن هناك أي وعود، وبالتالي فلم يكن هناك مسوغ لأي ندم في المستقبل. كانت هناك قبلات هادئة وحزينة وتكاد تكون خالية من المشاعر، كما لو أنها مكافأة على أمسية من الضحك. ومع نهاية فصل الصيف، وبدء هطول الأمطار لم يعد في استطاعتنا اللقاء تحت شجر الجامون. في ذلك الوقت وجدت وظيفة جديدة، وبعدها ذهبت مع والديّ لرؤية مينا. انتهت تلك الأمسيات، ومع ذلك، فإنني عندما أنظر إلى تلك الفتاة ورائي ببضعة مقاعد، أفكر في تلك الضحكات تحت شجر الجامون.

Twitter: @alqareah

-٢-

منازل صفراء. منازل صفراء خفيضة ومتداعية، منازل تقبع على الحدود البعيدة لمدينة ساهارانبور حيث تلتقي أشجار المانغو حقولَ قصب السكر. كانت تأوي موظفين وسائقي قطارات ومحاسبين ومفتشين. كانت هذه المنازل في حاجة إلى إعادة طلائها من جديد؛ كما كان يجب استبدال سياج الأسلاك الشائكة المخصصة لمنع الكلاب والبقر من الاقتراب من هذه المنازل. كانت كل أربعة منازل تشكل مجموعة سكنية. وكانت للشقق في الطوابق العلوية شرفات مليئة بحبال مربوطة إلى أنابيب خزانات الماء المعدنية من طرف، وإلى أعمدة هوائي التلفزيونات من طرف آخر منشورة عليها كميات هائلة من الثياب، ثياب الساري القطنية والبلوزات وسراويل الأولاد القصيرة والقمصان البيضاء والصداري والثياب الداخلية التي فقدت شكلها الأصلي. أما شقق الطوابق الأرضية فقد كانت لها حدائقها الصغيرة الخاصة بها مع بعض الورود أحياناً، مزروعة في قدور من الصلصال وعلب التنك وسطول من البلاستيك المتفسخ. هنا كانت تنشر الثياب لتجف في تلك البقعة الصغيرة في الخلف حيث تتطاول الأعشاب لتعانق شجر العليق. أما في الشتاء فقد كانت تُمد أسلاك مثبتة على عمودين أمام تلك المنازل حيث تجلس النسوة ويثرثرن وهنّ يأكلن البرتقال بعد الغداء، ويراقبن بأطراف أعينهن الأولاد وهم يلعبون قرب البركة المخيفة التي يصل عمقها إلى الكتف.

Twitter: @alqareah

عشت لمدة طويلة في منازل صفراء شبيهة، كان منها الرحب ومنها الضيق، في كل مرة كان والدي يعيّن في دلهي مرة أخرى. إنها جزء من حياة أي موظف حكومي كوالدي الذي كان موظفاً حكومياً تقع على عاتقه الكثير من الأعمال. كان دائماً يقول لنا ذلك؛ وهذا ما لمسته في كل مرة زرته في مكتبه لتصديق الوثائق الأصلية للشهادات قبل زمن شيوع آلات التصوير. كان عدد من العمال الهنود يحرسون مكتبه من الخارج طيلة فترة طفولتي، وكانوا يحجبون عني رؤيته عندما كبرت قليلاً. لكنهم كانوا يقومون بذلك بلطف وكياسة. كان يجلسني بريتام سينغ أمامه وهو يقلّني على دراجته الهوائية من دار الحضانة. طلب إليّ عدم النظر إلى الشمس عندما كانت في حال كسوف. أما ميرشو رام العجوز فقد كان يأتي إلى منزلنا أيام الصباح ليساعد في إعداد الطعام. قام بإعداد الخبز الهندي التقليدي بأشكال وأحجام مختلفة: خبز على شكل البقرات الملأى بالحليب، وخبز على هيئة هلال وخبز على شكل عربات التونغا، أو خبزعلى صورة عربة بدولابين يجرها رجل. وهناك أيضاً ناثو رام الذي كان يغلف لي كتبي بأوراق بنية سميكة ويلصق عليها رقعة اسمية بواسطة غراء من المكتب. بالإضافة إلى هؤلاء، كان هناك على الأقل ستة آخرون. كان يتعين عليّ أن أتخطى هؤلاء جميعهم كلما رغبت في الذهاب إلى أحد مكاتب والدي: مكاتب في كل من دلهي ونانغال وديهرادون حيثما تطلبت طبيعة عمله أن تأخذه إلى مواقع مثل مواقع بناء السدود الهيدروكهربائية أو التنقيب عن النفط مع معدات الأقنية والأحواض والحفر والتفجير،

Twitter: @alqareah

برفقة مهندسي التنفيذ بخوذاتهم الصفراء يجوبون هذه المواقع في سيارات فان من نوع فورد. كانت تلك المكاتب مجهزة بكراسٍ دوّارة، ورفوف كتب دوارة ومُثَقلات ورق زجاجية وكؤوس زجاجية للشرب مغطاة بأقمشة محبوكة بالإبرة، ومطرزة أطرافها بالخرز الأحمر والأزرق والأصفر، وذلك لشد هذه الأغطية نحو الأسفل. وكانت هناك أيضاً جداول، كثير من الجداول التي تبين وجوه صرف الموازنات والعدّ التنازلي للأيام وحركة المد والجزر. في تلك المكاتب كان يمارس تلك الطقوس الغامضة السحرية: الاجتماعات. اجتماعات منهكة طويلة ومتوترة كنا نسمع عن مضمونها بعد الانتهاء منها بفترة طويلة، وقد أدى به كل ذلك إلى الإصابة بمرض ارتفاع ضغط الدم.

كل ذلك أبقاه مشغولاً لمدة ثلاثين سنة. لا بد أنه ارتقى السلم الوظيفي بطريقته الخاصة؛ ذلك أننا ما فتئنا ننتقل من منزل كبير إلى آخر أكبر منه. البداية في منزل مقابل مستشفى سافدارجانغ. لا أذكر الكثير عن ذلك المنزل سوى ما أراه في تلك الصور الصغيرة بالأبيض والأسود. لم ألقِ نظرة على تلك الصور منذ سنين طويلة لكنني في فترة ما، من طفولتي أذكر أنني نظرت إليها بشكل متكرر وبكثير من التمعن بحيث لم أعد أشعر بالحاجة إلى إلقاء نظرة عليها من جديد. الكثير من تلك الصور كانت لي وأنا في عربة الأطفال. لم تسامح أمي نفسها يوماً بسبب تركها العربة خارج أحد المحلات ما تسبب بسرقتها. كان عزاؤها الوحيد أنني لم أكن ساعتها فيها وإلا تعرضت

Twitter: @alqareah

للخطف. استبدلت بالعربة المسروقة في الصور التالية عربةٌ خفيفة ذات إطارات كبيرة وواقية شمس تماماً كمثيلاتها من الطراز البريطاني الأصلي؛ كل أولئك الأشخاص في تلك الصور: تلك الوجوه الغريبة التي أتذكرها جيداً؛ وجوه أقارب اختفوا واختفت معهم طفولتهم، بعضهم مات في الحروب والبعض الآخر اختفى بسبب الطلاق أو بسبب الالتحاق بوظيفة ما، وآخرون ماتوا بالسكتة القلبية. كل أولئك الأجداد الذين قضوا قبل مدة طويلة وإخوتهم وأخواتهم الذين كانوا فيما مضى على علاقة حميمية في ما بينهم. يُنظر إليهم اليوم بكثير من اللامبالاة الشبيهة باللامبالاة التي يشعر بها المرء عندما ينظر إلى ديناصور. وأيضاً هناك الخدم الذين كانوا يحملون عربتي بتفاخر، والذين طُلبَ إليهم في أحد الأيام مغادرة المنزل لأن كبرياءهم منعتهم من الردّ على والدتي عندما كانت تطلب منهم شيئاً. هذه الصور هي كل ما أتذكره عن المنزل الأصفر الأول عدا ذكرى واضحة جداً لسماء زرقاء صافية كنت أراها من خلال نافذة مثبت عليها شبك ذو قضبان حديدية دائرية، وغراب يقبع على غصن خارج تلك النافذة.

أما المنزل التالي الذي ما زلت أتذكره، فقد كانت هناك شجرة مانغو مزروعة في حديقته الأمامية، وكان هناك خمّ دجاج متداعٍ في حديقته الخلفية. كانت السحالي تعيش في الحمّام الإسمنتي الرمادي بمنتهى السعادة إذ كانت تلتهم بألسنتها الحشرات الصغيرة التي كانت تظهر تحت ضوء النفق الخافت. كم كنت أكره تلك السحالي؛ لقد

Twitter: @alqareah

كانت تبقيني مستيقظاً طوال الليل. بعد ذلك بسنين طويلة، كنت أنام في غرفتي في المدينة الجامعية بعد أن أغلق النوافذ والأبواب في أكثر ليالي الصيف حرارة، حتى أمنعها من التسلل إلى الغرفة ليلاً من السطح الحار. وحتى بعد ذلك، كانت مينا تضحك عليّ دائماً بطريقتها المعتادة في القهقهة التي تجعلك تضحك أيضاً، عندما كانت تراني أتفحص بنطالي أو بيجامتي قبل أن ألبس أيّاً منهما. أخبرتها أن مردّ ذلك هو خوفي من السحالي لكنها قالت لي إنني مجنون. عندما كنت صبياً أردت أن أكون مثل الصبي شيفي الذي يسكن في منزلٍ مقابل المرج العشبي. كان لديه مسدّس هواء؛ ويوم اقتناه، استطاع أن يقتل ثلاثاً من السحالي التي تشظت أشلاؤها على جدران منزله.

أعيد والدي إلى عمله مرة أخرى في دلهي قبل وقت قصير من انتهائي من دراستي الجامعية والسفر إلى بومباي. كان هذا قبل سنة واحدة من إحالته إلى التقاعد. وكان ذلك آخر منزل كبير، فيه غرفة نوم إضافية، وحمام إضافي، وشرفة خلفية أكثر اتساعاً ومزودة بمغسلة. كنت أحب أن أغسل وجهي على تلك المغسلة صبيحة الأيام الباردة وأحدق في الطريق الدائري المحلق، والتقاطع الهائل الحجم الذي كان من أوائل التقاطعات في دلهي ذات الحارات السريعة التي تثبت عليها إشارات ضوئية عُلوية للمنعطفات المسموح باستعمالها على الجانب الأيسر. كانت دلهي ما زالت تبدو في الصباح الباكر رومنسية وجميلة حيث تنمو شجيرات البوغنفيلية على شكل عرائش

Twitter: @alqareah

في المُنَصِّفات الطرقية، وحيث يقود أشخاص قادمون من الريف دراجاتهم المثبتة عليها علب ضخمة مليئة بالحليب. وكان من ضمن أثاث المنزل ذلك الهاتف الأحمر الأملس المسطح الذي يصدر صوتاً يشبه المواء الناعم. كان في الإمكان طلب الرقم الذي تريده بسهولة ويسر. أحبت والدتي هذا الهاتف الأحمر، وكانت، طيلة حياتها فيما بعد، تجهد أن يكون لديها دوماً جهاز هاتف أحمر. كان على المرء أن يكون مهماً كي لا يزود بذلك الوحش الأسود الثقيل الوزن الذي لازمنا لوقت طويل ومنذ أيام الطفولة. حتى هذا اليوم، لديها جهاز هاتف أحمر في شقتها. فقد احتفظت به هناك حتى بعد أن أحيل والدي إلى التقاعد، وحتى بعد أن وافته المنية؛ لقد دخلت في نزاع حاد مع شركة الهاتف. قالت لهم: «لا يمكنكم أخذه بعد أن أعطيتمونا إياه»، «إن هذا الهاتف مؤشر على المستوى الوظيفي الذي وصل إليه عند تقاعده. في الوظائف الحكومية لا تفقد أبداً المستوى الذي وصلت إليه يوماً». احتفظت به في شقتها مستخدمة مزيجاً من لغة التهديد ولغة المجاملة التي كانت تجيدها مع الكثير من المهندسين الذين تعاقبوا على هذه الوظيفة والمشرفين ورجال الخطوط، إلى درجة أنهم استسلموا جميعاً وقرروا أن من الأفضل للجميع تركها تحتفظ به.

أكره الآن كل تلك المنازل الصفراء صغيرة كانت أم كبيرة. لا أستطيع تحمل مجرد النظر إليها بعد الآن وأحاول ألا أمرّ بتلك التجمعات السكنية إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً. فهذه المنازل التي بدت في

Twitter: @alqareah

الماضي رمزاً للهيبة والفخامة أضحت الآن متدنية المستوى. فالرجال والنساء الذين يعيشون فيها ويذهبون إلى العمل في سيارات جماعية أو حافلات ذات مواعيد محددة، لا يبدو أنهم يأخذون أعمالهم مأخذ الجد، أو أنهم يتميزون بالأمانة والأهمية. إنهم مجرد أشخاص تافهين وماكرين، لا قيمة لهم. استنفدوا كل خياراتهم على ما يبدو، أو أنهم فقدوا شجاعة الاختيار. أعلم كم يبذلون من الجهد لتدبير أمورهم، وكم يقضون من الوقت قابعين في قائمة الانتظار للحصول على تلك المنازل، وكيف يتوسلون ويتسولون، وفي النهاية يرشون المسؤولين لتركيب هواتف في منازلهم، أو لتغيير المواسير، أو لتركيب المكيفات في الصيف ونزعها عندما يحل موسم الأمطار، وكيف تنتابهم موجة من الرعب عندما يفكرون باليوم الذي سيتقاعدون فيه ويكون عليهم إخلاء منازلهم تلك، والانتقال إلى شقق صغيرة في تجمعات سكنية بعيدة ومعزولة. أعرف كيف يسقط الطلاء عن الجدران، وكيف يؤجر جناح الخدم إلى عائلات مستعدة لأن تقوم بثلاث وظائف في المنزل بدلاً من أن تُضطر إلى دفع الإيجار: القيام بكنس المنزل وغسل الأواني والثياب. وعندما يحصلون على قليل من المال مقابل ذلك يشعر أولئك المساكين كم هم محظوظون لأنهم وجدوا سقفاً يؤويهم في المنطقة الخضراء في دلهي، وليس في تجمع سكني بعيد يفرض عليهم ركوب دراجاتهم لمسافات بعيدة كي يصلوا إلى مراكز أعمالهم. على هؤلاء المساكين أن يقوموا أيضاً بأعمال الطبخ وكوي الثياب.

Twitter: @alqareah

أفكر أحياناً ـ ويا لها من فكرة مريعة ـ أنني لو انخرطت في العمل الحكومي، كما حلمت لسنوات طويلة وأنا يافع، لكنت قضيت حياتي وأنا أقطن في أحد تلك المنازل الصفراء متدرجاً من مرتبة دي ٢ إلى دي ١، ثم إلى سي ٢، وبعدها إلى سي١، وبعدها تبدأ الدراما في حياتي والسنوات التي قضيتها مع مينا والأشهر التي تلت انفصالها عني، واليوم الذي ولد فيه أنكور بعملية قيصرية وزيارات راجيف المريبة؛ كان كل ذلك سيحدث في منزل ذي أرضية إسمنتية قبيحة تقطن في حمّامه السحالي، بأبواب شاحبة اللون ذات مزالج سوداء ثقيلة، ونوافذ عليها شبك حديدي بقضبان دائرية، وكثير من الخدم يقطنون ويتعاركون وينجبون الأولاد في الأجنحة الملاصقة للمنزل ويغسلون ثيابهم تحت صنبور الماء النحاسي المتدفق من خزان المياه على الشرفة.

لكنّ أياً من هذا لم يحدث لأنني لم أنجح في أن أكون موظفاً حكومياً. لم أكن مؤهلاً لذلك بما فيه الكفاية.

ـ٣ـ

يجب أن أعترف بأنني بذلت أقصى جهدي. فقبل خمس سنين على موعد امتحان القبول قمت بشراء ستة دفاتر طويلة، وكتبت عليها بالحبر الأخضر عبارة: وظيفة حكومية. بدأت ببطء في أماسيّ تلك الأيام، وبينما كانت الشجرات الباسقة النحيفة تقف في مواجهة

Twitter: @alqareah

الحرارة المرتفعة في الجو، والحشرات تئزّ مستمتعة بعبق الياسمين الطافح في تلك الأرجاء، بتجميع الكثير من الحقائق التي لا رابط بينها في تلك الدفاتر كنت أحصل عليها من مجلات وصحف؛ كانت تلك المعلومات تتعلق بأعداد السكان ونسبة الذكور إلى الإناث، والحال في الهند في ما يتعلق بالحيوانات الحلوب، وكيفية صناعة الرقائق المدمجة. كنت أتوقع أن ذلك الخليط من المعلومات سوف يشكل كتلة موحدة استعداداً للمعركة الكبرى ضد آلاف المرشحين لعدد محدود من الوظائف في نهاية النفق.

بعد ذلك، وأثناء فترة دراستي العليا، تابعت تلك المعركة من قاعة اليوبيل. تقع تلك القاعة على طرف الحرم الجامعي حيث كان من الواضح أن خطوة أخرى وحيدة كان يجب القيام بها، وتتمثل في سنة مباركة أو اثنتين نتدفق بعدها إلى العالم لنتصارع من أجل البقاء والنجاح خارج إطار شارع مول، ونندفع بين جموع الناس الذين ينتظرون حافلات لا تأتي أبداً، أو أنها كانت مزدحمة إلى درجة أنه كان من غير الممكن الركوب فيها، وننشد الغوث في كأس ماء بارد محمولة على عربات بسعر خمس بيسات للكأس الواحدة أو نلتهم طعام العشاء بسرعة على الرصيف؛ ذلك الطعام المعروض على عربات خشبية فيها مواقد دائرية الشكل وتُدفع باليد. كنا في المساء نراقب هذا العالم وهو يجري مسرعاً إلى شقق ذات نوافذ مضيئة مستطيلة عبر الشارع، غابت ملامحها. كانت كلها متشابهة إلا في

Twitter: @alqareah

مسألة أعدادها، كانت كل شقة تحتوي على جهاز تلفاز بحجم ٢١ بوصة، يُعرَضُ على شاشته فيلم سينمائي مساء كل يوم أحد، كما كانت تحتوي على براد صغير الحجم في غرفة الجلوس وفوقه غطاء مشغول يدوياً بالإبرة، وورود بلاستيكية ورتل من الأفيال المصنوعة من خشب الصندل على الرف، وصور الزفاف ورائحة زيت القلي المنبعثة من المطبخ وقرع الطبول الذي لا نهاية له ليلاً نهاراً.

كنا مع ذلك، لا نزال نقطن في الشطر العاقل من شارع مول. كانت قاعة اليوبيل بجدرانها المبنية من الحجارة القرميدية الحمراء وممراتها الطويلة الصامتة تبدو وكأنها تبذل جهداً هائلاً للانفصال عن العالم الحقيقي. كان كل شيء غارقاً في غيبوبة ناجمة عن ساعات مُخدرة طويلة من الدراسة في جوّ حارّ يوماً بعد آخر. قاعة اليوبيل تلك، كانت تشبه مصنعاً يدرس فيه مائتا مقيم تقريباً للتحضير لامتحان التأهل لوظيفة حكومية، ينجح في اجتيازه وضمان وظيفة آمنة مدى الحياة من خلاله، ثلاثة أو أربعة على الأقل وأحياناً أكثر؛ بينما يتابع الآخرون التحضير من جديد معلّقين آمالهم على السنة التالية. بعض هؤلاء أضحى من المخضرمين في هذه الامتحانات، ولذا قرروا عدم المحاولة من جديد وعادوا إلى العمل في الزراعة.

أثناء نوبات الحراسة الليلية كان المطعم يضج بالحركة. كان النادل القزم الذي يعرف الجميع أن بقية العاملين في المطعم كانوا يلوطون به بشكل منتظم، يحضر أباريق الشاي والخبز الفرنسي المحمص إلى

Twitter: @alqareah

الزبائن الذين يجلسون على المروج العشبية. كنا نجلس على تلك المروج بألبستنا الفضفاضة التقليدية نسأل بعضنا أسئلة ويساعد بعضنا البعض الآخر بواسطة طرح أفكار مفيدة وملاحظات واستعارة كتب ووسائل إيضاح إلى أن يغلبنا النوم وكتبنا لا تزال مفتوحة. أحياناً تثور أعصاب أحدهم فيقذف بكتاب عبر الغرفة بكثير من القرف الفجائي، أو يتخذ قراراً فجائياً بحضور استعراض ليلي، أو يتم البدء بوصلة غنائية. شاهدت مرة نتاج عمل أسبوع كامل يُمزق أمام عينيّ ويُقذَفُ به صفحة تلو الأخرى في الليل عبر نافذة في الطابق الثاني.

أجهدت نفسي كثيراً خلال تلك الأسابيع القليلة الأخيرة، كنت أنام لسويعات قليلة وأستحم كثيراً. كان منظر الكتب يشعرني بالغثيان، وعندما اقترب يوم الامتحان، شعرت بأنني لم أتهيأ له بما فيه الكفاية؛ وأنه بالرغم من قضاء سنين من النية الجادة لتتويج هذا الجهد الكبير الذي بذلته، فقد تركته ينزلق من بين يديّ في النهاية. ومع تداعي هذه الثقة، بحثت في داخلي عن جهد خارق، عن شيء يدفع بي مرة واحدة وأخيرة إلى الأعلى ويأخذني قريباً من المرتبة الأولى متفوقاً على الستين ألفاً تقريباً من المتسابقين الآخرين.

استمرت الامتحانات عشرة أيام مرت، كما الحمّى تاركة إياي في غاية الإنهاك. بعد اليوم الأخير، وفي الساعة السابعة مساءً حين تلاشت تلك التلال عبر النافذة في عتمة الشتاء، نمت من دون حراك. أذكر أنني عندما استيقظت خرجت برفقة بعض الأصدقاء وكانت

Twitter: @alqareah

معنوياتنا مرتفعة كما في الأيام الخوالي. اشترينا بطاقات بأسعار السوق السوداء لحضور فيلم «عازف الكمان فوق السطح». اخترنا الجلوس في الشرفة ومددنا أرجلنا إلى الأمام؛ وكان حينها ينتابنا شعور غريب بالإثارة في كل مرة كان خيال امرأة ينزل باتجاه صف المقاعد المعتم. كادت هؤلاء النسوة يتعثَّرن بسيقاننا. بعد ذلك تناولنا البيض المسلوق والشاي من بائع قابع على قارعة الطريق أثناء انتظارنا للحافلة المسائية. وقفنا على درجات الحافلة بالرغم من أنها كانت فارغة من الركاب تقريباً وتركنا النسيمات الباردة تلفح وجوهنا. وعندما عدنا، أحسسنا بأننا في السابعة عشرة من سني أعمارنا من جديد وأن لا شيء في الكون يعني لنا شيئاً خلا ذلك. لم تشغلنا أي أفكار حول المنافسة أو الوظيفة أو حتى المناقشات المستمرة بشأن النساء في تلك الليلة.

أعلنت نتائج الامتحان للقبول في السلك الحكومي قبل سفري لقضاء العطلة. ذهبت إلى البناء ذي القبة العالية في شارع شاهجاهان. كان الليل قد هبط لتوّه، ولذا فقد صوّبَ أحدهم أنوار سيارته الأمامية في اتجاه الألواح السوداء المثبتة على الجدار التي علقت نتائج الامتحان عليها ضمن قوائم مكتوبة على أوراق بيضاء كبيرة. دققت بسرعة في تلك القوائم، ثم دققت فيها مرة أخرى بانتباه أكبر وقد انتابني إحساس متفاقم باليأس. لم يكن اسمي مدرجاً ضمن القوائم. قرر ذلك الرجل الكريم الذي أضاء أنوار سيارته الأمامية

Twitter: @alqareah

الرحيل؛ وفجأة خيم الظلام من جديد على تلك الساحة. أثناء حفل الاستقبال أضاء الحارس الليلي الأضواء وأعطاني نسخة من النتائج مربوطة بعضها بعض بواسطة رباط حذاء. كل ما حدث في تلك الليلة كان ضد ما أشتهي وأتمنى؛ وهكذا، وعند خروجي من ذلك المبنى تقيأت على جذع شجرة عجوز قرب موقف الحافلة وتحت الأضواء الخافتة لأكشاك بيع عصير الفواكه.

كان استطاعتي رؤية الخيبة على وجه والدي التي أخْفَتْها مشاعر القلق لديه. فهو نفسه قد خضع فيما مضى للامتحان نفسه، أليس كذلك، وضمن ظروف أصعب بكثير. بعد ثلاث سنوات من التقسيم، كان يجلس كلاجئ في سكن مؤقت، وسط ضجيج جمع من الأولاد وأعداد لا تحصى من الجيران، محاطاً بإحساس من الأسى والضياع. كان يغطي رأسه ببطانية ويدرس على ضوء النور الذي كان يتسلل من بين خيوطها العارية، ونجح في ذلك الامتحان. أما أنا، فبالرغم من كل الإيجابيات التي وفرها لي التعلم في جامعة دلهي، والمكتبات، والمدن الجامعية، وكل ما كان يلزمني من الوقت لتوفير سبل النجاح، فقد أضعت على نفسي تلك الفرصة، وعجزت عن القيام بعمل ما هو صحيح.

طلب مني المحاولة مرة أخرى، فلربما نجحت في الحصول على عمل في إحدى الوظائف المركزية الأدنى على الأقل. ربما نجحت في الحصول على وظيفة في قطاع السكك الحديدية أو في المحاسبة أو

Twitter: @alqareah

في مجال البريد والبرق، أو أي شيء يشعرني بالأمان الوظيفي والبعد عن المخاطرة، وظيفة تؤمن لي حرّاساً ومسكناً وراتباً تقاعدياً في نهاية المطاف. عندما أجبته بأن محاولة واحدة تكفي، وأنني سأجرب حظي في مجال القطاع الخاص، أشاح بوجهه عني رافضاً الأمر ومتمتماً بكلمات مررها وهو يأخذ شهيقاً وزفيراً حول الاستخدام والتسريح. كان هذا قبل ست عشرة سنة، لم يتصور أي منا وجود أشخاص سَفَلة من طراز باسو الذين ولدوا من رحم الحكومة التي كانت ملجأً لهم وملاذاً، والأفخاخ الخيانية التي نصبوها قبل ذلك في طريق القطاع الخاص.

قبل ست عشرة سنة، هيأت نفسي لكل تلك الاحتمالات: الإحساس بالنفور والهزيمة، وهذا التحدي الغريب لعالمهم ولحياتي. كان من السهولة بمكان أن تكون الأمور عكس ذلك.

-٤-

يقولون لي يا روحيني إنه يمكن أن نجد فعلياً أي شيء نريده على شبكة الإنترنت هذه الأيام. لكن هذا بمنتهى البساطة غير صحيح. فقد بحثت عن رقم هاتفك وعنوان بريدك الإلكتروني وعنوانك البريدي بكل الوسائل الممكنة، وحاولت في كل كتب دليل الهاتف وفي كل أعمدة البحث، ونزّلت قوائم العديد من الصفحات لأسماء الأشخاص الذين لهم اسم عائلة زوجك نفسه. إلا أنني لم أستطع أن

Twitter: @alqareah

أجد لك أثراً في أي مكان. كان في إمكانك تعليم غريتا غاربو شيئاً أو اثنين.

هل بحثت أنت عني أيضاً؟ بالمرة؟ أم أنك ما زلت غاضبة مني؟ وإذا كنت لا تشعرين بالغضب تجاهي، لماذا يبدو من الصعب أن يعثر الواحد منا على الآخر؟ هل كان ذلك بسبب أننا لم نبذل الجهد الكافي لذلك؟ ربما لم تكن لدينا القوة الكافية لنمتحن آمالنا، ولهذا فقد انتظرنا كنجمتين ضائعتين في فضاءات عاجزة ويائسة ومنفلشة، لكنهما تعرفان أنه لا بد أن تلتقيا مرة، كل عدة ملايين من السنين، أو أنهما على الأقل ستمر الواحدة منهما بجانب الأخرى. كان علينا الانتظار إلى أن تبدأ الأرض بالدوران، ولم تكن لدينا القدرة أو الرغبة في الاستعجال.

فجأة عندما شعرت بأمس الحاجة إليك، عندما بدأت الأشياء تتهاوى من حولي، بحثت عنك ووجدتك. مخابرة هاتفية عابرة، للاطمئنان عنك. كان كل ذلك ممكناً. أعطاني تشاك رقم هاتفك. كان في إمكاني طلب الرقم والتحدث إليك عشر مرات على الهاتف يومياً.

لكنني لم أتحدث إليك بعد، ولا حتى مرة واحدة. وأنت بدورك لم تبادري إلى الاتصال بي. لا توجد بيننا سوى الاتصالات عبر البريد الإلكتروني. هل نحن خائفان من أن نكتشف أننا تقدمنا في العمر، وأننا متعبان ومهزومان؟ هل نحن خائفان من اكتشاف ما أضعناه سوياً؟

Twitter: @alqareah

سيتحدث أحدنا إلى الآخر عندما تشاء لنا الأقدار. أفضل التحدث إليك من خلال رسائلنا؛ رسائلنا الخاصة الحميمية كما لو أنني أعيد التعرف إليك من جديد ببراءة مقصودة. ولن يعرف أحد أبداً بذلك سوى أنت إذا كان ذلك ما زال يثير مشاعرك؛ أو إذا لم تستطع كل تلك السنين أن تمحو كلياً ما كان يكنّه الواحد منا للآخر في الحر وتحت المطر، بجانب الجدار الطويل الذي كانت تتكسر عليه أمواج البحر وتمطرنا بذلك الرذاذ الأبيض الخفيف، من هناك حيث كنا في الصباح نستطيع رؤية الصخور البنية اللون التي ينحسر عنها المد البحري. أعرف أنك ما زلت تذكرين كل ذلك من خلال ذاكرة أقوى من ذاكرتي. كنت تعرفين بالضبط ماذا تريدين، وما كان يتوجب عليك القيام به، وما يجب عليك التخلي عنه مقابل الحصول على ما تريدين. أنا كنت أريد الحصول على كل شيء: النجاح والشهرة والحب والاحترام من دون أن أتخلى عن أي شيء في المقابل. كنت أنا من خذلك.

في رسائلي التي هي إجابات بريئة على رسائلك، والخالية من أي إحساس بالذنب، سوف أحاول أن أخبرك بكل شيء. سأحاول الاعتذار بطريقتي الخاصة، سأحاول إصلاح الأمور بيننا، سأحاول، إن سنحت الفرصة وتوفر الوقت، ممارسة علاقة حميمية معك مرة أخرى. وإذا لم يؤدِّ هذا إلى شيء حينئذ لن نخسر شيئاً. بالكاد سنخسر أي شيء.

بدأت رسائل روحيني بإنقاذ حياتي. كانت رسائلها حلفائي السريين

Twitter: @alqareah

ضد كل ما كان يقف في وجهي: مؤامرات باسو، واتصالات مينا المزعجة والليالي التي كنت أغرق فيها نفسي بالويسكي.

كانت هذه الرسائل تشكل دافعاً لي للذهاب إلى المكتب في الصباح الباكر، وكنت سعيداً بأنني أول الواصلين إلى المكتب. أحببت تلك الدقائق العشرين التي أختلي فيها بنفسي قبل أن يصل باسو وجوي وكل ذلك العالم الذي يحملانه في جيوبهما. هذه الدقائق العشرون كانت كأنها لحظات تأمل وكانت توازي راحة يوم كامل. كنت أخلع معطفي وأضعه فوق مسند الكرسي، وأشغّل الكومبيوتر وأغلي الماء لتحضير القهوة، بينما يبدأ الكومبيوتر بالتحميل.

كان الكومبيوتر يصبح جاهزاً بمجرد إدخال كلمة السر واسم المستخدم. أفتح على صفحة الرسائل. كانت عبارة «صباح الخير» الموضوع الاعتيادي لبريد روحيني الإلكتروني، ولم أكن أرغب في فتحه إلا بعد أن تصبح قهوتي جاهزة، وينضبط إيقاع أعصابي بعد الرشفة الأولى. كنت أمرّ بسرعة على الرسائل غير المهمة في بريدي مثل نشرة الأخبار والتساؤلات الروتينية عن هذه الأشياء أو تلك، وعن أخبار البورصة. وهناك أيضاً رسائل عدة من باسو يذيلها بإشارات تعجب باللون الأحمر. كان ينهي كل رسائله بإشارات تعجب حمراء كما لو أنه كان بالفطرة عاجزاً عن قول أي شيء ما لم يكن مهماً أو عاجلاً. كنت أتجاهل هذه الرسائل. كنت في حاجة إلى أكثر من رشفة من القهوة الطازجة للتعامل معها. لينتظر باسو، وليتعفّن.

Twitter: @alqareah

في صباح أحد تلك الأيام، ولجت إلى المكتب وكانت السماء تمطر. كان مطراً حزيناً نوعاً ما؛ ذلك أنه كان يهطل في غير موسمه؛ كان ذلك في أواخر شهر نيسان/أبريل. كانت رسالتها مقتضبة في ذلك الصباح ومكتوبة على عجل كما لو أن شيئاً آخر كان يشغل بالها.

مرحباً

عظيم أن نعاود الاتصال أحدنا الآخر من جديد، بعد كل تلك السنين وحدوث العديد من الأشياء فيما بعد، عظيم أن أرى اسمك على شاشة كومبيوتري، وأنا أعلم أن في استطاعتي إرسال رسالة لك وأنك ستستلمها مباشرة. الحمد لله على نعمة الإيميل. هل أنت حقاً مشغول في المكتب؟ أعني أن لقَبك الوظيفي يبدو مؤثراً. كنت السنة الماضية في بومباي لفترة وجيزة، هل ذهبت مرة أخرى إلى بومباي؟ شعرت بأنها كثيرة الازدحام، وبأن كل أبنيتها القديمة على الممشى البحري على وشك السقوط. أم أن كل هذه التهيؤات كانت بسبب أنني بدأت أتقدم في السن؟ سأكتب لك بتفاصيل أكثر فيما بعد. يجب عليّ الآن أن أمضي بسرعة...

كما دائماً.

رو.

كان اسمها بالنسبة إليّ دائماً هو رو، بالرغم من كل ما ألحقت بها من أذى. قالت إنها سوف تكتب بشكل أكثر تفصيلاً فيما بعد. حملت

Twitter: @alqareah

فنجان قهوتي وذهبت باتجاه النافذة. كان المطر ينهمر بغزارة أكثر في الخارج، وكانت أوراق الأشجار تحت نافذتي قد انقلب باطنها ظاهرها، وتحول لونها من الأخضر الغامق إلى الأخضر الفاتح بفعل الرياح القوية. سمعت صوت المصعد وهو يتجه إلى الأعلى. كان العالم قد بدأ بالوصول.

علمت أن جوي سوف تدخل، وأنها ترمي شعرها على كتفها الأيسر بتلك الطريقة اللامبالية والتي يفترض أن تدل على أناقتها المعهودة، معلّقة حقيبتها على كتفها، وهي تنفض ماء المطر عن مظلتها. سوف تراني وتشتهيني؛ ومن ثم، تدخل وتتسكع حول مكتبي لثوانٍ إضافية أخرى باحثة عن بعض الأوراق أو فنجان القهوة في الوقت الذي تحاول فيه قراءة ما هو مكتوب على شاشة كومبيوتري، من دون أن تظهر وكأنها تنظر فيها. أردت أن أقول لها إنّ ما ترينه يا جوي يمكن أن يكون قاسياً، ويمكن أن يسبب لك صداعاً يخرب مزاجك لبقية اليوم. بالإضافة إلى ذلك، حتى إن كان في استطاعتك قراءة الرسالة فإنك لن تستطيعي فهم الكثير منها. لن يكون في مقدورك حتى استيعاب مغزى تساؤل رو في ما إذا كنت قد سافرت إلى بومباي مرة أخرى.

كانت تريد أن تتأكد إذا كنت لا أزال أتذكر كيف حصل كل ذلك، أي تلك اللحظات القصيرة من السحر الذي استمر أربعة أشهر فقط والذي عشناه منذ أول لقاء بيننا حتى مغادرتي المفاجئة.

هيهات لن أنسى ذلك أبداً.

Twitter: @alqareah

- ٥ -

يصعد القطار باتجاه السحاب؛ يظهر وكأنه يتحرك على غير هدى بعيداً من السهول الواسعة في اتجاه أشجار أكثر ارتفاعاً نحو التلال. بدأت الظلمة تكسو وجه السماء، كما بدأت كتل هائلة من السحب الداكنة تزحف من أطرافها. هطلت حبّات قليلة من المطر بشكل مائل أولاً، ثم على شكل زخّات شديدة على الزجاج الأخضر الضبابي للنافذة في الوقت الذي كان فيه القطار ينعطف بهدوء وحذر. لم يعد في وسعي رؤية الأفق. لا بدّ أن السماء كانت تمطر بغزارة أكثر مما تبدو عليه.

أرى شخصاً يقود دراجته على الطريق المُلتوي، غير بعيد عن المنحدر العشبي الذي يتجه هبوطاً نحو خط القطار، وعلى كتفه مظلّة سوداء ممزقة. يصدر عن تلك المظلة صوت يشبه الخوار بفعل الريح وتتسبب بإبطاء حركته وهو يجاهد في قيادة دراجته الثقيلة بيده اليسرى. هناك أيضاً عدد من الأولاد ينظرون في اتجاه السماء رافعين أيديهم إلى الأعلى بمتعة في الوقت الذي تنهمر فيه حبات المطر فوق رؤوسهم وعلى صدورهم العارية. كم أرغب في أن أكون معهم واقفاً على حافّة البركة الطينية. أريد أن أمشي على الحافة المرتفعة الضيقة للقناة المائية التي تفصل بين حقلين من قصب السكر بقدمين عاريتين وجسد عارٍ. أريد أن أدع الماء يغسلني إلى أن أعود ولداً من

Twitter: @alqareah

جديد من دون عقل ومن دون تفكير، مطهراً من شوائب غبار ودخان وضباب سنين عديدة.

إني أتساءل يا روحيني عما كان يعنيه المطر لك طيلة هذه السنين. هل خطر في بالك أي شيء على الإطلاق وأنت ترقبين كيف تجمعت الغيوم، أو كيف تحول النهار فجأة إلى ظلام تحت الظلال الكثيفة للأشجار في حديقة منزلك عندما كانت تسقط حبات المطر من الأوراق العريضة الخضراء، مسببة سقوط الأوراق نفسها في الحديقة الخلفية قبل أوان سقوطها، أو كيف أصبح المقعد الخشبي تحت نافذة غرفة نومك رطباً وزَلِقاً، أو كيف تدلت ثم اضمحلت تلك الورود الحمراء الصغيرة في القدور الفخارية، التي كنت قد علّقتها على ذلك المقعد، أو كيف كانت أنوار مصابيح الشارع المهجور تنعكس على ماء البركة المتشكلة بفعل المطر، والماء يعلو ويهبط في الوقت الذي كانت حبات المطر تضرب سطحه، أو الازدحام المروري المتزايد بينما كان السائقون يقودون مركباتهم ببطء، أو التحذيرات المرورية التي كانت تبثها الإذاعة. هل فكرتِ حينئذٍ كما أفعل غالباً، في تلك الهطولات المطرية التي لم تكن تنتهي في ذلك الفصل الوحيد الذي قضيناه معاً من موسم الرياح الموسمية، وفي الأوقات المديدة التي كنا نستهلكها على مائدة الغداء بسبب تلك الأمطار، عندما تحدثنا وتبادلنا المزاح ووقعنا في الغرام؟

كانت الوظيفة الأولى التي أشغلها، وكانت أيضاً رحلتي الأولى التي

Twitter: @alqareah

استغرقت سبع عشرة ساعة من دون توقف إلى محطة بومباي المركزية للقطارات، على متن قطار راجدهاني السريع بعرباته ذات الكراسي الجديدة. كنت أشعر بالحماس؛ كان حماساً من النوع الذي لا أستطيع مجرد الادعاء بأنني قادر على الإحساس به هذه الأيام. لقد صدمتني بومباي منذ اليوم الأول ذاك. تعلمت، فما بعد، أن ذلك هو الطابع النمطي المميز لهذه المدينة الكبيرة المنفرة المحببة الكريهة الغريبة. أفقدتني هذه المدينة صوابي بغناها وحيويتها. شيء غامض فيها وجّهَ أحلامي الشبابية صوب معنى الحرية. أفهم الحرية الآن بشكل أفضل: شكل من أشكال الغربة المفرطة التي وفرت للناس فرصة أن يعيشوا جنباً إلى جنب كجيران في أبنية متداعية؛ جيران ذوي وجوه تآكلت نيئة بفعل ملوحة البحر، يقبعون خلف أبواب من شجر الجوز ولا يشعرون بالحاجة إلى أن يعرف الواحد منهم الآخر إلا من خلال تحية خاطفة، وهم في انتظار المصعد القديم وهو يهبط من البئر التي تتوسّط درج البناء الدائري. هذه المدينة سمحت لشخص نظيف بمعدة ممتلئة وهندام أنيق أن يمشي بضمير مرتاح بجانب أولاد مقعدين، يعشعش القمل في أجسادهم؛ بطونهم منتفخة وعيونهم زائغة بينما يقفون بأجسادهم الواهنة على جانب الطريق أو على الجسور المعدنية للقطارات المحلية. كان على نيني أن ترى هؤلاء الأولاد، ولو فعلت لما أطعمت كلبها الصغير المدلل إلى حد التخمة مرة أخرى.

نمت في سرير مستعار في الأيام الخمسة عشر الأولى في أحد

Twitter: @alqareah

بيوت الشباب. لا بد أن شريكي في الغرفة حينها واسمه واكانكار قد أصبح الآن ثرياً ومنغمساً في الكثير من الأعمال وناجحاً جداً بحيث لا يمكن أن ينتابه شعور بالضآلة والضياع اللذين أشعر بهما حالياً. كان حينها متدرباً في سلك الإدارة في شركة للدهان، إلا أن شغفه الأكبر كان سوق الأسهم. لم يخطئ سوى مرة واحدة بشأن سوق الأسهم خلال الخمسة عشر يوماً المذكورة. كانت صحيفة إيكونوميك تايمز تُدفع كل صباح تحت الباب محدثة صريراً نتيجة احتكاكها بأرض الغرفة الإسمنتي، وحاملة رسالتها اليومية عن الأرباح والخسائر. كانت كل القرارات تتخذ بحلول موعد الإفطار وكانت تُقدّمُ للسمسار نصائح حول ما يبيع ويشتري خلال النهار. ثم، وبعد أن يضع واكانكار هذه الساعة المحمومة وراء ظهره يمضي بقية يومه دون أن يهتم لأي شيء آخر، واضعاً يديه في جيوبه مدندناً بلحن موكيشي قديم. كنت أشعر نحوه دائماً بالإعجاب والحسد. في الواقع بدأت منذ ذلك الحين أشعر بالإعجاب والحسد تجاه الأشخاص الباردي الأعصاب واللامبالين والحاسمين في اتخاذ قراراتهم.

لم يكن ينتابني يوماً الإحساس باللامبالاة. كان الشخص الذي استعرت سريره سيعود من غوا خلال يومين وسوف أصبح من دون مأوى مرة أخرى. تابعت كل إعلان وكل معلومة طيلة الأسبوعين الماضيين. بحثت ابتداء من بندرا إلى كولابا وفتشت عن مكان على شاطئ البحر في مارين درايف و ورلي، وسألت في أعداد لا تحصى

Twitter: @alqareah

من الأبنية القديمة ذات الأبواب الخشبية القوية والمقابض المعدنية الضخمة من دون جدوى. بدا وكأن كل الغرف في العالم قد تم تأجيرها أو الوعد بتأجيرها. أما القليل من تلك الغرف التي كانت لا تزال متوفرة فقد كان غالياً جداً بالنسبة إليّ.

انتظرت. الآمال تزداد تارة، وتتلاشى تارة أخرى، مثل الحظوظ المتقلبة في سوق الأسهم التي تتخبط فيها واكانكار. كانت تداعب مخيلتي أحلام دائمة في أن أجد مكاناً في أحد بيوت الضيافة المأجورة تديره سيدة لطيفة لديها ابنة جميلة، وأقيم في غرفة ذات شرفة مطلة على البحر. كانت تلك الأحلام تتلاشى مع مضيّ كل يوم.

كانت هناك لحظة أمل حقيقي واحدة فقط تجلّت في شقة بالطابق الرابع من أحد المباني القاسية الملامح المطلة على البحر في مارين درايف. دعاني الرجل العجوز الطويل القامة الذي قام بفتح الباب للدخول إلى غرفة كانت تجلس فيها زوجته وابنته تحت ضوء خافت. كانتا تغوصان في أريكتين هائلتي الحجم ترتشفان بعض الشراب. كان هؤلاء الثلاثة وهم يجلسون في تلك الغرفة أشبه ما يكونون قد خرجوا للتو ولسبب غامض من لوحة رسم تكعيبي، حاملين معهم زواياهم الظليلة. شعرت وكأني ولجت إلى مشهد معَدّ سلفاً يكون فيه الثلاثة قد صبوا شرابهم في أقداحهم، وهم في انتظار أن أستدير في اتجاه اليسار في شارع تشيرش غيت، وأتابع نزولاً على الطريق، ثم أتوجه صعوداً نحو المصعد وأقرع الجرس. حالما بدؤوا بطرح أسئلتهم، بدوا

Twitter: @alqareah

جميعاً لي وكأنهم أعضاء في مجلس مقابلة تعيس، يحاول كل منهم أن يظهر على أنه أكثر ذكاء من الآخرين وأكثر مكراً وأدباً.

سألني الرجل العجوز بصوت أجش تسببت به عقود من التدخين: «هل تعرف أياً من المديرين في إدارة الشركة التي تعمل بها؟»

أما الزوجة فقد سألتني وهي تحمل كأس الشيري بمحاذاة طوق اللؤلؤ الذي ترتديه: «ماذا تحب أن تفعل في الليل؟ أعني هل تحب السهر حتى وقت متأخر؟»

قالت الابنة بحركة مسرحية وهي تلقي بإحدى ذراعيها الطويلتين على الأريكة، لكي تنفض البودرة عن لحاف الكلب على السجادة، «ما أرغب في معرفته هو ما إذا كنت مدمناً على الشراب».

لم تكن إجاباتي مرضية جداً، ومع ازدياد شعوري بالغثيان سألت نفسي ماذا أفعل هناك بحق الله. لقد كانوا أشباحاً ضَجِرةً وقعت واصطيدت في شبكة الزمن. أشعرني الضوء الخافت وكؤوس الكريستال والأثاث الخشبي المُلمّع وأولئك الأشخاص السورياليون الثلاثة بما يسمى رهاب الاحتجاز. استأذنت بالخروج، وخرجت بما يشبه الهرولة. لم أتوقف إلا عندما وصلت إلى الطريق المطل على البحر متوجهاً إلى محطة تشيرش غيت.

في إحدى الأمسيات، وكانت آخر أمسيات عيد الإله غانيش

Twitter: @alqareah

تشاثورثي، تبعت الجمهور المتوجه نحو شاطئ تشوباتي وهو يشق طريقه في اتجاه البحر المظلم المتثائب. كانت هناك غيمة بيضاء خفيفة تشبه بالوناً طويلاً تطفو فوق الأفق، قد بدأت بالتحرك في اتجاه القمر. وعلى الشاطئ كانت شاحنات وتركتورات مضاءة ومزينة بألوان زاهية متوقفة على الرمال موجهة الأنوار العريضة لمصابيحها صوب البحر. كانت جموع الناس تحتشد من حولي وعلى الشاحنات وفي الماء. كانت تلك جموعاً من كل الفصائل: أشخاص يغنون ويرقصون، وأشخاص متعبون أو نائمون أو سكارى مستلقون على الرمال، وآخرون نزلوا إلى الماء. جلبت كل مجموعة من هؤلاء تمثال غاناباتي الخاص بها وهي تغمر نفسها بالماء. بسرعة غمرت المياه جسومهم حتى مستوى الخصر، ثم وصلت إلى مستوى أكتافهم وأخيراً إلى أعناقهم. شاهدت رؤوسهم تتراقص فوق المياه مشكلة ظلالاً سبّبتها أنوار مصابيح الشاحنات. بعد ذلك مُدّدَ التمثال بشكل أفقي ودفع بقوة إلى مياه البحر. لقد تطلب الأمر ثلاث مُثَقّلات قبل أن ينجحوا في دفعه في اتجاه قاع البحر، حيث يتحلل ببطء مثل الآلاف الأخرى من التماثيل المشابهة في تلك الليلة، وهم يصدحون بأناشيد غاناباتي بابا موريا. رأيت تمثالاً هائلاً لغاناباتي يصل ارتفاعه إلى أكثر من مائة وخمسين قدماً. أُحضرت رافعة خصيصاً لرفع التمثال من الرصيف إلى الشاحنة ومن ثم إسقاطه في الماء. كما تمت عملية دحرجة تمثال آخر أقل حجماً بألوانه الفوسفورية الوردية التي كانت

Twitter: @alqareah

تلمع بفعل انعكاس أنوار المصابيح الأمامية للسيارات عليها، بواسطة سكة خاصة في اتجاه الماء تماماً كما يفعلون عند إنزال السفينة إلى الماء. في الوقت الذي بدأت فيه العودة أدراجي ببطء، كانت ورائي جموع من الناس الثملين والهادئين بشكل يثير الاستغراب في مدينة صاخبة كبيرة، تسد شوارع المدينة في انتظار دورهم للوصول إلى الماء وإلقاء آلهتهم الخاصة، آلهة القرى وآلهة التجمعات والبلدات وآلهة الطرقات لتستقر في قعر البحر العربي. وكانت تلك الغيمة التي لها شكل البالون قد جاورت القمر تقريباً.

ما كنت لأجد غرفة في بومباي لو لم ألتقِ تشاك في تلك الليلة. فقد ضربني على ظهري بقوة بينما كنت أبتعد عن التماثيل المتوضعة على شاطئ البحر. آخر مرة رأيته فيها كانت قبل ثلاث سنوات، أي منذ أيام دراستنا الجامعية الأولى في نزل الشباب ذاك حين كان يقضي وقته نائماً في غرفة صغيرة ذات حرارة مرتفعة، ببلوزته البيضاء ذات الأكمام القصيرة، وسرواله القصير القطني من نوع الدنيم. كان يستيقظ في الليل ويقفز من على الحائط القرميدي لبركة السباحة ويسبح أشواطاً عدة في المياه الفاترة تحت ضوء القمر. كانت أناقة قميصه، وبنطاله الرسمي الأسود، ونظارته المعدنية الرفيعة بالإضافة إلى لمسة من الرقي الهادئ على ملامحه، تدل بشكل واضح أن أحواله تسير بشكل مُرضٍ.

عثرنا على طاولة في الطابق الأول من مطعم مزدحم ذي سقف

Twitter: @alqareah

عالٍ، ومراوح قديمة الطراز تدور بكسل من خلال أذرعٍ متدلية من السقف. حيّا النادل تشاك بطريقة تدل على معرفة جيدة به؛ وبينما كان ينظف الطاولة لاحظت أن في يده ستّ أصابع. قام بعدها بوضع قطعة القماش على كتفه وقفل مغادراً قبل أن يقوم تشاك بالكاد بطلب «زجاجتي بيرة ذات نسبة كحول مرتفعة».

«بيرة قوية؟»

«نعم إنها تدعى بيرة ٢٠٠. مذاق جيد ونسبة الكحول فيها مضاعفة».

كنا نحتسي البيرة في الوقت الذي بدأ المطعم يعج أكثر بالناس، منهم المتسكعون، ومنهم العائدون إلى منازلهم من أعمالهم، ومنهم أيضاً الذين يواعدون أشخاصاً آخرين. أعجبتني حقيقة أن كل طاولة كانت عالماً قائماً بذاته، وأن الناس على كل طاولة يتحدثون كما لو أن المكان فارغٌ إلا منهم. ذكرني هذا المكان أيضاً بكافيتيريا الجامعة وأحاديثي مع تشاك التي نسيت تقريباً فحواها. تحدثنا عن كل شيء، ونحن نمخر عباب السنين الماضية.

في الخارج كان الليل لطيفاً ومريحاً. كانت الحافلات ذات الطابقين تتهادى في اتجاهنا. قمنا بالقفز داخل إحداها بينما كانت تقوم بانعطاف منفرج حول نافورة فلورا. جلسنا في الطابق العلوي من

Twitter: @alqareah

الحافلة التي كانت شبه فارغة في ذلك الهزيع من الليل، وكان الهواء يعبق برائحة البحر والورود.

«أدعوك للانضمام إلينا في سنشاين تيراس. أنا متأكد أن دَكي لا يمانع وجود شخص ثالث، كما أننا في حاجة إلى سيولة نقدية».

«سنشاين تيرس؟»

«نعم، سنشاين تيرس. تخيل ذلك! تخيل فقط للحظة، الريفيرا الفرنسية. نور الشمس على الشرفة. طاولات صغيرة عليها كؤوس طويلة، ومظلات متعددة الألوان، والرذاذ المتطاير من القوارب الشراعية ورائحة البحر، وبين الفينة والفينة، لحظات من الرومنسية، إنه المكان الذي يمكنك فيه الاسترخاء بكسل ولا مبالاة: هي الحياة بأكثر أشكالها عقماً، وأجلى صورها كسلاً».

في نهاية المطاف، كان الأمر قد تم بمثل هذه السهولة. شعرت بالسعادة لأن الليل يخيم بسواده علينا ومن حولنا. فعلى شاطئ البحر، كانت آخر التماثيل تُدفع في اتجاه حافة الماء، وعما قريب ستخلد المدينة إلى النوم الذي سيغلف ولبضع ساعات مليوناً من الصراعات التعيسة الصغيرة.

أتساءل إذا كانت منطقة سنشاين تيرس لا تزال موجودة حتى الآن. من المفروض أنهم قاموا بهدمها قبل سنوات لأسباب أمنية وأخلاقية.

Twitter: @alqareah

لكن في تلك الأيام، بالنسبة إلينا، تشاك ودكي وأنا، بالإضافة إلى حوالي خمسمائة أو أكثر من سكان بومباي الذين كانوا يعيشون في غرفه الضيقة على امتداد طوابق ستة في أبنية تحيط بساحة كبيرة فارغة، كانت تلك المنطقة وطناً.

كي نصل إلى الغرفة رقم إف ١٦ في الطابق السادس، كان لا بد أن نصعد على الدرج الخشبي الذي تآكل بفعل النمل الأبيض؛ وبالتالي فقد كان يصدر صريراً مع كل خطوة نخطوها فوقه. كنا نحاذر أن ندوس على الأجزاء الضعيفة من عتباته. وبعد ذلك كنا نجتاز غرفاً ملأى بالأولاد الكثيري الضجيج والأمهات المنهكات القوى، وأجهزة التلفاز بأصواتها المرتفعة، وأجهزة المذياع بأصواتها المشوشة، وروائح زيت القلي المحروق. لكن الإثارة الأكبر كانت تتركز حول الساحة الفارغة التي تضج بأصوات الأولاد الذين يملؤون المكان صياحاً وهتافاً. وكان بعض هؤلاء الأولاد صغيراً جداً إلى درجة أنه كان عليهم أن يتمسكوا جيداً بعضهم ببعض كي لا يقعوا من فوق الدرابزون أو على الدلاء المربوطة إلى حبال طويلة باتجاه الساحة. كانت تلك الدلاء تئز وتتأرجح وهي في طريقها إلى الأسفل، حيث يقف الإخوة والأخوات الأكبر سناً والذين يشكلون فريقاً لملء هذه الدلاء من خزان الماء الموجود في الساحة. كانوا يصبون بمتعة كؤوس الماء الثمين في تلك الدلاء. بعد ذلك يُنادى على الآباء المنهكين الذين تنضح ملابسهم بالعرق لسحب تلك الدلاء. في كل مرة كان فيها الدلو يتأرجح فوق

Twitter: @alqareah

الدرابزون مسبباً تطاير قطرات من الماء من داخله، كانت تعلو صراخات الأولاد ويبتدؤون رقصة نصر صغيرة، وهم يمدون ألسنتهم لمجموعة أخرى من الأولاد عبر الساحة. كان ذلك شكلاً لطيفاً من أشكال الاستجمام كأفضل ما يكون، وأكثرها براءة.

بعد أن نلج إلى الغرفة إف ١٦، يصبح العالم كله خارجاً ومنسياً. تسود أجواء الغرفة نقاشات عميقة، وتحاليل مضنية للذات، وحكايات عن حب فاشل. كان ذكي المرشد الروحي للمجموعة، وكان يشرح لنا كل ما تعلمه من بيتر دراكار الذي كان يبتسم موافقاً من على رف الكتب. هنا، وبينما تئز وتتأرجح دلاء الماء في الخارج، كانت إمبراطوريات الأعمال تبنى في أحلامنا. كان التدرب على مسرحية السلطة يتم على رقع مشتركة من الشطرنج كنت أضيف إليها جزءاً من حصتي اليومية كموظف تحت التجربة يعمل في قسم الموارد البشرية في سلسلة فنادق ذات نجوم خمس.

كان هناك سريران وأريكة واحدة. وكان هناك جدول يبين الأيام التي نتداول فيها الأريكة في نصف الغرفة أو ما كان ذكي يطلق عليها وصف الطرف الغائطي. كان من الممكن تجنب النوم على تلك الأريكة الضيقة بنوابضها المعدنية غير المستوية بشرط واحد فقط، مدون على الجدول بقلم حبر أخضر إزاء الإشارة الشهيرة:

* إذا استقبل أي من نزلاء الغرفة صديقة ذات سمعة حسنة،

Twitter: @alqareah

سوف تكون له الأولوية في استخدام غرفة النوم. وقد تم الاتفاق على أن لا تتجاوز هذه الزيارات الاثنتين في الشهر الواحد.

لم يتسنَّ لي استخدام هذه الميزة قطُّ.

كانت أمسيات يوم الجمعة يقرر كيفية قضائها ما اصطلحنا على تسميته رَجُلُ النرد. كان هذا هو الاتفاق الذي توصلنا إليه لحل الخلافات الأبدية حول ما سنفعله ليلة الجمعة. كنا نقوم برمي مكعب النرد، وكان الشخص الذي يحقق أعلى رقم أي رجل النرد، هو من يقرر كيف سيتم قضاء الليلة وعلى الشخصين الآخرين الموافقة. كان رجل النرد يقرر إذا كنا سنتناول عشاءنا في مطعم بنجابي صغير يقدم وجبات سريعة للمسافرين على زاوية الشارع، مكونة من الخبز الهندي والبطاطا المسلوقة والطبق الملوكي المصنوع من الحليب المخثر والمنزوع الدسم، أو في مطعم في منطقة بارسي الصغيرة يدعى مطعم الجنة، أن يقدم البيتزا والسندويش ومثلجات بطعم الفاكهة مصنعة منزلياً. في الليالي الأخرى، كان رجل النرد يأمرنا بالمشي في اتجاه البحر تحت ضوء القمر والولوج فيه إلى أن تغمرنا المياه حتى مستوى أعناقنا، أو الركوب في سيارة أجرة إلى منطقة الأضواء الحمراء حيث نفتعل هناك مشاجرة ونعود بعدها إلى الغرفة وبصحبتنا ساقطة رخيصة الأجر، أو الحديث عن أكثر خطايانا سرية، أو الاعتراف بأسوأ الكذبات التي تفوهنا بها. كانت أوامر رجل النرد مطاعة.

Twitter: @alqareah

كان الأمر متقناً ومسلياً. ولكن كيف كان في إمكاني أن أشرح ذلك كله لجوي التي تنحني محاولة قراءة الرسالة الإلكترونية المرسلة لي من روحيني؟

-٦-

لم أتحدث إلى مينا عنك قط يا رو. لم أحدثها عنك أبداً بالرغم من أن رغبة كانت قد انتابتني أحياناً لكي أقوم بذلك. ولكنني قررت قبل أمد بعيد أنني لن أقوم بذلك، ذلك لأنك قطعة خام طازجة ولا يجوز أن تتحولي إلى مادة للحديث. لا أدري إن كنت أخبرت زوجك بشأني؛ وإن كنت فعلت ذلك فإلى أي مدى؟ إذا قدر لنا أن نلتقي مثلاً، هل سيمد يده لمصافحتي ويرحب بي في منزله ويتناول معي كأساً ويجلس معنا على الطاولة ويراقبنا ونحن نحدق أحدنا في الآخر ونتبادل الابتسامات والنظرات التي لها دلالات لكلينا فقط؟

لم أكن لأستطيع أن أجر نفسي لإخبار مينا عنك وعن ضحكتك التي كانت أول ما شدني إليك في تلك الغرفة في باندرا عشية رأس السنة. كنت محاطة برجال غرباء داكني البشرة أنيقي المظهر باحثين عن مدخل إلى الدائرة السحرية التي رسمتها ضحكتك؛ كم كانت ضحكتك جميلة ومنطلقة! لقد جعلت الجميع، بمن فيهم أنا، يشعر بأنه إذا استطاع إضحاكك فإن في إمكانه تحقيق كل ما في الحياة من تيهٍ لا مبالٍ وممتع.

Twitter: @alqareah

خلال دقائق، استطعت أن أخطفك من ذلك الجمع من الصحفيين، ومديري الإعلانات التنفيذيين، والمتدربين الشباب في حقل الإدارة. لم نكن نشعر بوجودهم وهم يتحلقون حول طاولة تغص بزجاجات الجعة والصحون المليئة برقائق البطاطا، وذلك الصحن البيضوي المليء بحبات الفطر الصغيرة والمعجنات المحشوة باللحم والسمك وصلصة الكريما. كنا، ونحن في تلك الحال من التماهي المفاجئ بيننا، بالكاد نشعر بوجود الآخرين الذين تهالكوا على الفرش والوسائد المرمية في الزوايا، أو بالرجال العاطفيين الذين يتحدثون بهدوء مع نساء ذوات عيون سوداء وشعورٍ طويلة، أو بزوجين يرقصان على أنغام فانكي تاون.

وأنت تديرين ظهرك للنافذة المفتوحة، رمقتِ ذلك الرجل الذي دعاك إلى الحفل بتلك النظرة المهيبة التي أشعرته أنه غير مثير لاهتمامك؛ أما ذلك الولد الذي كان بديناً قبل خمس سنوات وما زال ممتلئ البنية حتى الآن، والذي حصل على وظيفة جيدةٍ مؤخراً، فقد تحطمت آماله كلياً لأن من الواضح أنك تعرفينه بما يكفي كي لا تشعري بأي انجذاب تجاهه. من المحتمل أنكما لعبتما لعبة «الاستغماية»، أو لعبة اللوحة المسطحة ذات الحفر الأربع على جوانبها، أو ورق الشدة في مرحلة الطفولة أثناء العطل الصيفية، وربما كان يعدُّ نفسه أنه شخص يُؤمن جانبه كرفيق أثناء السباحة أو كمرافق لك إلى حفلات كهذه الحفلة. من الممكن أن يقلّك إلى منزلك في

Twitter: @alqareah

سيارته المستعملة من دون أن تكون لديه الجرأة للقيام بأي شيء في الطريق. تخليتِ عنه، ولامست شفتاك الضاحكتان أخيراً النبيذ الأحمر. وعندما كنا نرقص سوياً أبقيت شعرك الطويل السابل بعيداً عن وجهك بواسطة تلك الحركات اللطيفة والحازمة في الوقت نفسه من رأسك، وكنت تتحركين بمهابة على أطراف قدميك. هل رأيتُه آنذاك، أم أنني فقط تخيلته تحت ذلك الضوء الدوار: ذلك الظل حول عينيك، تلك الجدية المفاجئة العَرَضية التي وضعت علامة استفهام حول ضحكتك ثم اختفت وضاعت. منحتك غموضاً اصطادني فيما بعد. وفي الوقت الذي رميت فيه بنفسي على كرسيّ بجانبك وجففت نصف زجاجة جعة، أدركت أنني وقعت في الحب.

ابتسم بيني وبين نفسي عندما أتذكر ضحكتك، وأتجه بوجهي نحو نافذة هذا القطار. هذه ابتسامة مقدسة؛ إنها سرّ. فهي تخرج من أماكن دافئة في قلبي، من زوايا مضيئة لم يغزُها التعب أو المرارة. لا أريد أن يشاركني فيها أحد، وأنا أنتظر كي تبدأ بالتلاشي وينطفئ ذلك الوهج في داخلي. تجاوزنا المطر الآن، لكن قطرات من الماء ما زالت تتمسك بقضبان النافذة، ونور الشمس بدأ يتغلغل من بين ثنايا الغيوم بكميات كبيرة.

«لا شيء كامل في هذا العالم، ولا حتى ضحكتك».

بقيت صامتة لمدة دقيقة ثم أعطتني تلك النظرة المتمعنة الفاحصة. حدقت فيها بدوري ممارساً اللعبة نفسها.

Twitter: @alqareah

«هل أنت شخص حكيم؟»

«نوعاً ما».

«هذا سطر مفيد في الحقيقة. السطر الذي يشير إلى أن لا شيء كامل... ربما كان في الإمكان استعارته».

«استعيريه، أرجوك. مع تحياتي. أهديه إلى غموض ابتسامتك والحيوية المنبثقة من عينيك».

«لن تشعر بالعظمة عندما تعرف كيف سأستخدمه. لا شيء كامل، ولا حتى صباغ حذائك... أو شيء من هذا القبيل».

«هل تكتبين مخطوطاً؟»

«أدب. لكن الآن ، سوف أسمح ببيعه كمخطوط».

«ومتى يصبح أدباً؟»

«عندما أشعر بالملل من تسمية صباغ الأظافر الموحل وغير المثير للإلهام سحابة القهوة. ومن اليوم فصاعداً، أنا أستمتع به».

«أحبكِ».

«أحب اللبن».

«صدقيني، لست مخموراً. هل توافقين على مقابلتي غداً؟ أو تناول

Twitter: @alqareah

الغداء معي، أو تناول العشاء معي، أو المشي بجانبي على شاطئ البحر؟»

«غداً أيها المتحاذق، هو السنة المقبلة. لا أعتقد أن هذا بعيد جداً. اتصل بي السنة المقبلة».

في الصباح، استطعت انتشال رقم هاتفها من بين ثنايا وجع الرأس الخفيف والإحساس بالغثيان المرافقين دائماً لصبيحة رأس السنة. كان صوتها واضحاً وعذباً وجاهزاً للحديث.

«عيد رأس سنة سعيد».

«يا إلهي!».

«كما اتفقنا».

«ظننت أنك جزء من سنة فائتة بغيضة وأنك اختفيت معها».

«أمسكي بي».

«أظن أنك تريد دعوتي لتناول العشاء».

«كيف استنتجت ذلك؟»

«أعرف أمثالك. والجواب هو لا».

«بربكِ».

Twitter: @alqareah

«لكن الغداء يناسبني، هذا إذا كنت قادراً على النهوض من السرير بعد كل تلك الجعة التي شربتها».

رميت البطانية الخفيفة بعيداً. اعتدلت في جلوسي، وكدت أقع من على السرير. كان حظي أن أكون في الطرف السيئ من اليوم الأول في السنة الجديدة.

«أنا خارج السرير».

«وكأني أصدقك».

اختارت روحيني مكان اللقاء. كان في كافيتيريا ملحقة بأحد المسارح. نادراً ما كنت أذهب إلى ذلك المكان لأنني شعرت بالغرابة وأنا في سترتي الرسمية بين الجمهور المعتاد لذلك المكان والذي كان أفراده يتسكعون دوماً هناك، يحتسون القهوة أثناء الاستراحة بين بروفة وأخرى وبين وظيفة وأخرى، وبين زواج وآخر.

قالت روحيني: «لا يعني اختيار هذا المكان أنني أنتمي إلى الوسط الفني».، وأضافت: «إنه واحد من الأمكنة القليلة التي يمكن فيها لفتاة أن تجلس بمفردها. حتى ناسخة المخطوطات لها الحق ببضعة أقدام مربعة من ضوء الشمس، بالرغم من أنها لا تهدر فُرَصها عن طريق الاشتراك في هذه المساحة مع أشخاص يكوّنون أنفسهم مثلك».

«لستِ من ذلك النوع من الأشخاص الذين ينتهي بهم المطاف للجلوس وحدهم في أي مكان».

Twitter: @alqareah

كانت روحيني تلبس كنزة كريمية اللون وبنطالاً مثنياً مناسباً للكنزة. وكانت تضع حول عنقها دثاراً نبيذي اللون منسوجاً بطريقة أنيقة. وبينما كنت أراقبها وهي تنظر في لائحة الطعام، وقع بصري على ملامح الحزن حول عينيها. لم تبدُ أي علامات حزن في الطريقة التي كانت تتكلم بها، بل المزاح والضحك. كان قلبي يرقص لمجرد سماعها وهي تتكلم.

«أراهن أن في استطاعتي الانتهاء من ذلك قبل أن يحضروا لنا طبق السلطة البارد. تريد معرفة كل شيء عني. لا تنكر ذلك، فأنا أستطيع قراءة رغبتك هذه على تعابير وجهك. تريد أن تعرف مكونات هذه المرأة الساحرة، المرأة التي لم تلتقِ مثيلاً لها من قبل، أو هذا ما سوف تقوله لي في أي لحظة الآن. حسنٌ. إليك ما تريد أن تعرف: والدي وهو محامٍ مشهور، تخلى عني للأبد بعد أن أخبرته بأنني لن أرتدي الرداء الأسود أبداً. والدتي ماتت قبل اثنتي عشرة سنة؛ لدي أخت واحدة، وكلب واحد وبضع قطط. الاختصاص: ناسخة مخطوطات؛ الطموحات: أن أصبح كاتبة رواية نسائية بأظافر طويلة مطلية تظهر صورها في مجلة تايم مقابل جلد نمر؛ التصميم: غير موجود؛ الشيء المفضل: حلويات ساخنة برتقالية اللون مع الفانيلا والآيس كريم. أعتقد أن هذا كافٍ كبداية. وكما تلاحظ، فأنا أعمل على قاعدة الحاجة إلى المعرفة».

«تفوقتِ على طبق السلطة البارد. أظن أن ليس في استطاعتي

Twitter: @alqareah

إخبارك تماماً عن نفسي بالسرعة ذاتها. ربما كنت معقداً قليلاً بالمقارنة».

«ياإلهي. هو ليس فقط متطلباً، بل هو معقّد أيضاً».

لكنني أردت أن أخبرها بكل شيء عني حالاً. أن أبوح لها بكل الأفكار غير المنضبطة التي اعتملت في رأسي مساء البارحة، الأفكار التي لها طراوة رائحة المطر خارج نافذتي، وبكل الأخطاء التي ارتكبتها، وبكل نُتَف الجَمال التي رأيتها في حياتي.

بعد أن انتهينا من تناول الغداء عبرت لها عن رغبتي في لقياها ثانية. قلبت شفتيها بتجهم متردد، ثم أومأت بالموافقة. في كل مرة التقيتها، كنت أنتظر بقلق وتوتر غريبين اللحظة التي سنتفق فيها على موعد ومكان اللقاء التالي: في المطعم وسط تلك الخضرة الباردة للنباتات المزروعة في قدور فخارية، أو في الطابق الثاني في حافلة من طابقين، أو على عتبات معارض رسم في الهواء الطلق. لم أتحدث في حياتي بمثل هذه السهولة. كانت روحيني تصغي إلي؛ وتنبهت إلى أنها كانت تقوم بتشريح شخصيتي ليس بطريقة عدائية أو تعاطفية، بل بمزيج غريب من الصدق والأمانة. جلسنا بعد ظهر أحد أيام السبت لوقت طويل بعد تناول الغداء في مطعم هادئ قديم قِدَمَ العالم نفسه، حيث لم يكن أي شخص فيه يبدو على عجلة من أمره. كان وهج الشمس ساطعاً جداً في الخارج. كان نادلو المطعم المتقدمون في

Twitter: @alqareah

السن بأحذيتهم المصنوعة من القنب وسراويلهم البيضاء وربطات أعناقهم الحمراء الرفيعة يتجمعون حول البيانو في الظل. وعلى منديل ورقي، خربشت:

أفرغ جيوبي المليئة بكل ماهو يوميٌّ

وأنت تمسكين بكل نُتفة مما أفرغه

وترفعينها صوب الشمس.

لم تقل شيئاً، لكنها أغمضت عينيها بطريقتها الخاصة ووضعت المنديل في كتاب كان في حوزتها، ثم، ومن دون أن تضحك، وضعت الكتاب في حقيبتها. لم تنبس ببنت شفة. أضحت الصفقة بيننا واضحة بالنسبة إليّ. كان الواحد منّا يهتم للآخر من دون أن يُظهر ذلك. كان علينا أن نغلّف حبنا بالمزاح والقصص المضحكة؛ وإن حدث وآذى أحدنا الآخر، ما كان ذلك ليعني شيئاً. الكثير الكثير من الناس أحبوا بعضهم بعضاً بجدية ووعي. لكننا قررنا أننا لن نكون مثل أيّ عاشقيْن.

«هيا، سأعرفك الليلة على عزيزتي بومباي». ربتت روحيني بيدها على مرفقي وهي تنطلق على الرصيف حالما خرجنا من قاعة السينما. كان يلمع في عينيها ذلك النوع من البريق الجامح؛ وكان في مشيتها المتغضنة وعدٌ. خطت بخفة فوق برك المطر الصغيرة التي كانت تعكس الألوان الحمراء والخضراء والصفراء لأضواء النيون، وكان

Twitter: @alqareah

عليّ أن أمشي بخطى واسعة إضافية كي أكون في موازاتها. ولجنا إلى معرض في القاعة البيضوية الكبيرة.

ارتفع الدولاب الحديدي العملاق إلى مستوى أعلى من الأضواء باتجاه السماء. رأيت النجوم الخافتة بعيدة جداً، وبشكل تلقائي، وجدتني أحيط كتفها بذراعي. وعندما وصلنا إلى أعلى نقطة في الدوران إلى الأعلى وبدأنا بالهبوط، بدأت بالصراخ ووضعت يدها على معدتها بإحكام. سحبتها في اتجاهي بينما كانت أضواء مدينة الألعاب تعلو كي تقابلنا. مشينا بعد ذلك بشكل غير متوازن حول مدينة الألعاب. كانت عيناها تومضان وهي تضع زجاجة بطعم الحليب برفق على شفتيها، ورشفت من الزجاجة بمتعة وسهولة وسلاسة.

استدارت فجأة.

«هيا بنا لتناول بعض الطعام. فأنا أتضوّر جوعاً. وفي هذه الليلة لن نتناول أياً من الوجبات التقليدية التي تطلبها عادة. سوف نأكل على ذوقي».

ما أرادت تناوله هو الخبز المترافق مع خليط من الخضروات المطحونة المخلوطة بالفلفل بعد سلقها وقليها بالزبدة من أحد الأكشاك المزدحمة مقابل محطة فيكتوريا المنارة بأضواء خافتة. كان الخليط مقلياً بقطع وفيرة من الزبدة؛ أما الصلصة فكانت مشبعة بالزبدة المذابة.

Twitter: @alqareah

انتقلت بعد ذلك إلى كشك آخر يحوي أربعة من الأباريق الخزفية الضخمة مكللة بورود القطيفة الملفوفة حول أعناقها. كانت بذور الكومين المطحونة حارة إلى درجة أنها حرقت حلقينا وجعلت الدموع تطفر من أعيننا.

«والآن ماذا؟» سألتها، وأنا أركض وراءها شاقاً طريقي عبر ذلك الجمع المسائي، وفي ظلال الأبنية القديمة بأبراجها وأقواسها، وعبر أنفاق مخصصة للمشاة بجدرانها المكسوة بالآجر الأبيض وأنوارها الزرقاء، ومن ثم، إلى مارين درايف والبحر المظلم وراء كل ذلك.

«سوف نركب في عربة فيكتوريا. لكننا أولاً سنتناول أوراق البيتل المحشوة باليانسون».

كانت هذه الأوراق مغمسة بمحلول مركز أحمر دَبِق، ومحشوة بشرائح جوز الهند التي ذابت في أفواهنا عندما وصلنا إلى موقف عربة فيكتوريا عند إشارات المرور. كانت عربة جميلة ذات مصابيح نحاسية ولها مساند أذرع منقوشة، وكان يجرها حصان أسود كبير تتدلى من أذنيه خيطان مفتولة. خفّ ازدحام حركة المرور فكان الحصان يجري بسرعة وهو يتجاوز تلك الأبنية المتهالكة بفعل الطقس، كما مررنا بمنصة الفرقة الموسيقية التي تعزف في الهواء الطلق؛ وبالشاطئ الصغير المنتشرة فيه بقايا قشور جوز الهند، وبساهري آخر الليل من رواد المهرجان. أضحى الطريق خلف الشاطئ

Twitter: @alqareah

خالياً فجأة، إلا من شيءٍ مستلقٍ وسط ذلك الطريق. خفف الحصان سرعته ثم توقف.

«إنها جثة».. قالت روحيني بصوت محايد، وخالٍ من الانفعال.

قفزت خارج العربة. لم تتحرك روحيني.

أمعنت النظر في الجثة. فجأة، أعطت الجثة إشارة حياة لا لبس فيها؛ وكانت تلك شخيراً عالياً.

«اللعنة، إنه ليس ميتاً. هو مخمور فقط».

قلبت الرجل من كتفيه. «هيه! إني أعرفه. إنه الشخص الذي يلمّع الأحذية مقابل تشيرش غيت.

لمّع لي حذائي في الأمس. تخيلي ذلك! في هذه المدينة الكبيرة. يا لها من مصادفة».

لكن روحيني لم تكن تصغي إلى ما قلت. كانت تجلس على حافة الرصيف الآن، وجهها شاحب وكتفاها ترتعشان وهما تتكوّران في اتجاه ركبتيها، وأصابعها في شعرها. رفعتها من كتفيها برفق، فوقفت وهي تبكي.

«لا بأس». قلت لها؛ «إنه ليس ميتاً».

«ولكن هناك الكثيرون ممن يموتون طوال الوقت. أكره الموت. دعنا نذهب من هنا».

Twitter: @alqareah

صعدنا إلى عربة فيكتوريا من جديد وبينما بدأ الحصان بالتحرك، أرخت برأسها على كتفي حتى أحسست برطوبة خديها المبللين على عنقي.

«منذ أن ماتت والدتي وأنا أشعر بالخوف. كنت فقط في العاشرة. رأيتها عندما أعادوها بالسيارة من المستشفى. لا أريد أن أرى شخصاً ميتاً مرة أخرى».

ضممتها بقوة. لا يجوز لشخص يضحك مثلها أن يبكي. سوف أعمل على ذلك، وللأبد. انحنيت نحوها وقبلت خديها المبللين بالدموع. بعد ذلك، رمت برأسها إلى الوراء على حافة المقعد وتركتني أقبلها على شفتيها بينما كانت العربة تسير بنا إلى حيث تماهت اليابسة بماء بحر منتصف الليل.

-٧-

بعد كل هذه السنين؛ وبعد أن تآكلت تلك الزوائد في رأسي، وقمت بالبوح بمكنونات صدري التي كنت أخفيها عن نفسي، أصبح من البساطة بمكان إظهار الحقيقة كاملة. أنا خنت رو. تركتها لأن والدي رفض أن يوافق على زواجي منها؛ فهي ليست من الطائفة الاجتماعية المناسبة. بالإضافة إلى ذلك، قالها وهو ينظر إليّ بتمعن من فوق نظّارة القراءة، إنه يعرف كل شيء عن أمها. إنها المرأة التي ما كان على ذلك الرجل المخبول، أي والد روحيني أن يتزوجها مطلقاً. كانت

Twitter: @alqareah

ممثلة من نوع ما، في تلك الأيام. ولذا فمن أين لي أن أتصور نوع العائلة التي أتت منها؟ ماتت الأم في ريعان شبابها لأنها كانت مدمنة على الخمر الذي تسبب بإتلاف كبدها وهي لم تكن بعد قد تجاوزت الخامسة والثلاثين. وبالطبع ينتهي المطاف حتماً بكل البنات إلى القيام بكل ما كانت أمهاتهن يقمن به.

حتى الآن لا أعرف كيف اكتشف والدي كل ذلك. لم يخطر في بالي قطّ أن أسأله. لا أريد أبداً أن أستعيد ذكرى تلك اللحظة التي انكفأت فيها على نفسي؛ إذ إنني، وبدلاً من الوقوف في وجهه، سمحت له بابتزازي بمزيج من الغضب والانفعال. في نهاية المطاف، تخليت عنها ببساطة. ينتابني الآن نوع من الإحساس بالراحة، ناجم عن قدرتي على استيعاب ذلك، وتمكّني من التصريح بذلك علناً: عندما جدّ الجدّ، فشلت. لم أكن مهيأً بتاتاً لمواجهة تلك اللحظة بشكل مناسب. فلا استطاعت الكلّية الليبرالية الغريبة الأطوار مساعدتي، ولا الجامعة الكبيرة، حيث كنت أقرأ لساعات طوال تحت تلك المراوح الطويلة المتدلية من سقف المكتبة، ولا حتى تلك النقاشات الحامية في منتصف الليل عن الحب والحقيقة أثناء تجوالنا لمدد طويلة بين الأشجار الشائكة في التلال الموجودة في حرم الجامعة تحت غيوم منخفضة يتخللها نور القمر. لم ينجح أي من ذلك في إعطاء روحي الشجاعة التي تتطلبها مبادئها.

عندما أخبرتها بذلك حدقت في صحنها لمدة طويلة، ثم وبنبرة كان

Twitter: @alqareah

يمكن أن تستخدمها في الأوقات الطبيعية عندما تطلب كأساً أخرى من العصير الطازج والصودا، قالت لي:

«الزواج، من ذكر شيئاً عن الزواج؟»

رفعت وجهها، وكان على شاكلة وجه تمثال منحوت لبطلة باردة وحيدة. بدت عيناها وكأنهما تنظران من خلالي إلى تلال بنفسجية بعيدة. شعرت وكأن أحدهم ضبطني متلبساً بالضحك في غرفة كان فيها شخص قد مات لتوّه. كان البحر من ورائها أزرق بشكل وحشي، وهو يلمع تحت أشعة الشمس وكانت السفن فيه متوقفة.

في ذلك المساء كان تشاك هو رجل النرد؛ كان قاسياً. نظر إلى السقف. قال إنه يجب علينا الذهاب إلى مارين درايف، أو إلى منطقة تشوباتي لنجد لنا امرأة حقيقية؛ امرأة من ذلك النوع من النساء الذي يشعرك بالرغبة في معاشرته، وليس من نوع تلك المخلوقة التعيسة التي أحضرناها من منطقة الأضواء الحمراء وأطلقنا سراحها بعد أن دفعنا لها مائة روبية تماماً، مثل ولد فك أسر ببغاء من القفص بعد شرائه وإحضاره إلى المنزل. يجب أن تكون الأمور هذه المرة مختلفة. وعندما وجدناها، بدا الأمر وكأنها كانت في انتظارنا. كانت تجلس على الحاجز البحري حاملة الساري الأزرق والأبيض وهو يرفرف بيدها اليسرى، وكانت بالأخرى تتناول عرنوساً مشوياً من الذرة. كانت على جبينها بقعة حمراء صغيرة مدوّرة، وكانت تزين شعرها المعقود

Twitter: @alqareah

على شكل كعكة بعقد من أزهار الياسمين الطرية. مشت في اتجاهنا من دون أن تنبس ببنت شفة، لكنها رمقت كل واحد منا نحن الثلاثة، بنظرة. قرر رجل النرد أيضاً بالترتيب من سيطأها أولاً. وعندما دخلت بها، كان دفء جسد تشاك لا يزال عالقاً على جسدها، وكانت آثار تعرقه لا تزال حول عنقها. كنت أستطيع تذوق طعم سيجارته على شفتيها. وأضفت إليها كل إحباطي وضياعي ويأسي وضعفي. بعد ذلك، أحسست بكرهٍ تجاه نفسي وأفرغت نصف كأس الرم الصافي في جوفي بجرعة واحدة، وخرجت مهرولاً على عتبات درج سنشاين تيرس.

كان المطر يهطل على شكل رذاذ، وبدأ نسيم مشبع بالرطوبة يشتد. كان ذلك يشعرني بالانتعاش. ذكّرني ذلك بالنسيم الذي كان يصدر صفيراً وهو يهب من خلال أوراق شجر الصنوبر على التلال. لكنني أفتقد سكون وقُفور التلال هنا. المكان هنا يعج بالعرق والقذارة والضجيج. مشيت على رصيف محطة تشيرش غيت وصعدت إلى القطار. لم أتبين قبل الصعود إذا كان قطاراً سريعاً أو محلياً، لكنني لم أعِر الأمر اهتماماً. ازدادت فجأة سرعة القطار، ثم أخذ بعد ذلك مباشرة تقريباً يخفف من سرعته. دفعت نفسي في اتجاه واحدةٍ من زواياه. كان يمكن أن أجد مقعداً أجلس فيه في وقت قصير جداً لكن لن يكون ذلك المقعد بجانب النافذة. تلك المقاعد كان يشغلها أربعة من الشبان اليائسين، وهم يلعبون الورق على حقيبة ركزوها على

Twitter: @alqareah

ركباتهم. كانوا ينظرون بشزر إلى ورق اللعب كما لو أن ورق اللعب ذاك كان سيكشف مستقبل حيواتهم. بدوا وكأنهم يرون من خلال ورق اللعب الوقت الذي سيحصلون فيه على منازلهم الخاصة بهم، والوقت الذي سيحصل فيه أولادهم على وظائف محترمة أو الوقت الذي سيتزوجون فيه؛ وأخيراً حلول ساعة منيتهم في النهايات المنطقية لهذه الرحلات. ربما كان باستطاعتهم من خلال ما قد ينبئهم ورق اللعب به، مواجهة زوجاتهم وأولادهم عندما يصلون حيث يقطنون في تلك الشقق الحقيرة الصغيرة، ويعطيهم شعاع أمل يستطيعون بواسطته الخلود إلى النوم. كان ورق اللعب مهماً جداً بالنسبة إليهم لكنه لم يكن يعني للآخرين شيئاً على الإطلاق.

عرفت أن ذلك لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إلى الشخص الغارق في صحيفته والذي كان يجلس قبالتي. لم يكن ليبدي أي اهتمام حتى إن قمت بهزه، أو تمزيق صحيفته، وسرد كل شيء له عني أو عن سنشاين تيرس، أوعن طبيعة عملي أو شعوري بالذنب أو بالغضب، أو عن روحيني والألم المُحتجَزُ أبداً وراء ضحكتها اللامبالية. عرفت حينها أن كلاً منا له عالمه الخاص، وأنه سجين وبطل يعاني الوحدة. كان في إمكاني رؤية العالم كله داخل رأسي. وكان ذلك هو المكان الذي كنت سأعيش فيه. إنه المكان الذي تجمعت فيه كل الألوان التي سقطت ظلالها خارجه.

بدأت أشعر بدوار في رأسي بينما كان القطار ينتقل من محطة إلى

Twitter: @alqareah

أخرى عبر أنفاق صغيرة وتحت جسور المشاة المزدحمة، في محاذاة برك المياه المتعفنة وطرق السيارات الدولية المضاءة. انتقلت إلى جانب النافذة عندما نزل لاعبو الورق من القطار. شعرت بأن قلبي مرتاح، لكن شيئاً من داخلي كان يصعد في اتجاه حلقي.

شعرت بأنني قد تحررت؛ تحررت من منطقة سنشاين تيرس، ومن الضوء الخافت الذي كان يتدلى من سقف غرفتنا. تحررت من كل الآمال ومن الحاجة إلى أن أحب أحداً أو أن يحبني أحدٌ، تحررت من كثير من الأشياء إلى درجة أنني بدأت أشعر بثقل ينزاح عن كاهلي. في إمكان المرء أن يتحرر من أي شيء لو أنه فقط يفكر بطريقة صحيحة.

كانت الأبنية تترنح بتراخ أمام عينيّ. أردت أن أكون ذلك الولد الذي يأخذ حماماً من دون أن يبالي بأحد تحت صنبور في الشارع. أردت أن أشعر بالإثارة التي تحدثها تلك المياه وهي تنساب فوق كتفيّ وتنظف كل آثار العرق التعيس عن يومي.

امتزجت الأحياء الفقيرة وكذلك انبلاج الصباح بالليل. بدت كل المحطات الريفية متشابهة. فقد كانت تعرض فيها زجاجات الحليب البارد وعصير البرتقال المُحلّى، وكان يتم فيها الكثير من التدافع والسير بصعوبة وسط الزحام. كانت اثنتان من النسوة تتعاركان على رصيف المحطة، وقد رفعت كل منهما لباسها الساري فوق ركبتها

Twitter: @alqareah

السوداء المليئة بالدمامل، ورمت كل منهما سلتها التي تبيع منها السمك جانباً. كان الناس يمرون في محاذاتهما. كانوا يمرون في محاذاة كل شيء، بعيون فارغة وعقول شاردة. كانوا يمرون في الأمكنة نفسها كل يوم، وكانوا يعرفون كل الدروب. كانوا يجتازون حي سنشاين ترس من دون أن يعرفوا شيئاً عن عالم الدلاء الرنان في داخله. كانوا يمرون بشاب ذي حذاء لامع من دون أن يعرفوا أنه حمل فتاة ضاحكة على البكاء من جديد. كانوا يعرفون كل شيء عن مواعيد الحافلات والقطارات، وحتى مواعيد القطارات السريعة. كانوا يعرفون أنهم تأخروا إذا لم يروا وجهاً محدداً تحت لوحة إعلانات جدارية ضخمة مكتوب عليها: «هناك شيء رائع في طريقه إليك...» كانوا في انتظار هذا الشيء الرائع طوال أيام حياتهم الرتيبة. هذا الشيء الرائع لم يأتِ قطّ.

من جديد، عاد تأثير شراب الرم يجعل رأسي يدور في دوامة هي على النقيض من حال الصفاء الذهني التي كنت أمر فيها. بعد ذلك رأيت فتاة في الزاوية وهي تتحدث إلى شخص. بدت شاردة الذهن. وكانت تشبه روحيني إلى حد بعيد؛ كانت جميلة وتتمتع بروح التحدي، كانت ضاحكة الوجه وحزينة.

نهضت وتوجهت نحوها.

شيء ما أمسك بقدمي في الوقت الذي كنت أندفع نحوها، ووقعت مباشرة على وجهي. حاولت المستحيل كي أتمسك بشيء كي لا أقع؛ وأظن أنني لامست ذراعها.

Twitter: @alqareah

«مخمور أحمق».

أحسست أن شيئاً قاسياً ضربني على رأسي مرتين. وقعت على ظهري وأثناء ذلك، تعرضت لضربة أخرى على عنقي؛ بعدها شعرت بأن الظلام أحاط بي من كل جانب.

عندما صحوت، شعرت برشقة ماء على وجهي، وسمعت صوتاً ناعماً يشبه الحفيف وهو يتدفق من بين ثنايا ظلمة الليل المحيطة بي. كان ذلك صوت المطر يهطل من سماء تلك الليلة. كان ينهمر برشقات هائلة آتية من البحر وكان يضرب في جنبات القطار المتوقف، مسبباً دخول الرذاذ من الباب نصف المغلق. عرفت حينها أن الباب نصف المغلق يعني أن القطار سيبيت في المحطة طيلة الليل. ربما كانت هذه محطة بومباي المركزية.

أمسكت بالعمود المعدني قرب يدي ونهضت. كان الألم في رأسي شديداً إلى درجة أنني تخيلت أن سهاماً اخترقته، وتحسست يدي شيئاً طري الملمس لزجاً حول عنقي. كان بنطال الجينز الذي أرتديه مبللاً وكان في استطاعتي شم رائحة التقيؤ مقابل نقاوة المطر. كان عليّ العودة إلى المنزل.

تعثرت وأنا أمشي على سكة القطار، وشعرت بأن رجليّ بدأتا تستعيدان قوتهما بالتدريج. كانت مطرقة تضرب في رأسي بالتزامن مع وقع خطواتي. تجاوزت القطارات الطويلة الصامتة النائمة في

Twitter: @alqareah

خطوط مستقيمة كأنها وحوش معدنية تتهيأ للقيام بغزوة. فبعد بضع ساعات، سوف تنهض كما لو أنه أيقظها نفخ في الصّور، وتبدأ بضخ الحياة من جديد في مدينة يائسة نائمة كنوم أهل الكهف. سوف يتم التقاط مئات الآلاف من قطع الحياة التي لا وجوه لها، وحشرها في تلك القطارات، ثم يتم رميها بفظاظة خارجاً بكل أنفاسها التي تفوح منها رائحة التعرق ومخالبها الصغيرة الهزيلة. البعض منهم سوف يقع من على متن القطار، والبعض الآخر سوف يصاب بصعقة كهربائية حيث يمتطي سطح القطار. والبعض منهم سوف يتعرض للسرقة ولكن لن يكون هناك وقت للتوقف أو التقاط الأنفاس.

على رصيف المحطة كانت هناك الكثير من الأجساد النائمة التي لم يوقظها مروري بجانبها. وكانت هناك امرأة من الواضح أنها مجنونة؛ قامت تلك المرأة بخلع قميصها وظهرت عارية تحت الضوء الأصفر وهي تضحك. لقد اخترقت قلبي تلك الضحكة التي كانت أشبه بالصرخة.

كانت الكافيتيريا الإيرانية التي تقدم الشاي خارج المحطة مفتوحة. كانت الكراسي موضوعة بشكل مقلوب على بعض الطاولات. وجدت طاولة مرتبة ونظيفة. كانت ماكينات الألعاب ذات الشقوق التي توضع فيها القطع المعدنية مضاءة، ومن إحدى هذه الماكينات كان مُجَسّمٌ لدوللي بارتون باللونين الوردي والأزرق يغمزني بعينه. كان صاحب الكافيتيريا يجلس خلف الصندوق وكان جسمه شبه محجوب بالأباريق

Twitter: @alqareah

الزجاجية المليئة بالحلويات ذات الطعم البرتقالي وقطع الشوكولاتة البراقة. كان يقرأ في صحيفة الأمس. نادى على أحدهم وراء الستارة لإحضار الشاي، ثم عاد إلى الصحيفة من دون أن يكلف نفسه عناء النظر مرة أخرى. عندما أُحضِر الشاي، كان حاراً وحلو المذاق؛ وفي الوقت الذي أخذت فيه الرشفة الأولى، ابتسمت. لا شيء يهم. من الآن فصاعداً لم يعد أي شيء يهم. بعد بضع ساعات، سوف ينبلج الصبح ومن ثم سأجد طريقة ما لأترك هذه المدينة ورائي، مرة وإلى الأبد.

لم يكن في استطاعتي العودة إلى بومباي مرة أخرى أبداً، حتى إن كان ذلك لدواعي العمل، وحتى إن عرض عليّ باسو، وهو يدغدغ خصيتيه بيده اليمنى التي يضعها في جيب بنطاله، أن يصطحبني معه إلى مؤتمر مع أحد عملاء الشركة. لم يكن في إمكاني تجاوز ما حدث. فالشمس التي تسطع على زرقة البحر هناك سوف تستمر في تحطيم قلبي تماماً كما حطمت قلب رو، حينها، عندما كانت السفن المتوقفة في عرض البحر تبدو وكأنها لوحة زيتية على قماشة من القنب خارج الزمن.

Twitter: @alqareah

روركي

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

-١-

هناك ضجة كبيرة. صوت مكتوم ناجم عن ضربة قوية أعقبه صراخ حادّ. انتفضت مستيقظاً من غفوة غير مريحة. خلت أن الأمر ربما كان يتعلق ببقرات تعبر سكة القطار، أو أن جلموداً من الصخر تسبب في حرف قطارنا عن سكته وأن الله قد رحمنا بوضعه حداً لحياتنا إلى الأبد. والاحتمال الآخر هو أنه بما أن حياتي تسير كفيلم سينمائي في أي حال، فإنه من الممكن أن يكون الأمر ناجماً عن غارة مسلحة شنتها عصابة لصوص من الهنود المعتمرين عمائم كبيرة والممتطين صهوات أحصنة بيضاء، بشواربهم المجعدة المفتولة وأعينهم المحتقنة بالدم الممتشقين بنادقهم ذوات الفوهات المزدوجة والمصممين على اغتيالنا وسبي النساء وسرقة الذهب الذي في حوزتنا، وبعد ذلك يعودون ويسلمون أنفسهم لضابط شرطة شريف.

لكن ما أيقظني حقيقة، كان صوت صاعقة انفجرت في مكان بعيد، كانت صاعقة هزت أركان ما حولي، ومزقت نومي الخفيف، وكان وقع صوت هذه الصاعقة في داخلي أقوى منه في الواقع.

أستدير في محاولة مني للنوم من جديد، لأرى إذا كنت ما زلت

Twitter: @alqareah

قادراً على العودة إلى الغوص في عالم النسيان في تلك الزاوية لنصف ساعة أخرى فقط، يكون فيها القطار بدأ ينحدر ببطء في اتجاه روركي. أحب أن آخذ مثل هذه الجرعات مشيحاً بوجهي عن العالم وأنا أقفل عائداً إلى عالم من الظلمة مجدداً، متطلعاً إلى الأحلام التي سأعيشها، طويلة كانت أم قصيرة، ممتعة أم مغلفة بإحساس بالنقص؛ إنها ذلك النوع من الأحلام التي تترك ألماً في داخلي.

في إحدى تلك الأمسيات بعد أن هجرتني مينا، غفوت في كرسيّ على الشرفة، وبجانبي كأس شراب لم أرتشفها بالكامل، وفي رأسي نوع من الضبابية الوردية. راودني حلم عن الجنس بعد وقت طويل. كان هذا من نوع الأحلام التي تنتاب عادة الشباب؛ إنه من ذلك النوع من الأحلام التي تتمنى أن لا تنتهي، إنه الحلم الذي يلاحقك لسنوات وهو قادر على أن يمنحك إحساساً دافئاً ورائعاً بمجرد التفكير فيه. ربما كان هذا الحلم بسبب تأثير شراب الجن. هذا الشراب تحديداً يترافق مع الرغبة في الجنس كما لا يفعل أي مشروب آخر. فالجعة والويسكي والبراندي هي مشروبات جادة. أما شراب الجن فهو يتماشى تماماً مع الجنس مثله مثل الجاز؛ فقوة الجذب التي يتمتع بها هي نفسها؛ والإحساس بال «ما بعد» يستمر فترة أطول ويترك مذاقاً أفضل. عندما أفكر في شراب الجن، يحضرني منظر الكؤوس الواسعة العريضة مع حبات الزيتون وغرف النادي ونادلي البار الذين يقومون بتثاقل في تقديم الشراب، وهم يتحركون وراء ستائر الخيزران الثقيلة؛

Twitter: @alqareah

كما يحضرني مشهد المعاشرة البطيئة المترافقة بالتعرق أثناء فترة بعد الظهر في أيام الصيف القائظ، والنوم الثقيل الذي يتبع ذلك، ووجع الرأس اللطيف في المساء.

كانت روحيني مرة أخرى. هذه المرة، كان جسدها مضمخاً بعطر الخزامى الداكن. وجدتني معها في فندق غريب له شرفات واسعة وغرف مضاءة جيداً. كنت أتوسل إليها متضرعاً أن تكلمني، وأقول لها إنني لم أكلم أحداً منذ ستة أشهر. وبعدها، كنت أقوم بنزع ملابسها بطريقة موحية ثم بطريقة إجبارية وكان قلبي يخفق بالطريقة التي يخفق فيها في المرة الأولى منتظراً إياها أن تطلب مني أن أتوقف، أو أن ترفع يدها وتدفعني بعيداً عنها، أو أن تقوم من السرير وتهرب باكية لاعنة. لكنها لم توقفني. بدلاً من ذلك كانت تراقبني وهي تبتسم بتسامح طوال الوقت. بعد ذلك كانت تستلقي للاستمتاع بقبلاتي. وراء شعر رأسها الأشعث رأيت شخصاً عبر النافذة قادماً نحو بابي للتأكد فما إذا كان الباب لا يزال مفتوحاً. كان مغلقاً لحسن الحظ. أستطيع أن أتذكر أن الباب كان مصنوعاً من شجر الورد المتين من نوع الخشب نفسه الذي صُنع منه سريرا الزواج الكبيران لوالديّ. السريران اللذان اختفيا من دون أن يتركا أي أثر. كائناً من كان قد اختفى، فقد مرّ ظل ذلك الكائن بسرعة من أمام النافذة ذات الضوء الخافت. وعدت إلى جسدها المضمخ بعطر الخزامى.

بعدها استيقظت من جديد، وعقلي مليء إلى الحد الأقصى من

Twitter: @alqareah

الشعور بالنشوة يرافقه إحساس مألوف بالحنين في كل مسام من مسامات جسدي. كانت تمطر بغزارة مغلفةً بهالة من الظلمة في الخارج. أغلقت عينيّ من جديد، لكن الحلم كان قد اختفى. لم يبق منه سوى خياله الحاضر بقوة، والمتوضع في زوايا شعوري. وفي الوقت الذي كنت فيه أتمسك بتلابيب هذا الحلم، كما لو كنت أحتضن غباراً من الذهب الغالي، عدت إلى ارتشاف ما تبقى من الشراب في كأسي.

لماذا أحلم بها غالباً؟ إنني لا أنسى تلك الأحلام في اللحظة التي أستيقظ فيها. تبقى هذه الأحلام معي لمدة طويلة. حلمت بها مرة تتجول في بيت غريب، بيت فيه شرفة خلفية كبيرة وحديقة دائرية من الأزهار التي تتفتح في الليل ويفوح منها عبق سماوي. تنبت تلك الأزهار في دغل كبير خارج نافذة البيت مباشرة. كانت تلبس قميصاً قطنياً أبيض وأزرق مخططاً على شكل مربعات، وكان شعرها منسدلاً على شكل موجات من الخصلات على كتفيها. جربت مائة طريقة لأقضي وقتاً أطول معها وآخذها بعيداً وأعاشرها. مرة أخرى حلمت أنني كنت أراقبها من مقعد سيارتها الخلفي بينما كانت تجلس بجانب زوجها وهما عائدان من عشاء احتفالي بمناسبة عيد ميلادها والمخصص لشخصين، بينما يتألق خاتم الزواج في إصبعها.

يمور البرق من جديد. ويبدو أنه هذه المرة أكثر قرباً من المرة السابقة. كانت السماء تبرق في الليلة التي ولدت فيها، كما ذكرت لي والدتي أكثر من مرة. وكان هناك مطر أيضاً. ظن الناس لهنيهة أن

Twitter: @alqareah

السماء سوف تثلج. ولكن المطر فقط كان يهطل. تشكلت لاحقاً طبقة من الجليد الأبيض على حقول القمح وعلى فروع الأشجار العارية وعلى المروج العشبية حول منزل جدي الحكومي. في تلك الليلة أخافَ البرقُ والدتي في الوقت الذي كانت تنتظر فيه الطبيبة في غرفة الولادة المظلمة بالطابق الخامس في المستشفى. انطفأت الأنوار بفعل الأمطار والرياح القوية التي كانت تعوي منتشية بالنصر عبر الأبواب المفتوحة. خلعت الستائر وبدأت النوافذ تصَفق إلى درجة أن الناس بدؤوا ينزعون النوافذ الزجاجية ويضعونها على الأرض. كانت الرياح تعصف بزجاج النوافذ الملقاة على الأرض بقوة مصدرة صريراً وأنيناً وكأنها تريد أن تنطلق من ذلك المكان. لم تستطع مقاومة تلك الريح شمعةٌ أو مصباحٌ أو شعلةٌ. قامت الطبيبة بالإشراف على ولادتي بطريقة غريزية لا بد أنها مارستها من قبل مئات المرات. بعدها ابتسمت وربتت على خد والدتي بيديها الباردتين، ثم غادرت الغرفة نزولاً من الطابق الخامس في الظلام وهي تلف نفسها بدثار أسود كبير ليقيها من الرياح. استمر البرق طيلة الليل كما أخبرتني والدتي وكنت أبكي طيلة الوقت، كانت عيناي مغمضتين بشدة، وقد ألبسوني عباءة ذات لون أزرق فاتح مصنوعة من صوف الخراف ومرسوماً عليها صورة ملاك بلون أزرق غامق راكب بمرح على عصا مقشة، وكنت مغطى بملاءات صوفية منسوجة يدوياً وممدداً في لفّات مثنية فضفاضة كانت جدتي لأمي تلّف بها وسطها.

هكذا بدأت حياتي، وهكذا تستمر، مختبئاً من الصواعق في

Twitter: @alqareah

الظلام: عيناي مغمضتان بشدة على كل ما كان، وعلى ما سيكون، وأنا على متن قطار يسير بين مدينتين غير معروفتين، تهددني الصواعق عبر حقول قصب السكر.

-٢-

بدأت رسائل روحيني الإلكترونية، وكانت تشبه مَعالم في أرضٍ شاسعة قاحلة بنية التربة، تملأ بشكل تدريجي السنين التي عملتُ على تركها ورائي بأفضل ما أستطيع. كانت كل رسالة تحمل سراً زمنياً صغيراً، أو لحظة خبيئة أو بضع سنين اختُزِلت في ثلاثة مقاطع قصيرة، من دون أن تبدأ جملها بحروف كبيرة؛ ونادراً ما كانت تستعمل علامات التنقيط؛ كما لو أن الأمر كان في غاية البساطة؛ وكانت رسائلها غير مترابطة إلى درجة أنه لم تكن هناك ضرورة للإشارة بإصبع أخرى. كانت رسائل إلكترونية مكتوبة بسرعة، كما لو أنها كانت تعرف أنها إذا توقفت عن الكتابة بهدف التفكير أو التحليل أو تدقيق تهجئة الكلمات، فإنها ما كانت لترسل الرسالة على الإطلاق.

بحثت في تلك الرسائل عن قصتها. كنت أحياناً أجدها في فصل كامل، وأحياناً أخرى كنت أجدها في جزء من الرسالة وغالباً ما كنت أجدها في تلميح صغير. توزعت تلك السنون الضائعة في ثلاث رزم صغيرة، تسير كل واحدة منها في طريق مختلف، وتمر بخطوط مختلفة. ولكن في نقطة ما، بدأت تنضم الرزمة الواحدة منها إلى

Twitter: @alqareah

الأخرى، وبدأت من جديد الانخراط في العالم الذي ظننت أنني أضعته إلى الأبد، وضحيت به على مذبح التسوية.

... هناك الكثير مما أريد أن أخبرك به، لكن لا أعرف من أين أبدأ. لست متأكدة من أنك تريد أن تعرف. في أي حال، هي مجرد رسالة إلكترونية. في إمكانك ببساطة حذف الرسالة ولن يكون في مقدور أحد أبداً أن يجد بقايا كلماتها، لن تحتاج إلى سلال نفايات خبيئة أو إلى نار سرية أمام فسحة منزلك تضرم فيها هذه الرسائل. التقيت غوتوم في سنة ١٩٨٩. نعم، تعرفت إليه في ذلك التاريخ. كنت وحيدة لسنين طويلة بعد ما حدث في بومباي. لا أعرف إن كنت تعلم بذلك البتة. لا أظن ذلك. ربما اعتقدتَ أنني غادرت بومباي وتزوجت بأسرع ما استطعت، أليس كذلك؟ حسنٌ، كنتَ مخطئاً كما دائماً...

... كان كل شيء على ما يرام في البداية، كان مثيراً وجديداً ولم يكن هناك الكثير من الأخطاء. كان المنزل في الضواحي على مسافة خمس دقائق بالسيارة من محطة المترو، وعلى بعد ثلاث دقائق من السوبرماركت، وكانت في الجوار مدرسة جيدة إن احتجنا يوماً إليها؛ خطط غوتوم لكل ذلك. كان دائماً بارعاً في التخطيط. كان يستقصي كل شيء ويحلل كل شيء ويناقش كل شيء، وتركت كل شيء تحت تصرفه. كل ما كان يشغلني ليل نهار هو متابعة الدراسة والاهتمام بتأمين القبول والحصول على مساعدة مالية، وعدد الساعات المعتمدة...

Twitter: @alqareah

... هنا كانت فرصتي الكبيرة في متابعة دراستي العليا في جامعة أمريكية، ذات متطلبات تخصص رئيسي وآخر فرعي، بمكتباتها وكومبيوتراتها وأساليبها الحديثة المثيرة. لم يكن ذلك سهلاً؛ فقد انتظرت ستة أشهر كي أتقدم بطلب للقبول والحصول على رسائل توصية من أساتذتي في جامعة بومباي في مغلفات مغلقة ومختومة. ربما لم يعودوا يتذكرونني حينها. أخيراً فعلتها، حصلت على شهادة دكتوراه في الأدب الإنجليزي، شهادة دكتوراه لا قيمة لها...

ليست عديمة القيمة يا رو؛ هذا ما أردت أن أقوله لها. إنها جميلة. أن يكون لدى المرء الفرصة، وأن يشعر بترف القيام بما يريد أن يقوم به، وأن ينفذه من دون الإحساس بالذنب أو الألم. ماذا يريد المرء أن يحقق أكثر من ذلك؟ أردت أن أقول لها إنني سعيد لأنها استثمرت فرصتها؛ وإنني سعيد لأنها حققت ما تصبو إليه.

... أعني أنها كانت عديمة القيمة لأنها لم تكن في مجال الأعمال أو الأموال أو القانون. لن تساعدني هذه الشهادة في الحصول على وظيفة في البنك الدولي أو الأمم المتحدة أو في أي شركة كبرى...

... كافحت في سبيل الحصول عليها لشهور عدة. كنت أقضي فترات بعد الظهر والمساء في الجامعة، وصباح أيام السبت في المكتبة، وأدرس في المساء حتى آخر الليل. كان غوتوم منهمكاً في أعماله طوال الوقت. كان يسافر كثيراً، إلى لندن والمكسيك أو إلى

Twitter: @alqareah

الساحل الغربي. كان يطلب إلي أحياناً أن أرافقه، وأن أستخدم كل الأميال الجوية المجانية التي جمعها؛ ولكنه كان مشغولاً دائماً لذا تركته يسافر بمفرده؛ وكنت أشعر بالسعادة لعودته. في تلك الأيام كان يجلس ويحكي لي عن سفراته يوماً بيوم...

كنت أقرأ كل رسالة من رسائلها مرات عدة باحثاً فيها عن أي أثر لحنق أو مرارة أو غمز من قناتي. كنت أعيد قراءتها بعد أن تكون جوي قد غادرت المكتب الذي تطفئ أنواره بشكل لافت للنظر وهي تقول لي إنها الساعة السادسة والنصف، أي إننا تأخرنا نصف ساعة عن موعد الانصراف؛ كما لو كان ينتظرها في المنزل شيء تقوم به أفضل من تحضير وجبة العشاء لها ولأمّها العجوز. بعد ذلك، لا شك في أنها ستقرر القيام بواحد من تلك الأشياء ذات الطرق الخمس. أن تقوم بغسل شعرها، أو تلوِّن عينيها أو ما شابه. كان هذا أفضل الأوقات بالنسبة إليّ، بعد أن تغادر المكتب يتحول النور في مكتبي إلى أصفر ساخن، وتتحول الأشجار في حي كونوت تحت نافذتي إلى كتلة سوداء ضخمة، وتبدو أطراف هذه الأشجار المتجاورة كما لو أنها تشتبك في صراع بعضها مع بعض؛ حينها كنت أشعر بحميمية المكتب.

كان من السهل قراءة بعض هذه الرسائل؛ بينما لم يكن في استطاعتي قراءة رسائل أخرى منها بشكل كامل، خصوصاً تلك التي تحدثت فيها عن روح المشاركة مع زوجها في أشياء مختلفة مثل

Twitter: @alqareah

الزمان والمكان. كنت أفهم بشكل فوري بعضاً من تلك الرسائل التي كانت تحتوي على إشارات وتلميحات خلتها ذوت، لكنها عادت إلى التبرعم من جديد. كنت أفهم المقصود من رسائل أخرى ترسلها لي، فقط في آخر الليل عندما يكون الشراب قد أخذ مفعوله، ويسلط تبعاً لذلك الضوء على فضاءات مظلمة غير مستوية في قلبي. غالباً ما كنت أشعر بأنها لا تبوح لي بكل شيء، وأنها تتعمد أن تتوقف في منتصف الطريق. لم تكن تخبرني مثلاً أنها كانت تشعر بالحنين إلى غوتوم عندما كان مسافراً، أو أنها كانت تشعر بالوحدة في سريرها أثناء الليل من دونه، وأنها كانت تنتظر مكالمة هاتفية منه، وأنها تحدثت معه عبر المحيطات بأمور تافهة لا معنى لها، وأنها عاشرته حين عاد أخيراً بشبق وشوق وعنف. لم تبح لي بأيٍّ من تلك الأشياء لأنها لم تشأ أن تجرح مشاعري.

أنا أيضاً تغيرت، يا رو. لم تعد هذه الأشياء تجرح مشاعري بعد الآن؛ لكن أي محاولة لإخفائها عني سوف تجرح مشاعري. لم أعد في حاجة إلى أي حماية بعد الآن. كل ما أريد سماعه هو الحقيقة.

كان الحنين ينتابني عندما لا تصلني أي رسائل منها؛ وجدتني أختلق أعذاراً لعدم وصولها. كنت أذرع غرفتي جيئة وذهاباً إلى أن تبدأ جوي بالتساؤل عن ماهية المشكلة. أعرف أنه لا يجوز لي أن أتصرف بهذه الطريقة، كعاشق مراهق ينتظر بجانب موقف الحافلة بعد الظهر لأنه على موعد غرامي. ما أعنيه هو أنه إذا نظرت إلى الموضوع من خلال

Twitter: @alqareah

الحقائق الأساسية، فإنه لا يفترض أن تكون هذه الرسائل في بريدي في المقام الأول. انتهت رو من حياتي قبل أمد بعيد عندما ودّع أحدنا الآخر ومشيت بعيداً عنها تحت أشعة الشمس بعد الغداء بجانب الحاجز البحري عندما كانت السفن تبدو كرسوم جامدة في مياه البحر. لم تكن هناك أي وعود بشأن عودتها إلى حياتي من جديد، كي تقوم بإنقاذ قواي العقلية. هذه الرسائل التي تصلني الآن من حيث لا أتوقع أبداً بعد سنين عديدة هي هدية كبيرة، إنها تدخّلٌ من السماء، إنها واحدة من المصادفات التي لا تحدث كثيراً. لكن لم يكن في استطاعتي الاعتماد عليها ـ اعتمدت مرة على ضحكتها ولم تكن لديّ الشجاعة لأبقي على ضحكتها تلك. لم يكن في استطاعتي احتلال ذلك الموقع ـ فكل الحكمة والخبرة اللتّين اكتسبتهما مع تقدمي في العمر، مع سنواتي الأربعين العظيمة التي تصادف بلوغي إياها مع حلول الألفية الجديدة كانتا ضد ذلك.

اللعنة.

خسرت المعركة قبل أن تبدأ.

ـ٣ـ

طيلة تلك الأسابيع التي كنت أشعر فيها بالاضطراب والضياع، بحثت عن تلميحات في رسائلها الإلكترونية وتساءلت عن الأسباب التي حدتْ بها للابتعاد عن غوتوم، وعن حياة الضواحي الهادئة

Twitter: @alqareah

المورقة وفيلاتها وساحاتها الخلفية وحفلات الشواء فيها، والأكوام من أوراق الأشجار الميتة، ومروجها العشبية الأنيقة.

هل كان زوجاً جيداً أم كان فقط من النوع المتسامح؟ هل كانت هناك شرارة في زواجهما، أم أنه كان مجرد زواج تم ترتيبه على عجل خلال زيارة قصيرة إلى دلهي، وفي فندق أشكولا حيث الزهور الذابلة والآيس كريم من نوع كاساتا الذائب؟ هل حملا بعدها ذلك الزواج عبر الأطلسي بعد التدقيق في حقائبهما الثقافية، مثل تقويم الأعياد، والموسيقى الهندية على أقراص مدمجة والبخور والمواد التي تشكل حشوة أوراق البيتل، وأرز بسمتي إلى أرض الجينز الأزرق والغرين كارد والمنافسة الشرسة والنجاح المُنهِك؟

هل كان يساعدها في أعمال التنظيف بعد العشاء في تلك البلاد التي لا يوجد فيها خدم، أم أنه كان يتجه صوب سريره حاملاً معطفه الليلي بيد، وممسكاً بالأخرى صحيفة نهاية الأسبوع؟ هل كانا يتعانقان كل ليلة أم أن كل ذلك انتهى بعد الشهور الثلاثة الأولى؟ هل أصبحا ينامان في سريرين منفصلين بعد ذلك، أم في غرفتي نوم منفصلتين؟

ليتها تكتب لي رسائل أطول في فترات أكثر تقارباً، هذا ما كنت أتمناه: رسائل مستفيضة شبيهة بالأحاديث الطويلة التي كنا نتبادلها ونحن نراقب الشمس وهي تغوص في البحر، أو ونحن نحتسي الشاي في مطعم دوار، أو عندما نقفل عائديْن إلى المنزل ونحن نجر أقدامنا في أحد الأيام، يبدو أنها استطاعت قراءة أفكاري.

Twitter: @alqareah

...كيف يمكن لشخص أن ينهض ويغادر؛ هكذا بكل بساطة؟ يغادر بيتاً مليئاً بالحياة، فيه خزائن ملأى بثيابنا، حيث كنا نقضي صبيحة أيام السبت بإخراج أغراضنا الشتوية وتوضيب ثيابنا البيضاء الصيفية، وحيث كنا نقضي أيام الآحاد في ترتيب القبو والعناية بالنباتات والتأكد من أن الجليد لم يسبب لها أيّ أذى... أنت تعلم كم هو صعب أن تترك كل ذلك وراءك وتغادر. هكذا استمرت حياتي...

كان يجب أن تأخذ دروساً من مينا. كانت ستعطيها دروساً عن ثلاث طرائق سريعة بعنوان: كيف تتركين زوجك من دون ألم. الخبرة السابقة غير مطلوبة. كل ما تحتاج إليه المرأة، كما كانت لتكتشف لاحقاً، هو صديقة مثل نيني، وعشيق مثل راجيف.

سألتني جوي مرة في ما إذا كنت أمارس رياضة اليوغا الإنغارية. لم تكن حينها تجسِ نبضي أو تتصرف بحذاقة. كانت ببساطة مهتمة لأمري، وأميل إلى الظن بأنها بالرغم من كل ما فيها، فهي تمتلك شيئاً من الإحساس بالمشاركة. خلال السنين الأولى لعملي في الشركة أذكر أنني قرأت كتاباً يقارن بين العمل في شركة، والسكن في قصر جليدي حيث أن جل ما تفعله هو ما يفعله رؤساؤك؛ وإذا كنت بارعاً حقاً، فستقوم بهذا العمل قبل أن يقوموا هم به. لم أكن أجيد القيام بمثل هذه الأشياء أبداً، ما يفسر عدم تنبهي إلى رياضة اليوغا الإنغارية قبل أن تنبهني جوي إليها. كان يجب عليّ أن أستنتج أنها التقطت الإشارة من أنجيلا، سكرتيرة باسو، والتي بالطبع أخذتها بدورها من باسو

Twitter: @alqareah

نفسه. بعد ذلك الشيء الذي أطلق عليه نادي الضحك، اكتشف رياضة اليوغا الإنغارية. الأقرب إلى اليقين أن العزيزة نيتا دخلت عالم اليوغا هذا؛ وأبلغته كم هو عظيم ذلك العالم، وكيف أنه ساعدها على تنظيم يومها، وكيف استطاعت من خلاله أن تشعر بذاتها، وكيف ساعدها ذلك على إزالة الأدران من روحها كل مساء، وكيف حفّزها على تنشيط قدراتها العقلية والروحية؛ وأشياء تافهة من هذا القبيل.

قلت لها: «ليس تماماً يا جوي». وتابعت: «المرات القليلة التي حاولت فيها ممارسة رياضة التأمل، كنت أنام. وما لم أتمكن من استيعابه هو، لماذا لم يستطع أستاذي، الذي كان يفضل أن يطلق على نفسه لقب المعلم، والذي كان يطلب مني التركيز على بقعة ضوء وحيدة، أن يفهم الفرق بينهما. لم أقل الكثير عن استيعابه. في الواقع كان يكرر عليّ مقولة أنني جاهز جداً من الناحية الروحية وهذا يمكنني من دخول عالم منسلخ كلياً عن العالم الخارجي بشكل أسرع. لم يكن يعرف أن هذه الجهوزية هي نتاج لخبرة الوقوف الطويل والنوم لفترة طويلة في حافلات شركة دلهي للنقل لأكثر من ربع قرن».

ما لم أقله لجوي هو أن لديّ خدعتي الخاصة، أو ما أطلق عليه المرادف السري لساعات من اليوغا الإنغارية الخاصة بي.

أستطيع التركيز متى شئت. أستطيع وضع إصبعين من كل يد من

Twitter: @alqareah

يديّ على صدغيّ وأبدأ بالتفكير بتركيز شديد في المكان أو الزمان إلى درجة أنه يصبح حياً داخل رأسي. أستطيع الإحساس بالنور والأصوات والروائح وعندما أنتهي من هذا كله، أنهار متعباً من الجهد الذي بذلته. كنت أمارس هذا النوع من التأمل كثيراً أيام الجامعة؛ أما الآن فقد تركت الأمور على سجيتها. أمارس هذه الخدعة فقط عندما أكون في أمسّ الحاجة إلى ذلك.

عندما بدأت رسائل روحيني تتناقص، كنت ألجأ إلى تلك الخدعة. عندما كانت أنوار المكتب مُطفأة، وجوي قد عادت إلى أمّها في المنزل، وباسو قد بدأ يحتسي كأسه الثانية في حانة هابيتات، كنت أضع إصبعين من كل يد من يديّ الاثنتين على صدغيّ وأبدأ بتركيز تفكيري حول حياة رو، وما مرت فيه في حياتها، وما الذي تركته، ولماذا. كانت خدعتي تلك تملأ الفراغات التي تركتها في رسائلها.

أصبحت أعرف الآن أين تقطن. إنها تقطن في منزل من طابقين، مبنيّ من الآجر الأحمر في شارع فرعي يغلفه السكون، شارع ليس له منفذ. كان شارعاً مرتفعاً بعض الشيء، فيه أشجار كبيرة تصدر من أغصانها أصوات أزيز الحشرات الذي لا يتوقف.

... المنزل لا بأس به. فهو يحتوي على غرفة معيشة كبيرة؛ لقد فرشتها بأرائك من الجلد الأسود ومصابيح مرتفعة سوداء. توجد أيضاً سجادات حمراء وبنية اللون معلقة على الجدران يفترض أنها من

Twitter: @alqareah

تركيا، ولكن للأمانة، فقد اشتريناها من سوق جورجتاون للسلع المستعملة. أما غرفة الجلوس فهي مفتوحة على أرضية مربعة الشكل مريحة جداً في فصل الصيف؛ ولذلك فإن الضيوف يفضلون الجلوس هناك في الخارج، ووراء تلك الأرضية، هناك ساحة صغيرة نسبياً مثلثة الشكل مزروعة بالأشجار، وهناك أيضاً مساحة كبيرة مخصصة للكلب...

أستطيع أن أتخيل أمسيات الصيف المنعشة تلك: الطاولات المصنوعة من الحديد الملفوف، والشموع الخضراء بلون الأعشاب البحرية التي تنبعث منها رائحة عطرية، والموضوعة في كؤوس زجاجية تتناسب مع مثيلاتها من الكؤوس التي لها سيقان رفيعة، كان العزيز غوتوم قد سكب فيها نبيذ كاليفورنيا الأحمر من الدرجة الثانية، في الوقت الذي كان فيه الضيوف يبتسمون ويتجادلون ويشكرون روحيني مرتين على الأقل قبل أن يغادروا: ضيوف من شتى الاختصاصات، اقتصاديون من البنك الدولي، وفنانون، ومصورون، ومحامون؛ إنهم خليط من البشر بعضهم مثير للاهتمام فعلاً وبعضهم الآخر ينطبق عليه رأي غوتوم في أنه لا بد أن يكون مفيداً أحياناً.

أميل إلى الافتراض أن مالكي الكلاب من الضيوف أحضروا كلابهم الحبيبة من فصائل اللابرادورز والألساتيان والترير الأصغر حجماً في سيارات أنيقة، أو سيارات فان مغلقة إلى حقل الكلاب وراء منزل

Twitter: @alqareah

روحيني وغوتوم اللذين ربما كانا يقتنيان كلباً. لم تذكر شيئاً عن ذلك؛ أتخيل قيامهما بنزهات في أنوار الصيف الذهبية على الطرقات الصغيرة الملتفة عبر الأشجار التي تحيط بالحقل، وممارسة رياضة التنس، وحضور الأوكازيون المقام في الساحات العامة، والتسوق لشراء صحن لاقط، وشراء معدات الجيمنازيوم المنزلي، وأخيراً تركيب نظام أمني للمنزل. أتصور قضاءها لكثير من فترات بعد الظهر في المركز التجاري، أو وهي تتدافع مع الجموع في أعياد الشكر والهالوين والميلاد، أو قضاءها عطل نهاية الأسبوع العادية وهي تقص كوبونات من الصحف، أو تبحث عن تفّاح أو بصل أقلّ ثمناً، وعن أغراض هندية في متاجر هندية، وعن معدات الشواء لفصل الصيف وعن أجهزة التعشيب لفصل الربيع، ومعدّات كنس الثلج للشتاء. أستطيع رؤية غوتوم وهو يجز، بتردد وتذمر، العشب صبيحة أيام السبت في الصيف بسرواله القصير وقميصه القصير الكمّيْن. أما هي فأكاد أراها وهي تزرع بصلات النباتات والورود وتقلع الأعشاب الضارة، وهي تدندن بلحن على شفتيها، وتلبس كفوفاً حدائقية في يديها محاولة أن يتزامن ما تقوم به مع هطول الأمطار لتوفير ما يمكن توفيره من فاتورة المياه.

الصورة بمجملها تجعلني أشعر بالرغبة في التقيؤ. ربما لم يكن فيها أي شيء حقيقي؛ ولكنني أتساءل: هل يمكن أن تكون الصورة الحقيقية مختلفة عن هذه كثيراً؟

Twitter: @alqareah

-٤-

في يوم لم تنفع فيه حتى رسائلها في ضبط الفوضى التي كانت تعتمل في داخلي، ولم تكن فيه حتى لخدعتي الخاصة أي فاعلية، قمت بفعلة معيبة جداً. لقد كنت على وشك القيام بزيارة إلى إحدى الساقطات، أو الولوج إلى أحد مرابع التعري المليئة بالدخان والمقسمة إلى أقفاص ذهبية اللون في كل منها توجد امرأة مغطاة بالمساحيق ومزينة بالنثار المعدني اللماع الملون. ذهبت إلى شارع جانباث لمراقبة الفتيات. أحسست فجأة بالحاجة إلى الشعور بالرغبة في امرأة شابة مرة أخرى؛ انتابتني رغبة في أن أقوم بواسطة عينيّ بنزع ثياب أي فتاة جميلة وبريئة قطعة قطعة، وهي تمر بجانبي من دون أن تشعر بوجودي. ولكن عندما وصلت إلى شارع جانباث وجدت أن عينيّ تحولتا إلى اللون الأصفر. لم أشعر بالانجذاب إلى ما رأيت: فلقد رأيت نساء شابات طريات العود بقمصانهنّ الصيفية التي تكشف عن أذرعهنّ وأكتافهنّ ونهودهنّ البارزة؛ نسوة بشعورهن المربوطة إلى الأعلى على شكل عُقَدٍ أنيقة كي لا تلتصق باللزوجة الدَّبقة على أعناقهنّ المتميزة بخطوط يافعة نظيفة، وزغب خفيف، وشامات صغيرة. كنت أراقبهن عن كثب بنظرة سريرية فاحصة، وبمزيج من الرغبة والطمع، لا يشعر بهما سوى رجل عجوز قذر، أو رجل قذر في منتصف العمر. لكنني لم أشعر بالانجذاب؛ ومع ذلك، توقفت مرتين؛ تنحيت جانباً قرب المحلات واكتفيت بمراقبتهن وهنّ يدخلن مهمهمات

Twitter: @alqareah

بإحدى الأغنيات، أو يضحكن من دون مبالاة، أو ينخرطن في أحاديث. كانت تجربة جميلة وغريبة إلا أنها لم تكن قط حزينة. كنت أمشي إزاءهن، وأحس لأجلهنّ بالسعادة، وأدعو أن يملأ جمالهن وشبابهنّ وضحكاتهنّ هذا الشارع للأبد.

عندما عدت إلى المكتب كنت أشعر بلزوجة على خدي. ظن بانديتجي أنه اكتشف السبب.

«هذا الشخص الذي يقف على الزاوية يحضر أكلة أوراق البيتل بطريقة ممتازة. كما يحضر نَفَسَ تنباك حقيقيي يستمر مفعوله ساعة على الأقل أو ساعة ونصف الساعة».

شعرت بالأسى تجاهه. لم يكن في إمكانه مجرد تصور الزاوية البعيدة في العقل؛ تلك البقعة المظلمة التي كنت أعيش فيها بشكل أكثر تواتراً. أحنيت رأسي وأغمضت عينيّ كما لو كنت أشعر بالنشوة. قلّصت شفتيّ مدعياً أنني سأتقيأ رشقة مباشِرة من مفرزات البيتل الأحمر في مصعده القديم النظيف. لاحظت مدى الرعب الذي انتابه وهو يتوقع حدوث ذلك، لكنني ولحسن حظه خرجت من المصعد في الطابق الثالث. شعرت لاحقاً بالذنب تجاهه. لا يمكن أن يصدر شيء مثل هذا منّي. لم يكن لبانديتجي يد في ما حدث.

ذكرت هذا من قبل. لم أتحدث لمينا قط عن رو. لم أشعر قط أن في استطاعتي إخبارها عنها من دون أن يتهدج صوتي، ولم ينتابني

Twitter: @alqareah

إحساس قط بأنها سوف تتفهم ما أقوله بالشكل الصحيح. لكنني في المقابل، أخبرت رو عن الفترة التي التقيت فيها مينا وعن موافقتي على الزواج منها. أرسلت لها رسالة. لا أذكر ما كتبته بالضبط. ولكن رو تعرف؛ احتفظت بتلك الرسالة التي كتبتها على ورقة بيضاء وأرسلتها لها بمغلف أبيض. احتفظت بها بملف جلدي طيلة تلك السنين؛ أظن أنه كان ملفاً قديماً فيه بعض التشققات التي استقر فيها الغبار بشكل دائم. احتفظت بتلك الرسالة. لم تمزقها إرباً إرباً بسبب الغضب أو الإحساس بالمرارة. لقد تفهمت نقاط ضعفي المتوضعة في مكان ما، في شخصيتي، وسامحتني على ذلك. والآن وبعد مرور سنين كثيرة، أعادت لي رسالتي، إنما عن طريق البريد الإلكتروني. هذا هو الشيء الذي لم يكن في إمكاني تدبره مع مينا.

... تعرفت إلى مينا مؤخراً، عن طريق بعض أصدقاء والدي المشتركين. الجميع يصر الآن على أن الوقت قد حان كي أتزوج. تعرض بابا إلى ذبحة قلبية في الصيف، وصحته الآن ضعيفة، ولذا فلا أرى سبباً في الواقع وبكل صراحة، يجعلني أستمر في معارضة فكرة الزواج بالرغم من أنه يجب عليّ القول إنني لست متحمساً لذلك. فعلت ما فعلته لإرضائه بالدرجة الأولى. تتبع مينا دورة في علم الإدارة وستتخرج في شهر حزيران/يونيو. سنتزوج بعد تخرجها بأسبوع. يصادف موعد زواجنا عيد ميلادها في الحادي عشر من شهر حزيران/يونيو. أرسل لك بطاقة دعوة لحضور الزفاف بالرغم من أنني

Twitter: @alqareah

أعلم أنك لن تتكبدي عناء السفر مسافة عشرة آلاف ميل، فقط لكي تحضري حفل زواجي. لكنني أظن أنني في حاجة لأن أخبرك بالموضوع؛ أنا مدين لك بذلك، أنا مدين لك بأشياء أكبر بكثير. آمل أن تتذكريني في المستقبل بالطريقة الصحيحة.

لكنها لم تفكر حتى في إرسال رسالة مشابهة في المقابل عن غوتوم، ولا حتى تلك الرسالة الإلزامية التي تعلن فيها قبل أسبوعين من زفافها عن هذا الحدث لكل أصدقائها وعشّاقها القدامى. لم أعرف حتى الآن، وحتى بعد أن بدأت بالكتابة إليّ عبر البريد الإلكتروني معوضة عن الانقطاع الطويل في التواصل بيننا، كيف التقته في الحقيقة.

استقللت القطار وسافرت إلى نيويورك لمشاهدة أعمال بيكاسو في متحف الميتروبوليتان. كنت أقوم بأشياء كهذه في تلك الأيام. انتقلت من محطة يونيون الرائعة إلى قطار الأنفاق المظلمة من خلال محطة بن في نيويورك؛ وكنت أحمل كتاباً من الشعر وزجاجة ماء لمرافقتي طيلة ثلاث ساعات، هي مدة الرحلة التي كان القطار فيها يسير عبر الغابة، ثم قام بعبور الفتحتين العريضتين لنهري سيسكيهانا وديلاوير. كان اسما هذين النهرين يذكرانني دائماً بنار المعسكرات وضحكات الفتيات، والقوارب السريعة في المنحدرات النهرية. أتذكر المدن الصغيرة، وصفوفاً من المحلات المهجورة والسيارات الضخمة على الطرقات، كما أتذكر ملاعب الغولف التي تلعب بها الرياح والبيوت

Twitter: @alqareah

الصغيرة بمطابخها المطلة على الحديقة قرب خط القطار، وبنات الجامعة بمعاطفهنّ الجلدية التي يصل طولها إلى ما فوق الركبتين وسراويل الجينز الزرقاء وهنّ يتكئن على مقصورات الهاتف العمومي، وأتذكر أيضاً منظر جمع من عمال الطرق متكئين على معاولهم ورفوشهم يتبادلون الثرثرة، وسكة حديد مهجورة تنعطف بعيداً في اتجاه كتلة من الأشجار...

هرولت فوق الدرج الكهربائي المتحرك في محطة بن. كان شيء في المدينة قد بدأ لتوّه يدفعني إلى التحرك بسرعة أكبر. لم أشأ أن أستئجر سيارة أجرة أو أن أستقل حافلة، بل قررت أن أمشي. مشيت كما يمشي سكّان نيويورك، أي إنني كنت أقوم بعبور الشارع إمّا بطريقة أمامية وإما من جانب الطريق؛ وكان ذلك يعتمد على أي من إشارات المرور، كانت خضراء، وخصوصاً أنني كنت أعلم أن كل شيء مثبت في زواياه الصحيحة ولذا فلا يمكن أبداً أن أضل طريقي...

حدّقت في شاشة كومبيوتري وأنا أجاهد كي أستحضر المشهد. نجحت في ذلك بصورة متقطعة، وكانت حبات العرق التي بدأت لتوها بالتجمع تحت رؤوس اصابعي، تضغط على صدغيّ. كان في استطاعتي تخيلها وهي تسرع مهرولة على الدرج الكهربائي وصولاً إلى مستوى الشارع في محطة بن، بينما تثب حقيبة ظهرها وثوباً خفيفاً فوق كتفيها. كانت تمشي بسرعة وكبرياء؛ وكانت خطواتها تتسع وهي تنعطف في اتجاه برودواي، وتتوقف لبرهة في ساحة تايم وهي

Twitter: @alqareah

مشدوهة بالإعلانات الضخمة فيها والأسماء الشهيرة المكتوبة عليها. على يمينها كانت الأمباير ستيت بيلدينغ تلامس السحاب، وكانت الشمس تنعكس على الصحون والسواري المعدنية قرب قمة المبنى. وعلى مسافة قريبة، كان يظهر السطح الفولاذي اللامع لكرايزلر بيلدينغ بنموره المتوثبة الهادرة. مشت بسرعة، وكانت سرعتها أحياناً أكبر من سرعة الحافلات البطيئة بسبب إشارات المرور، مارّة بمطاعم البيتزا، والمحلات الصينية لتنظيف الثياب، ومحلات التنزيلات، ومتاجر بيع الثياب الفاخرة، وذلك الرجل المتشرد المتمدّد الذي كان ما زال يغط في النوم في منتصف النهار غير عابئ بالجموع والضجيج من حوله؛ كان يبسط إحدى ذراعيه، وكان باطن يده مفتوحاً باتجاه زاوية ضيقة نحو السماء. كانت تسمع بالقرب منها أحاديث بلغة إنجليزية مكسّرة تشوبها لكنات روسية وبولونية ويونانية. وكانت واجهات المحلات تعكس حركة الشارع الخفيفة: متسوقون وسيّاح ومسؤول تنفيذي متوسط العمر كان يلقي بمعطفه الربيعي بشكل غير مبالٍ على كتفه ويمرر بحركة دائمة أصابعه خلال شعره الخفيف وهو يمشي، وكانت هناك أيضاً فتاة بتنورة جلدية ضيقة تدخّن سيجارة بطريقة متكلّفة بينما كانت تختال وهي تعبر الشارع؛ وكانت هناك أيضاً تلك السيدة الأنيقة التي ترتدي معطفاً مصنوعاً من وبر الجمال وهي تنزّه كلبها قرب مبنى سكني وراء الرواق المظلل مباشرة، حيث كان يقف حارس بزيّ رسمي بنّي حاملاً قبعته القماشية بيده، منحنياً وهو ينصت إلى ثرثرة سائق سيارة أجرة.

Twitter: @alqareah

... حدقت في الرسومات الزرقاء. كانت تمثل زرقة البحر الأبيض المتوسط بكل جماله الثقافي ورزانته وأنَفَته التاريخية. أثار دهشتي عدم وجود الكثيرين من الأشخاص في صالات المعرض في ذلك اليوم. كان في استطاعتي الجلوس على المقعد وسط الغرفة وإلقاء نظرة شاملة حول المكان. لم يكن هناك سوى رجل يقف أمام رسم أزرق لشخص يضع قبعة على رأسه. كان يغير موقعه كل بضع دقائق ويمشي عبر الغرفة وينظر إلى اللوحة من زاوية أخرى. أثارت طريقته تلك أعصابي جداً. قمت من مقعدي لأطلب إليه أن يتذكر، هذا إذا لم يكن لديه من مانع، أن هناك أناساً آخرين في الصالة نفسها يحاولون رؤية اللوحة نفسها. ولكن في الوقت الذي كنت متوجهة إليه، سمعته يتحدث إلى نفسه. فكرت في أن الرجل يمكن أن يكون مخبولاً، وربما كان واحداً من أولئك المجانين الذين يجولون في المعارض الفنية ويتلفون قطعاً فنية لا تقدر بثمن إما بواسطة تمزيقها وإما بواسطة رشها بالدهان أو سرقتها. التفت حينها ووجدتني أنظر في عينيه اللتين كانتا لطيفتين ومهذبتين، وليستا عينَي شخص يمكن أن يتلف لوحة جميلة...

كانت الغيرة تضغط على حلقي وأنا أستمع إلى حوارهما الآتي من الماضي البعيد وهو يُكرر أمامي:

«أنت هندي»، نطقت بهذه العبارة بدهشة.

Twitter: @alqareah

«وأنتِ كذلك من الهند»، قالها بصوته الجهوري اللطيف. «على الأقل أنا غير مندهش لذلك؛ ذلك أن شخصاً من بين ستة في العالم هو هندي».

كانت هادئة.

«أحب هذه اللوحة» قال ذلك دون أن يبدي رغبة في إنهاء الحديث.

«إنها من أجمل اللوحات في هذا العصر. كنت أحدق فيها وأنا جالسة على المقعد هناك».

وقفا لبرهة وتحدثا عن اللوحات. وبشكل لا شعوري تقريباً انتقلا سوياً إلى الصالة المجاورة. شعرت روحيني بالارتياح لوجوده، وكان هذا الارتياح نابعاً من فكرة أنه لن يسيء فهم حقيقة أنها تمشي إلى جانبه. لذا فإنها لم تمانع عندما عرض عليها بارتباك أن تقبل بأن يقدم لها فنجان قهوة أو ما شابه، وهما واقفان في بهو المتحف الشبيه بالكاتدرائية. وراء تلك الأبواب الخشبية الثقيلة، تغيرت حال الطقس بصورة كبيرة. حولت السحب عصر ذلك اليوم إلى ما يشبه الظلمة، وبدت ناطحات السحاب بعيدة ومعتمة. بدأت ريح قوية وباردة بالهبوب. كانت تهب بشكل مركز عبر الممرات الضيقة بين الأبنية الشاهقة، وبينما كانا يعبران الطريق بدأت حبات المطر الكبيرة بالهطول.

«دعينا نسرع»، قال غوتوم وهو ينظر إلى السماء. «أعرف مكاناً نجلس فيه ليس بعيداً من هنا».

Twitter: @alqareah

كان يمشي بسرعة وكان عليها أن تركض بضع خطوات كي تستطيع اللحاق به.

«آسف، أنا أمشي بسرعة كبيرة»، قال ذلك وهو يبطئ من سرعته، «إنها واحدة من عاداتي السيئة».

«ليست عادة سيئة»، أجابت، بينما كان ينظر إليها، وعلى شفتيه طيف ابتسامة. كانت لديه ابتسامة لطيفة تبدأ بالتشكل في عينيه وتمتد عبر وجهه مثل ومضة طبيعية.

قالت: «ظننت أنك شخص مجنون جاء ليمزق لوحة بيكاسو تلك»، وأردفت قائلة وابتسامة فيها شيء من الإحراج تعلو وجهها: «في الحقيقة ظننت أنك كنت تتحدث إلى نفسك».

«كنت بالفعل، أقوم بذلك».

«ماذا؟»

«أجل كنت أقول لنفسي: نيويورك، متحف الميتروبوليتان، بيكاسو، أنت هنا أيها الوغد المحظوظ».

فتح لها الباب كي تدخل إلى الكافيتيريا لتناول الشاي. كان المكان مزدحماً وكان الناس يلجون إليه تجنباً للمطر.

«دعينا نذهب إلى الخلف لعلّنا نجد هناك طاولة. المكان هناك في الخلف أكثر هدوءاً».

Twitter: @alqareah

تبعته وهما يجتازان الطاولة الطويلة المليئة بأنواع المعجنات والموفينية والدونت، والسلال المليئة بالخبز الطازج الخارج لتوه من المخبز، والتفاح الأخضر والأحمر الملمّع. جلسا إلى طاولة لشخصين في القسم الخلفي من الكافيتيريا. كان في استطاعتهما رؤية أنوار نيويورك من خلال النافذة المنخفضة منعكسة على سطح مياه البرك التي شكلتها الأمطار ولم يكن هناك ما يشوشها سوى وقع أقدام المارة الذين كانوا على عجلة من أمرهم.

هكذا تعرف كل من غوتوم وروحيني أحدهما إلى الآخر؛ كان ذلك من خلال تناول إبريقين من الشاي من نوع الدارجيلينغ، وسلة من الخبز الطازج المحلى بالزبيب.

-٦-

ابقَ في الحاضر، ما عليك سوى مراقبة الحقول تختفي وراء نافذة هذا القطار. انتظرْ ظهور أشجار الأيكاليبتوس المزروعة على جانب قناة غانجا التي يبلغ عمرها مائة وخمسين سنة على الأفق. عندها سأعرف أنني وصلت إلى روركي. تمسكْ بأهداب الحاضر. الماضي اختفى قبل مدة طويلة ولن يعود أبداً. كثيرة كانت الأحداث التي وقعت منذ تلك الأيام. لم تعد السنّ التي وصلنا إليها تسمح لنا بالتفكير في هذه الأشياء، الأشياء التي حدثت عندما كنا صغاراً، كنا أذكياء وصادقين ومؤمنين وطربي العود ويافعين إلى درجة أن الذكريات ما

Twitter: @alqareah

زالت تؤلمنا. إذا عاد المرء إلى الماضي، يتمنى لو استطاع أن يغير ويصحح كثيراً من الأخطاء التي ارتكبها. كان ذلك من شأنه أن يودي بي إلى الجنون، وهذا سيمكن مينا وباسو والآخرين جميعهم من الذين يفكرون مثلهما من أن يبتسموا بثقة وفوقية.

يجب أن أفهم الإشارة من رسائل رو الإلكترونية. إنها تحاول قدر الإمكان تجنب ذكر أيامنا في بومباي؛ كما لو أن الصفقة الصامتة بيننا يمكن إحياؤها من جديد، أو كما لو أن في استطاعتنا إعادة إشعال نار حبنا المختلف من جديد.

أتساءل عن المدة التي تبقى فيها هذه الأشياء في ذاكرتنا، كما أتساءل إلى أي مدى من الماضي نستطيع أن نصل لنعيد ارتباطنا بأيام شبابنا؟ هذه الأشهر المعدودة البريئة في بومباي أكثر قيمة بالنسبة إليّ من كل السنين المديدة التي تلتها. لقد بقيت مع مينا مدة أربع عشرة سنة؛ عاشرتها في ليالٍ كثيرة، وتعاركنا مرات كثيرة. كنت أصرخ في وجهها، ثم، وبمنتهى البساطة سمحت لها أن ترمي بي جانباً وتغادر المنزل مع رجل آخر. قضيت نصف عمري تقريباً معها ومع ذلك لم أشعر قط طيلة كل تلك الفترة بالقرب منها كما شعرت مع روحيني. القبلات القليلة من مرحلة الشباب تلك كانت تساوي عندي كل ما حصل فيما بعد.

كانت جذوع أشجار الإيكاليبتوس الهيفاء القد، تلمع من بعيد. إنها

Twitter: @alqareah

الأشجار الوحيدة التي تكسر رتابة منظر هذا السهل الشاسع. وهذه القناة هي إنجاز هندسي قديم تم بناؤه بهدف استجرار الماء إلى هذه السهول الشاسعة. لم تكن قناة تحيط بها الأدغال الكثيفة والأحراش والأشجار المتساقطة، كما أنها لا تشبه القناة التي مشى بجانبها غوتوم وروحيني في آخر صباح لهما معاً.

-٧-

القناة التي وصفتها روحيني تقع بجانب ضفة النهر الشديدة الانحدار. كانت أشعة الشمس تتغلغل بين الأشجار وتنبسط على مجرى النهر الذي تغمر المياه جانبيه. وبين القناة والنهر كانت تنتصب الأشجار الصامتة التي بدأ الربيع يلامسها بانتظار حلول فصل الصيف المشمس. كانت بضعة براعم مبكرة من أزهار شجيرات الكرز تطل من بين الأوراق الخضراء. لن يمضي وقت طويل قبل أن يعج المكان بالجمال المورق. كانت أشعة الشمس المُرَقّطة تطفو فوق ممر المشاة؛ وكان اثنان من راكبي الدراجات يتحدثان أحدهما إلى الآخر وهما يجاهدان للوصول إلى نهاية خط سيرهما في أعلى التل. وكانت أصواتهما تبدو مرتفعة بشكل غير طبيعي وهي تخترق صمت المكان. وكان هناك أيضاً سنجابٌ أمٌّ يحمل سنجاباً رضيعاً كثيف الشعر بفمه، وهو يصعد في اتجاه الأغصان الرفيعة العلوية من شجرة ذات قضبان عارية إلى أن أعياه التسلق. في جانب آخر من المكان، كان هناك

Twitter: @alqareah

شخص يهرول وحيداً يمر بجانبهما، يرافقه كلب من فصيلة لابرادور وهو يركض بسعادة إلى جانبه. وكانت هناك فتاتان تتدربان على التصوير بكاميراتيهما في تلك الجنة من الضياء والظلال. أما وراء المغلاق القديم المهمل للقناة، فقد كان يوجد مقعد في مختلى صغير أخضر مُظلل. جلسا على المقعد بصمت. وقد بقيت أتساءل كيف وصلا إلى ذلك المكان إلى أن أخبرتني ذلك بنفسها.

أحياناً أعود بالذاكرة وأتساءل عما كانت حياتي ستؤول إليه لو لم أترك غوتوم وأغادر. أو لو قمت بتركه في وقت أبكر بكثير عندما بدأت أشعر بالخواء الذي أضحى معاناة دائمة فيما بعد. أظن أنه لا فائدة من التفكير في هذه الأشياء، فهو لن يغير شيئاً؛ لا في الحاضر الذي نعيشه، ولا في الماضي الذي فقدناه... فقط أقول إنني تعودت كل ذلك على ما أظن؛ لقد تعودت أشياء كثيرة...

أنا متأكد من أنها كانت سنة وراء أخرى ترقب تغير الفصول ونمو الأعشاب واحمرار لون أوراق أغصان الشجر خارج نافذة غرفة نومها، ومن ثم سقوطها وتبعثرها ضمن أكوام صغيرة صفراء وبنية الألوان في الحديقتين الأمامية والخلفية، وعلى سطح منزلها المائل إلى أن تسد مصارف المياه، وإلى أن يبدأ الجميع باعتياد الفوضى البنية اللون إلى درجة أن أحداً لم يعد يأبه لذلك.

اعتادت تَصَرّم السنين واحدة إثر أخرى؛ اعتادت أنوار شهر تشرين الأول/أكتوبر الرائعة، ألبسة عيد الهالاوين الطقسية واحتفالات عيد

Twitter: @alqareah

الميلاد. كما اعتادت نكهة التجدد الملازمة لنهاية كل سنة، والأمل المخبوء داخل الحزن المترافق مع الرحيل.

في صبيحة ذلك اليوم الخريفي الذي كتبت لي فيه (أو كما تصورتُ ربما أنها قد كتبت لي) عن الضباب الذي كان كثيفاً إلى درجة أنها كانت غير قادرة على رؤية الأشجار الكبيرة خارج نافذتها. أول ما ترغب في القيام به كل صباح هو النظر إلى تلك الأشجار. كانت تلمح أحياناً في فصل الربيع جيلاً جديداً من الخضرة، وفي الصيف كانت هناك عصافير حمراء اللون، وسناجب سود تقبع على غصن صغير، بأجساد مشدودة وتبدو عليها أعراض الحمل. أما في الشتاء فكانت ترى من خلال الأغصان العارية المستقيمة للأشجار، العري الأبيض للحقول البعيدة. وخلف تلك الحقول كانت هناك منازل وطرقات؛ وبين الحين والآخر كانت تشاهد الجزء العلوي لسيارة عابرة، أو حزمة من الأضواء المنبعثة من المصابيح الأمامية لسيارة في الليل. لم تعرف أياً من قاطني تلك المنازل. كانت تبدو تلك المنازل وكأنها مبنية على تخوم العالم. لكنها رأت دخاناً أبيض ينبعث من مداخن تلك المنازل نحو السماء التي كانت تبدو أكثر قتامة من ذلك الدخان بقليل.

لكن الضباب كان كثيفاً جداً في ذلك الصباح، لم تكن هناك سوى انطباعات واهية وضبابية تشير إلى وجودٍ لجذوع الأشجار الضخمة

Twitter: @alqareah

في الخارج. جلست على الأريكة قرب النافذة وقد طوت ساقيها تحتها، ودثارها الناجا الأحمر والأسود مرمي بشيء من اللامبالاة فوق كتفيها. كانت تجلس بهذه الوضعية في كثير من الصباحات وهي تحاول تجميع قواها كي تخرج من المنزل أو كي تشغل الكومبيوتر وتطّلع على بريدها الإلكتروني، أو تبحث عن موقع للدعايات أو الإعلانات. كانت تجلس هناك وتقرأ صحيفتي الصباح وتجول على غير هدى في أقسامهما غير ذات الأهمية مثل الأخبار المحلية وقصاصات عن أخبار الموضة والأزياء أو أعمدة الثرثرة السياسية التي لم تكن تعني لها شيئاً حتى بعد مرور الكثير من السنين. ثم إن هنالك كتبها التي استعارتها لمدة ثلاثة أسابيع في كل مرة من المكتبة العامة؛ وأغلبها كانت روايات جديدة لروائيات. كانت تلك الروايات عبارة عن قصص طويلة ضخمة تتناول مشاكل عائلية أو روايات تستند إلى رسائل كتبتها جدّات وقعن في حب رجل شرقي ساحر الملامح؛ وكان من بينها كتب عن السياحة والسفر كتبتها نسوة قضين بمفردهنّ سنة أو نحوها في فرنسا أو إيطاليا أو إسبانيا. حتى إنها فكرت مرة في كتابة شيء ما، مثل كتاب ربما تقص فيه سيرة حياتها. ربما وضعت قصتها الشخصية في مركز الرواية، هذه الفكرة كانت لتشكل حافزاً لها تتطلع إليه عندما تستيقظ في الصباح ودافعاً للتفكير عندما يجافيها النوم وهي مستلقية في فراشها في تلك الليالي الطويلة، وهي تراقب القمر يختفي ببطء من فوق الحقل خلف الأشجار.

Twitter: @alqareah

لم تلقَ في ذلك اليوم بالاً للصحيفتين المرميتين في المدخل المؤدّي إلى باب المنزل. فلربما التقطتُهما فيما بعد؛ هذا ما قالته لنفسها. ربما حاولت استحضار بعض الهمة لتجميع أوراق الأشجار اليابسة المتوضعة على المرج العشبي أمام المنزل في أكوام؛ ذلك أن شاحنة البلدية قد تصل في أي ساعة من هذه الأيام لشفط هذه الأكوام وسحقها. يفضل الأشخاص العاملون على تلك الشاحنة أن تكون هذه الأكوام مكدسة بجانب الممشى المحاذي للطريق، وتكون عادة أكواماً صغيرة مرتبة بشكل أنيق يبعثرها أولاد من المدينة القريبة عندما يقفزون من فوقها. ربما فكّرت في فرش هذه الأكوام ووضعها في أكياس. كان هذا الأمر يتكرر كل خريف؛ وكان الخريف يحل مرة كل سنة. لم يكن هناك ما يعبر عن المرور الذي لا هوادة فيه للزمن بشكل أفصح من تلك الأكوام من الأوراق اليابسة. بذلت جهداً جسدياً هائلاً كي تجر نفسها بعيداً عن النافذة وتهبط الدرج إلى الطابق الأرضي ومنه إلى المطبخ لتحضير فنجان من القهوة القوية.

مرت بها فترة من الزمن لم تكن تحلم فيها أن تحضر لنفسها فقط فنجاناً من القهوة. فقد كانت للقهوة في نهاية الأسبوع طقوسٌ ذات ذكرى عزيزة عليها وعلى غوتوم. كانت القهوة تثير لديه حماساً خاصاً في إحدى الفترات؛ إذ كان يقضي ساعات أمام آلة طحن القهوة في السوبر ماركت، يختار بنفسه حبات القهوة ويخلطها بحيث يحصل في نهاية المطاف على الوزن والنكهة المطلوبين، ثم يقوم بطحنها بشكل

Twitter: @alqareah

يتناسب مع جهاز تقطير القهوة في المطبخ، ولم يكن ينسى أن يضع بعضها في كيس منفصل ليشربها في المكتب. كان يحضر القهوة لكليهما في صبيحة أيام السبت، ويصبها في فنجانين على المنصة الخلفية ثم يصب الحليب ببطء على قفا ملعقة القهوة. كان كل منهما يتناول فنجانين من القهوة، وهما يتجاذبان أطراف الحديث، بينما تصدح الموسيقى من نافذة غرفة المكتب في اتجاه المنصة، ومنها صوب الأشجار خلف المنزل.

انتابتها فكرة مرفقة بتنهيدة: إنهما لم يقضيا صبيحة يوم السبت معاً منذ مدة طويلة. لم يكن ذلك بسبب أن غوتوم توقف عن تناول القهوة. فهو كان في حقيقة الأمر يعيش عليها. كانت الكؤوس الورقية ملقاة في كل جوانب مكتبه جنباً إلى جنب مع علب الكولا الدايت الفارغة وعلب البسكويت المملحة نصف المأكولة. كانت رائحة القهوة التي لا تبرح ذلك المكان تعشعش في تلك الأيام والليالي التي كانوا يحاولون فيها باستماتة وهَوَس، هو وزملاؤه، الإعلان عن ولادة شركتهم. وكان الأمر يقضي إما بإعلان فوري عن ولادة الشركة وإما بإعلان موتها إلى الأبد، أي إنها كانت تنتمي إلى شعار: «اليوم هي ذات معنى أما غداً فلا قيمة لها» في عالم تقنية البرامج الإلكترونية. فلو أقلع شخص آخر غيرهم بالفكرة قبل أن يقوموا هم بذلك، لضاعت عليهم سنوات من الجهد. لكن لو استطاعوا هم القيام بذلك أولاً، لكانت تلك الأيام والليالي، وكل تلك الأكواب من القهوة في المكتب

Twitter: @alqareah

تستحق هذا العناء. كان سيتم إشهار الشركة، وسترتفع أسهمها بسرعة الصاروخ في أسواق البورصة، وكان غوتوم سيحقق حلمه ولم يكن ذلك يعني الرغبة في تحقيق الثروة بأية حال، إذ لم تكن الثروة تشكل بالنسبة له الشيء الكثير، بل كان المال يعني له الإحساس بالأمان المادي. شرح لها هذا الأمر مرات عديدة على ورقات بيضاء فوللسكاب من خلال رسومات بيانية وحسابات ومعادلات وكتابات متعرجة باتجاه الخلف ومكتوبة بخط اليد. وقد أجرى لها حسابات منهجية دقيقة عن كمية المال التي يحتاجانها للاحتفاظ بذلك المنزل ودفع أقساطه، وتغطية نفقات كل واحد من أبنائهما في المستقبل لإنهاء دراسته الجامعية، وشراء سيارة ثانية، من دون أن يكون هناك أي قلق بشأن المستقبل. استمرت في مراقبة غوتوم طيلة السنوات الخمس الأخيرة، وهو يطارد حلمه بكل أحاسيسه لدرجة أنه بدأ يعيش هذا الحلم. وفي آخر جدال بينهما حول الموضوع قررت هي مواجهته.

«لسنا في حاجة إلى الأمان المادي يا غوتوم. إننا بخير، كما أن مدخراتنا سوف تغطي كل نفقاتنا عندما نتقدم في السن حتى إذا تقاعدنا هذا اليوم. لا يوجد سوى أنت وأنا».

رفع بنظره نحوها بسرعة في الوقت الذي أشاحت هي ببصرها عنه. كان يعرف أنه لا يوجد سواهما، إذ إنه لم يعد في مقدورها الإنجاب أبداً بعد إجراء عمليتي إجهاض.

Twitter: @alqareah

قررت حينها أنه لن تكون هناك أي مشاحنات حول هذا الموضوع بعد الآن. سوف تترك غوتوم يطارد حلمه. استوعبت فكرة أن هذا الحلم في المحصلة لم يكن طلباً للأمان أو لتمضية عطلات مريحة أو التحرر من تسديد الأقساط، بل كان رغبة في أن يكون في مستوى بقية زملائه من أيام الدراسة الذين شكلوا عصبة من المليورنيين الهنود. كان يرغب أيضاً في أن تجرى معه مقابلات في الصحف المحلية، وأن يدعى إلى فعاليات السفارة وأن يتم تقديمه إلى رئيس الوزراء الزائر كواحد من الذين حققوا الحلم الأمريكي العظيم وأنه حقق لبلاده مجداً من خلال تلك الصفقة. كانت تعرف أن حلمه هذا اجتاح حاضرهما.

كانت تدور في أرجاء المنزل على غير هدى وهي تحتسي القهوة. تنتقل من غرفة إلى أخرى كما لو أنها كانت ترى بعض الأشياء في المنزل للمرة الأولى. كانت هناك أرجاء في المنزل لم يستعملاها لشهور خلت، مثل ذلك الكهف الصغير الملحق بالجزء الأقل حجماً في غرفة الجلوس، الذي يحتوي على زوج من الكراسي باللونين الأزرق والأخضر، وخزانة الأدراج الخشبية الثقيلة الجوزية اللون. كانت هناك أيضاً صور معلقة على الجدار فوق خزنة الأدراج. كانت صوراً من عالم آخر، أو من حياة أخرى لمغامرات أثناء تمضيتهما للعطلات، وقيادة السيارة لمسافات طويلة في اتجاه الجزر والجبال، أو حتى الرحلة التي استغرقت سبعة أيام من الشاطئ الشرقي إلى الغربي عبر الأراضي

Twitter: @alqareah

الموحشة والطريق الدولي الذي لا تبدو له نهاية. كان غوتوم في هذه الصور يبدو لا مبالياً وفي كامل تألقه وروحه المرحة. وكان في إحدى تلك الصور رجل يلبس سترة فرائية ذات قلنسوة، ويحيط عنقه بدثار أنيق وهو يتزلج من أعلى المنحدر ثم يقفز بعدها إلى واحد من القوارب النهرية السريعة. كانت تضحك في كل تلك الصور. كانت لا مبالية وهي في مقتبل العمر.

حدقت في المرآة القديمة المعلقة على الجدار المقابل. روت عيناها كل القصة. كانت مضطربة ومتعبة. كما بدأت شبكة من الخطوط تظهر حول زوايا عينيها. مدت عنقها لترى إذا كانت التجاعيد قد اختفت. لم تختفِ كلياًّ. بدأت تقيس بواسطة إبهامها وسبابتها الموجة الجارفة من الشيب المنطلق من منتصف رأسها.

لم تسافر في عطلة خلال السنين الثلاث المنصرمة. تذكرت أنها سافرت بمفردها إلى الهند مرة واحدة ولمدة ثلاثة أسابيع، كما سافرت مرة واحدة إلى باريس. استمرت بالمشي في باريس لأربعة أيام بمفردها وقامت بما يفعله المرء عادة في باريس. ذهبت إلى برج إيفيل وحدقت من فوقه في نهر السين الذي تنساب مياهه بكسل، وتمخر فيه القوارب السياحية البيضاء؛ وتحت الجسور المبنية فوقه، كانت تتوضع المقاهي التي يقدم فيها الآيس كريم. جلست في المقاهي الرحبة الفسيحة، ونقبت في محلات بيع الكتب المستعملة قرب كنيسة نوتردام، وأنصتت إلى الموسيقى التي تعزف في الطرقات،

Twitter: @alqareah

وأجهدت نفسها في التجوال في متاهات أروقة متحف اللوفر. انكبّت على كتاب الدليل الذي في حوزتها، وجالت في الشوارع التي تحمل الأسماء الشهيرة. ولكن عندما عادت من رحلتها، لم تكن هناك أي لحظة يمكن أن تشارك فيها أحداً، ولم تكن هناك أي ذكريات عن إيقاعات لنغمات موسيقية؛ كما أنه لم يكن أحد بجانبها يربت برفق على مرفقها لتذكيرها كيف كانت أشعة الشمس تتغلغل من بين ثنايا السحب في تلك الأيام العاصفة فوق باريس، وتنعكس على قبابها اللامعة.

جَفَلَت بعنف بسبب رنين الهاتف، وكانت كما لو أن أحدهم هزها بعنف من كتفيها. كانت أجهزة الهاتف الثلاثة في غرفة النوم وفي المطبخ وفي القبو ترن في وقت واحد، بالرغم من أن كل واحد منها له نغمته الخاصة به. التقطت سماعة أقرب جهاز إليها، وكان في المطبخ. كانت خالتها من دلهي.

«روحيني يا ابنتي»؟

«خالتي تشاندا، مرحباً».

«عيد ديوالي سعيد».

لف روحيني الصمتُ لبرهة. بعدها أسرعت تقلب صفحة الروزنامة المعلقة على جدار المطبخ. كانت الروزنامة لا تزال تشير إلى شهر أيلول/سبتمبر.

Twitter: @alqareah

«الديوالي؟ آه، نعم. عيد ديوالي سعيد لك أيضاً».

«هل تعنين أنك لم تكوني تتذكرين أن اليوم هو عيد الديوالي؟ ما هو نوع العالم الذي تعيشين فيه»؟

«آه، المرء لا يلاحظ هذه الأمور هنا. لا توجد هنا الآن أي مفرقعات نارية، أو حلوى».

«أين غوتوم»؟

«إنه في مكان ما، على الساحل الغربي».

«وكم من الوقت مضى على سفره»؟

«حوالي ثلاثة أسابيع».

«إذاً أنت بمفردك في عيد الديوالي»؟

«هذا ليس مهماً يا خالتي، فلقد اعتدنا هذه الأشياء الآن».

بعد أن أعادت سماعة الهاتف، جلست إلى طاولة المطبخ بهدوء. هل اعتادت ذلك حقاً؟ هل اعتادت قضاء عيد الديوالي بمفردها؟ لم تتلقَّ حتى اتصال من غوتوم. لابد من أن هناك أشخاصاً آخرين، ربما في تلك المنازل خلف الحقول يحتفلون بعيد الديوالي. من الممكن أنهم ذهبوا إلى المتجر الهندي واشتروا بعض الحلويات والشموع من معرض عيد الديوالي. من المؤكد أن جولات من اللعب بالورق تجري

Twitter: @alqareah

الآن في المنازل حيث يلبس الرجال والنساء أجمل الألبسة الحريرية والمجوهرات، ويقامرون بمبالغ بسيطة من المال ويصلّون كي ترزقهم السماء المال والجاه. ربما تصرف كل هؤلاء بلباقة في عيد الديوالي. ربما في هذا اليوم بالذات سيوفرون عليها عناء الاستماع إلى انتقاداتهم اللاذعة للهند ولكل شيء فيها: الطقس والقذارة، والفساد ـ الكثير من الفساد ـ بدءاً من المطار! والبعوض، يا إلهي، البعوض... ليتها تستطيع الانضمام إليهم هذا اليوم، وإلى جانبها غوتوم؛ فبوجوده، لا شيء مما سبق سيثير اهتمامها.

لم يكن من المسموح لأحد أن يبقى بمفرده في ذلك اليوم. من المفترض أن يكون المرء في هذا اليوم مع من يحب. تذكرت أن أخاها كان دائماً يأتي في عيد الديوالي، وإن ليومين فقط، من كلية الهندسة التي يدرس فيها في مدينة بانغالور. كانوا يمارسون ألعاباً يقومون فيها بإشعال الشموع على طول جدران الفسحة الأمامية للمنزل، خمس منها في كل مرة؛ ويقومون بإطفاء الشموع التي أشعلها الآخر. كانوا يذهبون إلى معرض عيد الديوالي في نادي دادار كولوني ويراقبون عرض الألعاب النارية في ملعب التنس، وهي تضيء سماء الليل. ثم يذهبون بعد ذلك إلى المعبد وأحياناً يقطعون كل المسافة ليصلوا إلى المعبد الذي يعبد فيه إله يوم السبت المتلألئ بالأضواء وتفوح منه رائحة نبات القطيفة والبخور.

أجالت ببصرها خارج النافذة. كانت خالتها على حق. أي عالم هذا

Twitter: @alqareah

الذي تعيش فيه؟ من الممكن أن تشيخ وتموت هنا داخل فيلتها أو تحت الأشجار الداكنة الخضرة من دون أن يعرف بموتها أحد. بعد موتها سوف يجرون مزاداً عقارياً لبيع الفيلا؛ وستأتي جموع من الناس النظيفيي الأجساد والثياب في نهاية الأسبوع بكامل أناقتهم ليقتحموا تفاصيل حياتها الخاصة: رسائلها وكتبها وصورها وملابسها. سوف يأخذون شذرات من حياتها ويحملونها في سياراتهم أو على دراجاتهم.

عاد غوتوم من الساحل الغربي في اليوم الذي سبق عيد الهالاوين، وبعد يومين على انقضاء عيد الديوالي. وأمضى عصر ذلك اليوم في المنزل.

لم تخبرني روحيني بأكثر من ذلك. لم تخبرني إذا كانت قد أقلته بالسيارة من المطار، أو إذا كانا قد تبادلا القبلات في السيارة وهما في طريق العودة، أو إذا كان قد عاشرها وهو يغالب الإحساس بفقدان التوازن الناجم عن البقاء في الجو لمدة طويلة قبل أن يترك المنزل ويعود إلى العمل. قامت بحذف كل ذلك من ماضيها. لم تعلمني إلا بما حدث في الشتاء الذي تلا تلك الفترة، وهو الشتاء الذي سمّم حتى إحساسها بالعزلة بالرغم من أنها لم تقل لي ذلك بالضبط. فقد اعتصرت كل تلك الأشهر في جمل ثلاث:

حدث هذا في منتصف ذلك الشتاء حين بدأت أمعن تفكيري بالموضوع مرة تلو المرة ومن كل الجوانب. وكنت أجلد نفسي وأنا

Twitter: @alqareah

أقلب كل الاحتمالات والتغييرات الأساسية ومئات من العواقب المحتملة. جاء الربيع باكراً في تلك السنة وكانت الشمس تبدو أكثر إشراقاً. كان ذلك بالنسبة إليّ أشبه ما يكون بنذير شؤم... وشعرت بالحنين والرغبة في العودة إلى الوطن.

«أفعلُ كل ذلك من أجلنا. ألا تستطيعين استيعاب ذلك؟» صرخ غوتوم، ثم أخفض نبرة صوته إلى ما يشبه الدمدمة المحتقنة ذات مساء عندما أعربت عن تذمرها من أنهما لا يجدان متسعاً من الوقت يقضيانه معاً.

«أنا لست في إجازة. هذه فرص - تي - تنا الكبيرة».

حدقت في وجهه بصمت واستياء.

«لماذا لا تقومين بأي عمل؟»، ثم تابع قائلاً: «لماذا لا تمدين إليّ يد المساعدة في ما أقوم به، خذي دروساً في الكومبيوتر، أو اشتركي في سوق الأسهم، أو ابدأي بممارسة عمل خاص بك».

تساءلت في ما إذا كان قد فهمها يوماً من الأيام.

تحول الغضب ببطء إلى مسافة من الصمت بينهما. انغمس هو في حياته وبدأ يقوم بفعل ما توجب عليه فعله؛ ولم يكن يتحدث إليها إلا إذا اقتضت الضرورة القصوى ذلك. استمع إليها بوجه متجهم وهي تخبره أخيراً أنها تود السفر إلى الهند لفترة من الزمن. ثم قال شيئاً

Twitter: @alqareah

يفيد بأن مثل هذا العمل لا يقوم به سوى الهنود غير الحاصلين على حق الإقامة الدائمة. تأتين إلى أمريكا، وتنجحين في عملك، ثم ينتابك الشعور بالوحدة وتعودين إلى الوطن، وبعد ثلاثة أشهر، تعودين بعد أن تكوني قد رميت بالهند الموجودة في ذاكرتك خارج تفكيرك. استمعت إليه بصمت. وقبل ثلاثة أيام على موعد سفرها، عنّ على باله شيء. عاد إلى المنزل على غير عادته الساعة الثالثة بعد الظهر. رَكَنَ السيارة بهدوء، وعندما ولجتْ إلى غرفة النوم، أدهشتها رؤيته جالساً على السرير، وكانت كتفاه متدلّيتين إلى الأسفل، وهو يخلع حذاءه.

سألته: «ماذا حدث؟ هل أنت بخير؟»

«نعم، أنا بخير».

«إذاً ما معنى أن تعود الآن إلى المنزل، وتجلس بهذه الطريقة؟»

«ستهجرينني، أليس كذلك؟» استدار ونظر في وجهها. رأت دموعاً تترقرق في عينيه.

«سأسافر فقط لبعض الوقت ياغوتوم. سبق أن تحدثنا في هذا الموضوع منذ...»

«أعرف، أعرف».

استلقى على السرير بشكل جانبي، دافناً رأسه في المخدة. تحركت

Twitter: @alqareah

للجلوس بجانبه واضعة يدها على كتفه. انتفض بدنه وأجهش بالبكاء بينما كان يغطي وجهه بالمخدة ولم يكن في مقدورها رؤية وجهه.

«توقف عن ذلك يا غوتوم. إنك بهذه الطريقة تجعل الأمر صعباً لكلينا».

نهض من السرير ثم ذهب ليغسل وجهه. جلسا أحدهما قبالة الآخر بصمت بينما كان ضوء النهار يتلاشى تدريجياً خارج النافذة.

سألته «هل ترغب في تناول الشاي؟»، ثم ومن دون أن تنتظر جوابه، نزلت إلى المطبخ، وعادت بفنجانين كبيرين زجاجيين مليئَيْن بالشاي.

أذاع التلفاز في نشرة الأخبار المسائية عن هبوب إعصار قرب أوكلاهوما. حدقا في الشاشة في الوقت الذي كانت فيه أفكارهما تتجه إلى مكان آخر. كانا يراقبان لقطات تُظهر سيارات مقلوبة، وأسطح منازل مهدمة وأشجاراً هائلة الحجم مُقتَلَعة من جذورها. في كل مرة كان يتم الإعلان فيها عن هبوب إعصار كان غوتوم يقول عادة: «الإعصار شيء فظيع، لقد نجوت من إعصار مرة». كان يلمح إلى ذلك الإعصار الذي اخترق مدرسته التقنية مثل السهم الكاسح. تمسك بعمود في الممر والتصق به بينما كان الزجاج يتطاير من حوله، وأسلاك الكهرباء المقطوعة بفعل الإعصار تتأرجح في الهواء بشكل خطر، والأشجار التي كانت أعمارها تتجاوز المائة سنة مرمية في عرض الطريق، والتماثيل الغرانيتية مقذوفة في الحفر المفتوحة التي

Twitter: @alqareah

خلفتها الأشجار المُقتَلَعة من جذورها. كان هناك، وقام بعد مرور الإعصار بمساعدة أحد الأساتذة، لا حول له في الوصول إلى منزله بعد أن فقد المسكين نظّارته الطبية السميكة التي طارت في الهواء وتحطّمت على أحد الجدران. لكن غوتوم في تلك الأمسية، جلس يراقب التقرير التلفزيوني بصمت.

أنهت توضيب حقيبتيها الاثنتين في الأمسية التي سبقت موعد سفرها. وقد رتبت الحقيبتين بطريقة توحي أنها ستغيب في عطلة طويلة: الثياب والأحذية وحقائب اليد وبعض الصور وعدد قليل من الرسائل ومغلف أزرق يحتوي على شهاداتها الجامعية ورسائل التقريظ. في الصباح الباكر، كانت الحقيبتان مقفلتين ومُعَرّفتين بلاصقين، وموضوعتين قرب الباب الخارجي في الممر.

حدق غوتوم بالحقيبتين ثم نقل بصره إليها. لم يقل شيئاً لكنه بدأ يستعد للخروج.

كان لا يزال هناك بعض الوقت على موعد إقلاع الطائرة، لكن لم يكن هناك الكثير مما يمكن القيام به أثناء ذلك.

قالت روحيني التواقة إلى مغادرة المنزل: «دعنا نتمشّى قليلاً». فقد شعرت أنها إن بقيت في تلك الغرف فترة أطول، فلربما غيرت من رأيها وعدلت عن السفر.

Twitter: @alqareah

«أين؟ الآن؟»

«يمكن أن نذهب لهنيهة في اتجاه القناة، ثم نغادر من هناك مباشرة إلى المطار».

هكذا انتهى بهما المطاف إلى ذلك المقعد على ضفاف تلك القناة. جلسا هناك لهنيهة، وحاول كل منهما أن يقول شيئاً دون أن يعرفا كيف يبدآن الحديث. في النهاية لم يكن هناك الكثير مما يمكن قوله. بدا وكأن الأمور وصلت إلى نهايتها، تماماً كالآثار التي تتلاشى تدريجياً في الطريق إلى التلال الكثيفة الأشجار فوق القناة. هكذا، وبمنتهى السهولة.

أشعر بالشفقة على غوتوم. يتألم قلبي عليه بطريقة غريبة. إنه توأم روحي. تبدو شخصيته مثيرة للشفقة، وبريئة، وتنذر بكارثة وشيكة، لكن لا تنتابك هذه المشاعر تجاهه إلا بعد فوات الأوان. لا بد أنني أثرت المشاعر نفسها عند جامشيد والآخرين، وأيضاً عند نيني وراجيف اللذين كانا يعرفان بالثانية، اللحظة التي قررت فيها مينا سحب البساط من تحتي. كنت بالنسبة إليهم مجرد مقتنص للجوائز، كما يعرفون أنه لو أتيحت لي الفرصة يوماً فسوف أصفي حسابي معهم. ومع هذا، فإنني أتساءل عن كيفية قيامي بذلك. ربما قمت بحشو دثار حريري في حلق كلب نيني من فصيلة الشيهواوا حتى يختنق به، أو بسكب نقط من الحبر الذي لا يمكن إزالته على قمصان

Twitter: @alqareah

راجيف الوردية الفاتحة الألوان الموسومة بالأحرف الأولى من اسمه. قمصان وردية اللون! أعني تصوروا أن زوجتي هجرتني لتلتحق برجل يرتدي قمصاناً وردية اللون موسومة بالأحرف الأولى من اسمه...

إن هذه تعدُّ منتهى الإهانة، وهي تؤلم كثيراً.

-٨-

هذه أفكار فوضوية؛ إنها حمل لا يمكن السيطرة عليه. هناك الكثير من النهايات غير المتماسكة. أفضل الإحساس بالحزن الحاد النظيف بدلاً من هذه الفوضى العارمة: الحزن النظيف الهادف الذي له مواصفات النظافة والذوق الرفيع نفسها التي كان يتحلى بها معسكر روركي الكبير الذي أتذكره منذ أيام الطفولة. ربما تغير ذلك المعسكر، وربما لم يتغير، لكنني لست فضولياً إلى درجة الرغبة في الذهاب إلى المكان للتأكد من ذلك؛ فالذكريات تكفي. كانت جدران الثكنات مطلية باللونين الأبيض والأخضر حيث كان الجنود يزرعون المكان جيئة وذهاباً بسراويلهم القصيرة ذات اللون الخاكي، أو يلعبون الهوكي، أو يتمددون على الأسرة الخفيفة ذات النوابض المعدنية وهم يقومون بكتابة رسائل إلى الأهل تحت أضواء الليل الخافتة. تأخذني ذكرياتي إلى الشاي الممزوج بكثير من الحليب والسكر بجانب موقف الحافلات والذي كان يُصبُّ في طاسات بيضاء من الخزف الصيني السميك. كما

Twitter: @alqareah

أذكر أيضاً الرائحة النفاذة لحبوب الفاصوليا المقلية بالفلفل الأخضر والليمون الحامض الذي يغري بتناوله، كما يغري بالابتعاد عنه.

لا يغيب أبداً عن ذاكرتي أن روركي مرتبطة بحكاية امرأة إنجليزية تكاد لا تُصدّق؛ امرأة اسمها بياتريس هاريسون. كانت تعزف على آلة التشيللو الموسيقية في الغابة لاجتذاب طيور العندليب، وقدمت استعراضاً إذاعياً وفرّ لها قَدْراً من الشهرة بحيث أن إحدى المجلات كتبت تحقيقاً عنها، قرأته بعد عدة عقود. كانت شقيقتها تعزف على الكمان. وكانتا تشتهران بأنهما من عشاق مقطوعة براهام المسماة دوبل كونشيرتو. كما فازت بجائزة ميندلسون في برلين. وكانت المجلة التي أجرت تحقيقاً عن الشقيقتين بعد وفاتهما حيث أعقبت الوفاة الثانية، الأولى بسرعة، قد ذكرت أن بياتريس ولدت في روركي.

أتساءل كيف تمت ولادتها في هذه البلدة، وكم تعذبت في حياتها هنا، وما هو الشيء الذي تحرك داخل روحها ووجّهها نحو عزف آلة التشيللو. هل كان ذلك بسبب أنها كانت بعيدة جداً عن وطنها، ووطن أجدادها؛ هي تلك الابنة لأستاذ جامعي كان يدرس المهندسين المدنيين طريقة بناء أقنية بجانب الأنهار؟ هل كان ذلك بسبب أنه يتعين عليها السفر من هذا المكان إلى إنجلترا عن طريق البحر للالتحاق بالجامعة، أو للزواج بطريقة محترمة؟ وهل كانت حينئذ سعيدة؟ ربما لم تسافر قبل أن تقضي أفضل سني عمرها في واحد من تلك البيوت الفسيحة الأرجاء في مستعمرات القناة. ربما تزوجت

Twitter: @alqareah

واحداً من المهندسين وسافرت معه إلى أماكن غريبة مصطحبة معها آلة التشيللو المحبوبة التي تتدرب عليها طيلة الوقت حتى في تلك الليالي المضطربة عندما كان مستوى الماء يخرج عن حدود السيطرة، ويبدأ بتهديد ضفتي القناة الجديدة. لا أعرف عنها أكثر من ذلك، عدا أنه من الواضح أنها لم تبقَ في روركي طيلة حياتها. ماتت في سن الثالثة والسبعين في منطقة تدعى سمول فيلد في إنجلترا. سمول فيلد أو روركي. ربما كان منطقياً أن يختبئ المرء في تلك الأماكن المعزولة. عندما تعيش في أحد تلك الأماكن، وتموت فيها، لا تتحول آلامك وإخفاقاتك إلى أشياء تثير السخرية. فالطريقة الرومانسية والتقليدية القديمة التي عاشت فيها بياتريس هاريسون تجعلك قادراً على تحويل هذه الآلام والإخفاقات إلى شيء مغلف بالغموض والسموّ.

أبتعد عن نافذة القطار وأحاول مرة أخرى أن آخذ قسطاً من النوم.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

هاريدوار

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

-١٠-

الربيع هو وقت مناسب للموت إن كان في استطاعة المرء الاختيار. هكذا فجأة، حين تكون النسمات لا تزال تهب في بداياتها بين الأغصان، وأوراق الأشجار لا تزال طرية وخضراء نضرة، وحين تكون الورود لا تزال في مكانها حيث وقعت على الأرض، وحين يكون آخر ما ستقع عيناي عليه هو أوراق العشب الطرية النضرة الخضراء.

لو قُدّرَ لي أن أموت في الربيع، لن أكون مضطراً حينها أن أواجه وهج صيفٍ آخر كالصيف اللاهب في الخارج الآن. أشعر حتى وأنا داخل القطار المكيف، بالحرارة الثقيلة الجافة التي تصل إليّ قبل البدء بالتعرض للحرارة الضبابية الدخانية اللزجة الشديدة الوهج التي تلفح في الخارج. تنتابني رغبة شديدة في الولوج إلى غرفة مبردة أنزع فيها قميصي المشبع بالعرق وأمسكه بسبابتي وإصبعي الوسطى كما لو كنت أحمل بيدي جلديَ المحترق.

اشتريت السنة الماضية ثلاثة مكيفات، وركّبتها في المنزل. رميت بالمبرّد القديم على السطح. كانت هذه فكرة مينا قبل أن تقرر الرحيل. لا أدري إذا كانت ستقرر يوماً العودة لأخذ المكيفات أيضاً.

Twitter: @alqareah

ربما لن تكون بمثل هذه الوضاعة، فراجيف لديه مكيفات في منزله إذا لم تخنّي ذاكرتي. أنا متأكد من أن غرفة النوم التي يقضيان فيها كل أوقاتهما للتعويض عما فاتهما مكيفة أيضاً. إنها غرفة كبيرة ولها شرفة؛ فيها بعض الحصر المصنوعة من ألياف جوز الهند وأرضها من الرخام الأبيض.على الأقل هذا ما كانت عليه الغرفة عندما كنت هناك آخر مرة. أتساءل في ما إذا قامت مينا بإجراء تعديلات عليها، أو قلبها رأساً على عقب استناداً إلى التصميم الهندسي الداخلي للمنزل المحبب لديها. آمل أن تكون قد فعلت، فراجيف يستحق ما تفعله به. آمل أن تكون قد أدارت وضعية السرير، وأن تكون قد رمت بالنباتات بعيداً، وقطعت الأشجار أمام المنزل واستبدلت بحجر الكوتا الشبيه بالرخام في المدخل حجراً من الغرانيت، كما آمل أن تكون قد أخبرته بأن الباب القديم الذي يفصل بين غرفة الجلوس وغرفة الطعام له فأل سيّئ عليه... وبعدها سيتبين له البلاء الذي أوقع نفسه به.

دعوها تأتي وتأخذ المكيفات إن أرادت ذلك. لن أستجديها ألا تفعل. لقد عشت من دون مكيفات فيما مضى، كما أن في إمكاني إعادة تركيب المبرد بعد إنزاله من على السطح، وتركيب حُصُرٍ جديدة من القش وملء المبرّد بالماء من جديد. إنه أفضل من المكيّف، ونسماته أكثر إنعاشاً وطراوة وعَبَقاً ولا يعطي للآخرين انطباعاً بالفوقية لمالكه. في الغرفة التي بدأنا فيها حياتنا الزوجية، عندما كان العالم لا يزال شاباً، كنت أعاشرها كل ليلة؛ وأحياناً مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة. لم تكن لدينا حينها سوى مروحة. كانت

Twitter: @alqareah

مروحة رمادية كسولة مطلية بخطوط حمراء رفيعة، وكانت هذه الخطوط تمتزج باللون الرمادي وهي تدور بسرعة فوق سريرنا المزدوج. فكرة القيام بالمعاشرة مرتين أو ثلاث مرات في الليلة الواحدة بدأت تخيفني الآن. أستطيع أن أتحدث عن الموضوع الآن، كونها قد هجرتني. إذ إنه بعد تلك السنين الأولى، أصبح تكرار العملية ثلاث مرات في الأسبوع صعباً، على الأقل بالنسبة إلي، وليس بالنسبة إليها.

في أحد تلك الأيام التقيت في المكتب أحد الأشخاص، أخبرني أن في إمكانه تأمين مبرّد بالأجرة من أحد المحلات على الضفة الأخرى من النهر، وكانت هذه تعدّ صفقة زهيدة الكلفة يومها. كان ذلك المبرد من النوع اللافت للنظر، صُنِّعَ على هيئة المكيف. كان شكله غير مألوف، لكنه لم يكن يعمل بشكل جيد. بقيت أياماً طويلة وأنا أعمل على تحضير بلاطة إسمنتية لتركيبه عليها، مدعياً أنني كنت أفهم كيف يعمل ذلك المبرد بينما كانت مينا تنظر خارج الغرفة المُظللة وهي تنبهني لضرورة أن آخذ حذري كي لا أقع على المرج العشبي في الأسفل، أو كي لا أعرض نفسي لصعقة كهربائية، أو كي لا أجرح يدي بشفرات المروحة المخيفة إذا قررت المروحة أن تدور فجأة. أذكر أنني كنت أنظر إليها وهي منحنية خارج النافذة، وثدياها يستريحان بين ساعديها، وعيناها بلون سواد الفحم تلمعان في الشمس. قلت في نفسي إنها زوجتي؛ كما لو أنني أراها للمرة الأولى. إنها من يُفترض

Twitter: @alqareah

أن أتزوج الآن، وأن أحقق لها السعادة وأجعل منها زوجة غنية. لم يخطر في بالي حينئذ وأنا أقف على الإفريز تحت أشعة الشمس أن كل ذلك سيصل إلى نهاية محتومة، وأن السعادة سوف تُختزل في ذكريات متناثرة بعيدة. لم أكن أعلم حينئذ أن الناس يهجرون بعضهم بعضاً ويقتسمون الممتلكات مناصفة، ويأخذون الأولاد بعيداً ويفرغون خزائن الثياب والأدراج من محتوياتها ويمضي كلٌّ في سبيله. آه. أظن أنني كنت أعلم ذلك بشكل أو بآخر، لكنني لم أكن أصدق أنّ شيئاً كهذا يمكن أن يحدث لي أيضاً.

ذلك المبرد البائس لم يكن يوماً نافعاً بالمرة. لم أكن أجيد أياً من الأعمال الميكانيكية التي لها علاقة بقشاطات المراوح والمفكات والجوزات. كانت مينا تنتقدني لجهلي تلك الأمور. في كل مرة كنت أمسك فيها بمطرقة أو مفك براغٍ، كنت أشعر أنها تراقبني بانتباه وهي تدقق في كل خطوة أقوم بها؛ كانت تقارن بصمت بيني وبين والدها الذي كانت لديه على ما يبدو نزعة لأن يقوم بكل شيء بنفسه بدءاً من تصليح سيارته وانتهاء بإصلاح الغسالة؛ حتى إنها ذكرت لي مرة أن السبت أفضل الأيام بالنسبة إليه، ففيه كان يقوم بتزييت المراوح في كل أنحاء المنزل. لم يكن في إمكاني الارتقاء إلى مستوى هذا الرجل؛ وقد توقفت عن مجرد محاولة ذلك بعد الأشهر الأولى من زواجنا. لكن الشجار لم يتوقف. كنا نتشاجر في كل مرة شوّهت فيها منظر الجدار، وأنا أحاول دق مسمار فيه، أو جرحت يدي وأنا أحاول تركيب مأخذ

Twitter: @alqareah

كهربائي. في أحد الأيام، انتابتني موجة من الإحباط دفعتني إلى تحطيم مرآة الكريستال بالمطرقة... في أي حال، دفعت كلفة استئجار المبرد لمدة شهرين وأعدته إلى المحل الذي استأجرته منه على الضفة الأخرى من النهر؛ وعدت إلى استعمال المروحة الرمادية والحمراء. كنت لأُذكِّر مينا بهذا لو عادت لأخذ المكيفات. أعرف أنها كانت ستلين وتبتسم لبضع دقائق وهي تعض على شفتها السفلى، قائلة إنه يمكنني في الواقع الاحتفاظ بالمكيفات كلها. ثم كانت ستعود إلى قسوتها المعهودة وملامحها الجادة. حسنٌ، ليتها تأتي الآن لتأخذها... لو أرادت ذلك، لكان عليها القيام به الآن، وإلا فإن الوقت سيكون متأخراً لأن الصيف على وشك الانقضاء؛ كما أن الأضواء بدأت تتغير.

- ٢ -

أُمسكُ بمجلة أَستلّها من جيب المقعد. كانت مجلة عن الطيران الداخلي نصفها مكتوب بالفرنسية والآخر بالإنجليزية. ربما كانت مجلة أحضرها معه فيجاي سينغ من رحلته، ونسي أن يأخذها معه إلى المنزل. أشعر بالحزن تجاهه. كانت المجلة هي الشيء المناسب لإحضاره إلى المنزل ورميه بنوع من اللامبالاة المفتعلة على طاولة الطعام في ساهارانبور. كان أي شخص سيرى المجلة من أبناء أو جيران أو خدم، لا بد من أن يتخيل فيجاي سينغ في ذلك العالم العَبِق

Twitter: @alqareah

برائحة العطر والمليء بالحسناوات والمنتجعات الساحلية والمراكز التجارية الراقية وكؤوس الويسكي بالثلج. لو لم ينس أن يحضر معه تلك المجلة لكان إحساسه بالنصر كاملاً؛ وكان سيوفر على نفسه الدخول في تفاصيل عالمه الذي تكتنفه الوحدة في شقة تابعة للشركة التي يعمل فيها؛ يطهو فيها طعامه من الخضروات التي يشتريها من محال رخيصة في لندن. ليتني أتوصل إلى طريقة أستطيع من خلالها إيصال هذه المجلة إليه؛ لكن ساهارانبور الآن بعيدة جداً وراءنا.

أقلب صفحات هذه المجلة بشرود محاولاً استحضار ما أتذكره من اللغة الفرنسية التي تعلمتها في دورة تدريبية لمدة ستة أشهر قبل خمس وعشرين سنة. كان يقوم بالتدريس فيها رجل فرنسي أصلع يلبس بنطالاً أبيض يرفعه بواسطة حزام مشدود إلى أعلى بطنه. وكان يظهر من جواربه البيضاء فوق حذائه الجلدي الأسود السميك مقدار بوصتين. كانت له تلك النظرة الموحية بالفوضوية والنزوع نحو المناكفة، كما لو أن قطعة من البيض المقلي ما زالت عالقة في زاوية شفتيه، من بقايا إفطار تم إعداده على عجل في شقته الواقعة في الطابق الثالث بمنطقة كاملا ناجار. شعرنا بإحراج متبادل عندما تصادف وجودنا في إحدى الأمسيات بمحلٍ في أحد الأقبية التي كنا فيها لشراء ألبسة داخلية. قام بتغليف هذا الإحراج بنكتة على الطريقة الفرنسية التقليدية، وتم تجاوز تلك اللحظة بالخروج إلى الشارع لتناول كؤوس من الشاي الموشاة بمسحوق الشوكولاتة في أحد محال بيع

Twitter: @alqareah

الخبز على زاوية الشارع. لم أتناول مثل هذا النوع من الشاي مرة أخرى قط. وفي المناسبة، لم أتناول بعدها ثانية، أي نوع من الشاي مع شخص فرنسي.

أبدأ بقراءة مقالة تبدأ في منتصف إحدى صفحات المجلة.يظهر أن هذه المقالة هي توصيفٌ لما يحدث لي على ما يبدو؛ أو على الأقل لواحد من الأشياء التي تحدث لي. أطلق عليها أحد البروفسورات تسمية السايبرفوبيا في محاضرة له ألقاها في إحدى الحلقات النقاشية بمدينة ألمانية صغيرة في البلاك فوريست. استشهد البروفسور بحالة محددة تشبه حالتي وطوّر من خلالها نظرية. أَدهشتني قدرة هذا الرجل على توصيف حالتي في أقل من صفحة مطبوعة باللغة الإنجليزية وما يوازيها بشكل أو بآخر باللغة الفرنسية. المصاب بالسايبرفوبيا، كما أفاد البروفسور لوتويز هو ذلك الشخص الذي يقوم بعمل جيد لكنه لا يتأقلم أو يتكيف مع كل مظاهر التقدم التكنولوجي والإلكتروني. ينتاب هذا الشخص إحساس متزايد بهوس يستهلك أعصابه تجاه الشباب البارعين الذين يتقنون علوم الحاسوب، والذين يطاردونه وظيفياً وتتم ترقيتهم في السلم الوظيفي بحيث يصبح هو وراءهم بأشواط. وهذا التطور، في رأي البروفسور لوتويز العجوز الذي يتابع شرحه مقترباً أكثر فأكثر من لب الموضوع إلى درجة أنه يلامس جوهر مشاكلي، يتصادف مع مستهل أو بداية التغييرات الجسدية. فالذكر، كما أحب أن يشير إلى وضع من هم في مثل

Twitter: @alqareah

حالتي، يبدأ بالمعاناة من الصلع وفقدان القوة العضلية، كما يبدأ بالمعاناة من تفاقم الإحساس بالضعف الجنسي المترافق مع أزمة منتصف العمر.

أُبعدُ جانباً كيس رقائق البطاطا الذي كنت قد فتحته للتو. إنه شديد الملوحة ويحتوي على كثير من الحريرات العديمة النفع. بلطف أقوم بتمرير يدي على شعري الذي بدأ يخف في المنتصف طبعاً بالرغم من أنني لا أستطيع حتى الآن وصفه بالصلع. الضعف الجنسي، حسنٌ، بلى؛ أظن أنه كان محقاً بين الحين والآخر. ولكن لوتويز ما كان ليتوقف عند هذا الحد؛ فلقد استخدم مبضعه وبدأ بتشريح مشاكلي النفسية، وبدأ ينزع الطبقة منها إثر الأخرى مثل جراح ماهر ذي عينين زرقاوين نفاذتين وفم مفعم بالتصميم. يصبح حينها الذكر محبطاً، ومصاباً بالأرق ومتعباً. يشكو من حموضة في المعدة، ويبدأ بمعاقرة الخمرة والتدخين بشراهة؛ وفي المرحلة الأخيرة، يفقد الرغبة في معاشرة زوجته. ضمن المعايير الآنفة الذكر، يمكن اعتباري من دون أدنى شك، بطل السايبرفوبيا الذي يجب وضعه في قفص زجاجي ليجوب لوتويز به العالم بعد أن يحصل على جائزة نوبل أو ما يعادلها.

تستقر سرعة القطار على إيقاع منتظم وهو يمخر عباب السهول. قرأت بسرعة ما وصفه لوتويز على أنه المرحلة الأخيرة من الأعراض التي تنتاب مرضى السايبرفوبيا كما لو أن ما ذكره من أعراض لهذا المرض حتى الآن هي أعراض تدعو إلى التفاؤل. يقرر الذكر القيام

Twitter: @alqareah

بمبادرة لإزالة أعراض اليأس الذي يشعر به. ينضم إلى نادي جيمنازيوم ويبدأ بارتداء ثياب يلبسها عادة الشبان. يبدأ بارتداء ثياب رياضية شائعة بين الشباب مثل السراويل ذات ثلاثة أرباع الطول العادي (لا أدري لماذا سميت كذلك. كنت دائماً أعتقد أنها ليست أكثر من سراويل قصيرة ضخمت بشكل متعمد). كما يحلق شعره لهدف مزدوج، الأول يتعلق بالجاذبية الجنسية والثاني يتعلق بإخفاء الصلع. والأنكى من ذلك أنه يبدأ بارتداء الساورنغ في المنزل وهو لباس للجنسين. ثم يبدأ بارتياد الحانات أو النوادي مع أشخاص أصغر سناً؛ وتبدأ علاقته بأولاده المراهقين وزوجته التي انزلقت إلى سن اليأس بالتوتر. بعدئذ، وحتى تكتمل دورة انحداره نحو الجحيم، يقيم علاقة مع صبية شابة يلتقيها في إحدى الحانات، لها طموحات بأن ترتقي السلم الاجتماعي، ثم تكتشف زوجته هذه العلاقة، ويعرف كل موظفي المكتب بهذه العلاقة. وأخيراً ينهار زواجه ومهنته وأحلامه حول الأبوة المثالية فوق رأسه. كل ذلك بسبب أنه من الناحية التقنية، ليس مع من ينتمي إليهم من التقليديين المملين ممّن هم في سنّه.

بالطبع كان من السهل عليّ تبين أن الحالات الموصوفة غير مطابقة لما أمرّ فيه. فأنكور لم يصل إلى سن المراهقة بعد، ولم أبدأ بعد بالذهاب إلى الجيمنازيوم أو بارتداء الملابس الشابة اللافتة للنظر، وبالطبع لم أستطع أن أقيم علاقة غرامية ستكشفها مينا فيما بعد مع امرأة شابة. لو صادف أن ذلك حصل واكتشفت مينا هذه العلاقة لكان

Twitter: @alqareah

الفراق بيننا قد تم بشكل أفضل. كان ذلك سيعطي الطرفين مبرراً للانفصال، وكان سينكر على جامشيد متعة النظر إليّ على أنني فاشل ومغفل، بل كان سينظر إليّ على أنني شخص لا يزال في إمكانه الحصول على امرأة شابة ومعاشرتها. كان ذلك سيشكل صفعة لمينا أيضاً لأنها تركتني لتعاشر راجيف. كان ذلك سيشكل انتقاماً بالمطلق رداً على عبارة قالتها لنيني على الهاتف وسمعتها عن طريق المصادفة؛ فقد اشتكت من أنها غير راضية عن حياتنا الجنسية، لأنها في كل مرة كانت على وشك الإحساس باللذة، كانت رائحتي توقف هذا الإحساس لديها. آلمني ما سمعته في العمق، وما كان ليشفي غليلي بالكامل سوى أن أثبت لها أن ثمة امرأة أخرى تشعر بأنني أروقها: أنا ورائحتي وكل شيء فيّ، وأنها وجدت المتعة التي تنشدها بمجرد أنها كانت برفقتي. لكن شيئاً من هذا لم يحدث بطبيعة الحال.

لم أتابع دراستي في مجال الحاسوب بما فيه الكفاية، هذا صحيح. لا أعرف كيف أقوم بتنزيل الموسيقى على الحاسوب؛ ولا أستطيع أن أحمّل برنامجاً من شبكة الإنترنت؛ لا أعرف ولا يهمني أن أعرف ما تعنيه عبارة «هوتميل». كان راجيف دائماً بارعاً في ذلك، ولكن ماذا يعني هذا بحق الجحيم؛ بالتأكيد، لا شيء من هذا يهم. فلقد فضلته مينا عليّ لأنه أبرع مني في الفراش، وليس لأنه يستطيع أن يحمّل برنامجاً على الحاسوب.

لكنني أستطيع أن أفهم السبب الذي حدا بباسو أن يبتسم بشيء

Twitter: @alqareah

من التسامح وهو ينظر إليّ وأنا أحدق في شاشة حاسوبي، كما أفهم السبب الذي دفع جوي أن تترك لي على سبيل المساعدة، عناوين إلكترونية على أوراق صفراء أحتاج إلى التواصل مع أصحابها. أفهم لماذا كان بنطالي ملفوفاً على حزامي، ولماذا بدأ باسو بثقة وتؤدة يشعر بالانتصار عليّ.

رأيت ذلك أول ما رأيته في مشيته الواثقة وهو يمر أمام مكتبي من دون أن ينظر إلى داخل المكتب، ومن دون حتى أن يطل برأسه ليلقي التحية من الباب كما تعود أحياناً أن يفعل ووجهه السمين المنتفخ داخل بابي كما لو أن دخوله إلى المكتب كان سيلوث وجهه. وطبعاً لم يعد يأتي إلى المكتب لتناول فنجان من القهوة. قام بذلك مرة واحدة منذ حوالي سنة؛ فقد ولج إلى المكتب بعد الغداء وسحب سيجارة دنهيل من العلبة، وحاول أن يقرأ كل الأوراق الموجودة على الطاولة من ألفها إلى يائها، وحدق في المجلات محاولاً التأكد من وجود مجال للاشتراك فيها؛ وعلى العموم كان يحاول التصرف بتودد. ثم، وفيما نحن ننتظر أن تبدأ القهوة بالتنقيط من خلال المصفاة في الفنجان الزجاجي، وبينما كنا ننتظر انتشار عبق رائحة القهوة تملأ المكتب، كنا نتبادل بعض النكات الخفيفة، وهي من النوع الذي يتبادله الرجال الناضجون، الرجال الذين ليسوا في حاجة إلى خداع بعضهم بعضاً، رجال يعرفون أنهم في سبيل المحافظة على غريزة البقاء يتوجب على الواحد منهم أن يطعن الآخر في الظهر من دون أن يشعر بكثير من

Twitter: @alqareah

تأنيب الضمير. بعدها كان يحتسي قهوته ويطفئ سيجارته بشكل متعمد ومؤلم في المنفضة الخزفية الزرقاء على طاولتي الصغيرة الجانبية، وينظر إلى نفسه في المرآة المعلقة على الجدار بكثير من الرضى ويقوّس حاجبيه ويسحب معدته إلى الخلف ويشد مؤخرته ثم يغادر المكتب. أجدني مضطراً بعد خروجه إلى فتح النافذة وحمل الفنجان الذي شرب فيه القهوة بعيداً، وإعادة ترتيب موقع الكرسي الذي كان يجلس عليه ورمي عقب سيجارته. في ذلك الوقت كان الواحد منا لا يزال في طور مراقبة الآخر بقصد التعرف إليه وتقدير حجم كل منا في نظر الآخر. كان هو المتحدي بربطة عنقه الحمراء، وسيجارته التي يحملها في يده ومعدته المسحوبة إلى الخلف في الزاوية اليمنى. أما البطل، الذي كان في منتصف العمر، وكان يلبس ربطة عنق حريرية قديمة ورفيعة، والشيب يغزو رأسه، ونظارته الطبية التي يستعملها من أجل القراءة في جيب قميصه، فقد كان يقبع في الزاوية اليسرى. لكن هذا كان منذ سنة ونيف، عندما كنت لا أزال أميل إلى الإعتقاد بأنه يمكن التسامح مع كثير من الصفات التي يتمتع بها باسو؛ كان ذلك عندما لم تكن لديّ أي فكرة عن علاقته بنيتا أو عما فعله بزوجته، أو عندما التقيت ابنه وكان في عمر أنكور؛ حتى أنني فكرت في أنه ربما كان من المستحسن أن يجتمع الولدان، ويتحدَّثا ويلعبا التنس ويتبادلا الملاحظات ويتراسلا عن طريق الإيميل. ما شاء الله! كان ذلك سيبدو عظيماً. أنكور وابن باسو يتبادلان المراسلات عن طريق الإيميل. بمَ سيتحدثان، وعمّ يتبادلان

Twitter: @alqareah

الحديث؟ هذا ما سألته لنفسي: هل سيخبر ابن باسو أنكور كيف خدع أبوه والدته، وفي المقابل هل سيخبر أنكور ابن باسو كيف هجرت والدتُه والدَه؟ والد من فيهما هو الأكبر؟ كانت القضية برمتها ستشكل أحجية ممتعة. أفترض أنني لو ذهبت إلى مكتب باسو مباشرة وهو يلتهم طعامه من المعجنات بنهم وأخبرته عن هذا الأمر، هل كان سيضحك؟ أم هل كان سيزمجر ويهتاج بينما أراقب شريحة من البندورة المجففة بحرارة الشمس تنطلق من فمه الشنيع المنظر ويتطاير رذاذها على قميصه الأبيض ثم تستقر هناك تماماً فوق أعلى كرشه الذي يبدو كإطار سيارة؟

-٣-

لم أكن قد بدأت تناوُل غدائي عندما دخلت جوي إلى مكتبي ببدلتها المصنوعة من الكتان المتجعد تجعّداً الذي هو سمة هذا النوع من القماش؛ أغلقت الباب خلفها بإحكام. كنت أعاني ما أسميه أعراض الساعة الثانية عشرة والنصف التي يتسبب فيها اضطراب في توازن السكر في الجسم كما قال لي الدكتور راو. أشعر بشيء من الخواء في رأسي بدءاً من صدغي بالإضافة إلى ألم خفيف لكنه مستمر في جدار معدتي. إذا لم أفعل أي شيء حيال ذلك بحلول الساعة الواحدة بعد الظهر فسأجدني أقوم وأقعد بشكل متكرر. وإن بقيت بعدها من دون طعام لمدة خمس عشرة دقيقة فسوف أصرخ في وجه أي شخص أجده أمامي.

Twitter: @alqareah

لهذا السبب نظرت إليها نظرة مشوبة بالإحباط ولكنني لم أظهر أمامها أي عارض من عوارض الدهشة. لم يكن من طبعها أن تغلق الباب وراءها. لم نكن نقوم بأي شيء من هذا القبيل في ذلك المكتب. كان هذا سيؤدي إلى بدء حملة من الهمس الآني في كل الشركة ضدي وضدها، وتكون مادة تلك الحملة الأشياء الجديدة الغريبة التي كنا قد بدأنا نمارسها وراء أبواب مغلقة. كان الأمر في حاجة إلى مجرد إشارة أو إيماءة واحدة أو اثنتين من باسو لنصبح مضغة في أفواه الجميع. مثلاً، كنا نتشاجر بعنف إلى درجة أننا لم نكن نريد أن يستمع إلينا أحد؛ أو أن جوي كانت تبكي على طاولتي، أو أن جوي كانت بين ذراعيّ، وأن كلينا كان يضحك؛ كان الله في عوننا! نضحك معاً...

«هناك أمر شخصي، أقصد أنه أمر شخصي بالنسبة إليك»، قالت هذه العبارات بصوت جاف ومتقطع الأنفاس كما لو كانت قد صعدت عتبات السلم مرتين. لكنني أعرف أنها لم تفعل لأنها جاءت من مكتبها؛ لقد رأيتها من خلال الزجاج.

سألتها وأنا أخفي تعابير وجهي واضعاً يديّ على ركبتيّ: «من هو هذه المرة؟»

«لا تسألني عن أسماء؛ جميعهم. إنني أسمع هذه الأشياء منذ وقت طويل. لكن الأمر الآن وصل إلى نقطة حرجة. ترددت لوقت طويل قبل أن أقرر أن أخبرك بهذا. ولكنني أعتقد أن إحساسي بالواجب يحتم عليّ...»

Twitter: @alqareah

نظرتْ بسرعة إلى وجهي متسائلة على ما يبدو حول ما إذا كنت سأسيء فهم تلك النظرة. أردت أن أقول لها: «تابعي ياجوي، أعرف أن ما دفعك إلى ذلك هو شعورك بالواجب، إنه ذلك النوع من الشعور الذي يحس به المرء حيال كلب أو قطة. لا أعتقد أن ما تقولينه مبعثه الحب ولا أعتقد أنني سأسيء فهم أي شيء».

حدقت في الباب. كان لا يزال مغلقاً، ولكن لم تكن هناك أي وجوه تتلصص من خلال الزجاج الفاصل.

«هل نحن مضطرون إلى إغلاق الباب؟»

تجاهلتْ هذه الملاحظة.

«يقولون إن ما جرى خطأٌ بخطأ، على صعيد العلاقات العامة، على صعيد مكتب الارتباط الإعلامي، وعلى صعيد المشاريع الجديدة التي تدخل بشكل عام في مجال عملك. لا شيء يتحقق من كل هذا. يقولون إنك متردد وضعيف ومضطرب... وأشياء من هذا القبيل. لست متأكدة من أنه يجب عليّ إخبارك بكل هذا؛ يقولون إنه، إنه لو قام أحد بتحذيرك سلفاً من هذه المخاطر، فإنك ربما استطعت مواجهتها».

«أعتقد أنه لا حاجة بي لأن أسألك عن تفاصيل، أليس كذلك؟»

«ما أعنيه هو أنني لا أعرف ما إذا كان بقي شيء آخر أستطيع قوله. عليك أن تستنتج ذلك بنفسك على ما أظن. حاول أن تسيطر على

Twitter: @alqareah

الأمور بطريقة أو بأخرى، أوقف ثرثرتهم التي تهيم في أرجاء المكان. ربما من الأفضل لك أن تأخذ إجازة ليوم أو يومين وتفكر في الموضوع، وترعى مصالحك».

«إنه باسو. أعلم ذلك. إنه دائماً يضعني هدفاً نصب عينيه؛ يقحمني بين نكاته السمجة وطعامه الخفيف من مطاعم الوجبات السريعة. هل ما زال على هذا النوع من الحمية أم تراه عاد إلى تناول المعجنات مرة أخرى؟»

«كيف يمكن لك أن تتعامل مع مثل هذه الأشياء بهذا النوع من المزاح! هذا هو السبب الذي يجعلك تقع في مثل هذه المطبات. أشعر أحياناً أنك أنت من يستحق أن يكون مكانه».

ابتسمتُ عندما نطقتْ بهذه العبارات. لم تتفوه قطّ بكلمات أكثر مباشرة وإخلاصاً من هذه، ومن دون أن يشوبها أي تكلف أو تخفي وراءها أي دافع، ومن دون أي تجهم أو تصنع في نطق الكلمات. لقد خرجت كلماتها تلك من القلب؛ وشعرت بلمسة غريبة من الدفء والصداقة في كلماتها، وهو إحساس لم أعهده منذ مدة طويلة.

«لا تقلقي بشأني يا جوي. أنا متأكد أن الأمور ليست على هذه الدرجة من السوء كما تبدو. أعرف أن هذا القول يبدو وكأنه مجرد كليشة غبية؛ قد تكون الأمور أسوأ. لكن ـ وأنا مؤمن بهذا فعلاً ـ هناك قَدَر أكثر فاعلية يتم هنا. هل قرأت رباعية عمر الخيام التي تتناول

Twitter: @alqareah

القدر الذي يتلاعب بنا على رقعة كبيرة من الشطرنج ثم يعيدنا إلى الصندوق عندما تنتهي اللعبة وينتهي كل شيء؟ هذا ما أؤمن به. سيعتاد باسو ما يجب عليه القيام به؛ يجب عليّ أنا أيضاً القيام بحركة وأتجاوزه أو أدعه يتجاوزني. حينئذٍ يتعين على أحدنا أو كلينا الدخول في ذلك الصندوق. سننتهي جميعاً في ذلك الصندوق. عندما تبدأين النظر إلى المسألة بهذا الشكل، يمكنك أن تستديري وتعودي ثانية إلى النوم».

للمرة الأولى أرى جوي تنظر إليّ بدموع متحجرة في مقلتيها، في الوقت الذي كانت تمسك بحافة الطاولة وتضغط بأصابعها بقوة على الزجاج وتترك آثار بصماتها التي ظهرت عليه بمجرد أن حركت يديها باحثة عن منديل قماشي مكوي بأناقة، ومطرز بورود صغيرةٍ صفراء قليلة العدد؛ وعندما أمسكت به، قامت بمسح زوايا عينيها بطرفه من دون أن تلمس الكحل الذي يلفهما، وفي الوقت نفسه، تحرص على ألا تتسرب أي دمعة من عينيها.

أردت أن أنهض وأعانقها، وأقبل شعرها، وأطلب إليها أن تذهب إلى منزلها، وتهتم لأمر والدتها، أو تفكر في زوجها السابق، أو كلبها أو قطتها أو القسط التالي للسكن. لتفكر في أي شيء سواي؛ هذا ما رغبت في أن أقوله لها. أردت أن أهمس في أذنها قائلاً إن أياً مما ذكرتهِ لا يهمني يا جوي. لقد بدأت لتوي الإحساس بالانفصال عن كل هذا العالم. كل ما ذكرته يمكن أن يؤذيني لكنه لن يؤلمني. لكنني لم أستطع أن أقول لها أياً

Twitter: @alqareah

من ذلك. لم أستطع سوى أن أظهر لها أن ما ذكرته لم يهزني لأن شعور الساعة الثانية عشرة والنصف بدأ يزحف في اتجاه الساعة الواحدة بعد الظهر. والذي يترافق مع الصداع الذي يبدو الآن أكثر إلحاحاً. وهكذا أخرجت علبة البسكويت الخالي من السكر وقدمت لها بعضاً منه، وأخذت لنفسي اثنتين من قطع البسكويت تلك.

لم أعرف إلى أي مدى يمكن أخذ مخاوف جوي على محمل الجد. لكنني في اليوم التالي عندما دخلت حانة مبنى هابيتات سنتر في الطابق السادس للاحتفال بعيد ميلاد باسو الخمسين، كنت محط أنظار الجميع الذين يرون في منظري ضحية للغدر بالرغم من كل ادعائي بعدم الاكتراث. وجدتني، وأنا جالس إلى طاولة مستديرة هائلة الحجم مع أكثر من عشرة من المدعوين تحت جهاز تلفاز يعرض مباراة مسجلة في كرة المضرب، أقيس كل جزء من حجم ابتسامته، وأتابع كل نظرة يلقيها، وأصغي إلى كل احتمال لغمزة أو تلميح يمكن أن تحويها حتى أكثر العبارات التي يتفوه بها براءة. لكنه كان مضيافاً ولبقاً وجذاباً في تلك السهرة. شربنا نخب صحته من كؤوس الجعة المثلجة متمنين له طول العمر. شكرنا كما لو كان إلهاً كريماً. إن شكله يوحي بسنوات عمره الخمسين، هذا ما قلته لنفسي؛ أنظر إلى الطريقة التي يحرك بها فكه، وكيف يتمدد خداه في اتجاه الأعلى، وكيف أن حاجبيه يكادان يختفيان، ربما قام بحلاقتهما عندما بدأت ملامح الشيب تظهر فيهما. أما عن نيتا، فهو ما زال يحتفظ بنيتا.

Twitter: @alqareah

«يسعدني أنكم استطعتم جميعاً القدوم. أعني لحضور حفلة عيد ميلاد لشخص في هذه السن! ولكن لا شك أنكم تعرفون نيتا؛ إنها دائماً كذلك. إنها تجعلني أشعر بأنني ما زلت شاباً».

نعم؛ كلنا يعرف من هي نيتا. لم تقم بأي محاولة لإخفاء حقيقتها. كانت تظن أنها لا مبالية وجذابة وشابة وغامضة وأنها قِبلة للرغبة. كانت أصغر من باسو بحوالي خمس عشرة سنة بالرغم من أنني لاحظت منذ أسابيع عدة أن بعض مظاهر الأنوثة تظهر على أطرافها النحيلة. ظننت أن ذلك ناجم عن إحساسها بالسعادة. لم أكن أستطيع مقاومة التفكير في أنها كانت من النوع الرخيص الذي لا يتمتع بنعمة الخجل، وتجلّى ذلك في الطريقة التي كانت ترمي فيها بنفسها على باسو وبالأسلوب الذي تتبعه لتلتصق به. ربما لم يكن يصدق حظه الرائع، ومن دون شك لا بد أنه كان يحمد الله ويثني عليه كل يوم لأنه أنعم عليه بها. فقد دخلت مكتبه ذات يوم منذ أشهر عدة مضت، بطريقة فيها الكثير من العدوانية والوقاحة، وكانت تلوح بيدها بشهادة في الاتصالات والإعلام، وكأن في تلك الشهادة سحراً اقتصر عليها وحدها. عرض عليها عقداً للعمل مباشرة. عملت لأسبوعين فقط في الشركة، وبعدها انتقلت من المكتب إلى منزله، ومباشرة إلى غرفة نومه التي كانت قد أخلتها السيدة باسو قبل سنوات. القصة التي ما زال يتداولها الناس هي أنه لم يستطع أن يطلّق السيدة باسو حتى الآن بالرغم من أنه بذل قصارى جهده في سبيل ذلك. ذهبت إلى مكان بعيد.

Twitter: @alqareah

أظن أنها امرأة منطقية، فقد رفضت إطلاق سراحه؛ كما لو أن ذلك كان يعني شيئاً لباسو العجوز. كان هذا ليعني شيئاً لإنسان يتمتع بشخصية قوية، وهذا الإنسان ليس باسو بالتأكيد. كان يمكن أن يهجر زوجته من دون أن يبالي. كان يمكن أن يحتفظ بخليلته طوال العمر من دون أن يتزوجها، ولا يبالي. وبالأسلوب نفسه، وكان مجرد التفكير في ذلك يصيبني بالقشعريرة، يمكن أن يخطط لفصلي من العمل ونحن نحتسي كأساً من الجعة في أحد المطاعم الراقية، ولا يبالي.

«دعونا نطلب شيئاً من مستخلصات الأعشاب»، كانت نيتا تقول. «إنه يحتوي على قوى عظيمة تساعد على الارتقاء بالمزاج النفسي. كل تلك الأسرار الغامضة الرائعة التي كان الأطباء غير المؤهلين القدامى الذين يداوون بالأعشاب يحتفظون بها، أصبحت الآن تحت سيطرتنا».

تساءلتُ أين يمكن أن تكون قد قرأت ذلك. ربما كانت على شاكلة جوي. ربما كان لها عمود صحفيّ مفضَّل يشرح لها عن مواصفات المواد المهدئة وإكسير المسك والمادة الخام للحديد السائل ومسحوق الميكا التي يتم خلطها مع بعضها بكميات قليلة. هذه المواد تزود لحم الضأن ونبات الفطر والبازيلاء الخضراء، المضاف إليها طبقة من الحليب المخثر بشحنة إضافية من الطاقة. ربما كان ذلك هو ما ساعد باسو على الاستمرار بعلاقته مع نيتا. خطرت لي فكرة أن أقوم في أحد الأيام بزيارته في المكتب لمشاركته طعام الغداء وأنتظر حلول

Twitter: @alqareah

المساء للتأكد من مقدرتي على السيطرة على امرأة مثل نيتا. لا بد أن أقول كلمة إيجابية بحقه؛ تلك المرأة تحتاج إلى من يسيطر عليها.

«إننا لا نراك إلا نادراً؛ لماذا يا ترى؟»

كانت توجه كلامها لي، نيتا، صديقة باسو. كانت تحاول التودد إليّ وهي تنظر في عينيّ بشيء من الجدية المتكلفة، وهي تنحني صوبي، في الوقت الذي كان شعرها المجعد يثير الحكّة في ساعدي. نظرتُ إلى باسو قبل أن أقول لها أي شيء، أي شيء يمكن أن يكون سخيفاً وعادياً. لم يكن ينظر في اتجاهنا. كان وجهه شبه مدفون في زَبَد الجعة. شعرت بأنه رآها وهي تنحني في اتجاهي، ثم أشاح بنظره بعيداً وهو يتوقع أن أحدق فيه. بعد ذلك بدأ يتحدث بصوت مرتفع، وبهذه الطريقة أنقذني من متابعة الحديث أكثر مع نيتا.

«هذه الفتاة تعرف ما أحتاج إليه بالضبط»، ابتسمَ لنيتا بنوع من التسامح، في الوقت الذي كنا جميعاً نحن الجالسين على الطاولة نرقب عيد الحب هذا. «يا لها من حبيبة. أقول لكم إنها ذهبت واشترت الشيء الذي كانت نفسي تشتهيه وتتمناه بمنتهى الشبق طيلة هذه الشهور. إنه مضرب للغولف زهيد الثمن. كلنا ناضجون في هذا الجمع لذلك أستطيع البوح بذلك. هذا الشيء الرائع هو خاص بهواة لعبة الغولف الذين بلغوا سن الخمسين، مثلي أنا. تمرنوا على ضربات الغولف الخفيفة وأنتم تتكئون على كروشكم. إنها الحجم المناسب

Twitter: @alqareah

وتعطيكم الزاوية التي تحتاجون إليها بالضبط. تباع هذه مع سجادتها الخضراء الخاصة بها، وهي بطول مترين، ويأتي معها كأس في الطرف الآخر من السجادة؛ وتعرفون ماذا يأتي معها أيضاً؟ بطاقة مكتوب عليها: «يرجى عدم الإزعاج» حيث يمكنك وضعها على باب الحمام بينما تقوم بالتدرب على رمي الكرة في الحفرة. يا لها من متعة! شكراً يا حبيبتي».

عندما وصل إلى هذا الحد، انحنى وقبّل نيتا بصوت مرتفع على خدها في الوقت الذي كانت يده الغليظة تعجن في كتفها. شعرت عبر الطاولة بفورة الشبق الذي أثارته الجعة في رأسه. بدا كل شيء مريكاً نوعاً ما، ومفاجئاً، وأتذكر أنني هبطت بالمصعد والجعة تتلاعب برأسي متسائلاً إذا كان عليّ أن أخبر جوي عن حفلة عيد الميلاد اللطيفة الصغيرة هذه.

لا بد أنها علمت بما حدث. جوي لها طرقها الخاصة بها.

-٤-

وضعت المجلة جانباً. هناك خطر من نوع ما ينجم عن كثرة القراءة. إنها تودي بعقلك إلى التجوال على غير هدى في اتجاهات مختلفة. الأفكار العشوائية التي تغزو العقل يمكن أن تطيح بكل شيء؛ فقد تطيح بكل الحلول الوسطى التي تمت صناعتها بعناية، وكذلك بالقرارات المتوازنة التي تضبط إيقاع الحياة لمدد طويلة. يمكن أن

Twitter: @alqareah

تلقي بظلالها على أي يوم مشمس، وتؤجج ناراً لاهبة مرة أخرى في زاوية منسية من زوايا القلب، وتعيد إلى الحياة الآلام الحلوة المرافقة للحب في فترة الشباب، أو توقظ المرء في منتصف الليل مبللاً بالعرق البارد الناجم عن إحساس بالذنب لا يُدرك كنهه. ارتكبت أخطاءً كهذه من قبل، كما في اليوم الذي ولجت فيه من دون تفكير إلى مكتب جوي.

هي لم تكن هناك حينها. كانت تثرثر في مكان آخر على ما أظن. وعلى ما أذكر، فقد أدمنت الولوج إلى مكتبها من دون تفكير خلال الأسابيع القليلة الماضية. أمسكت بإحدى الصحف الأجنبية من على مكتب جوي. لم تكن الصحيفة قديمة جداً. ربما كان تاريخها يعود إلى أسبوع أو عشرة أيام خلت، وكانت تُطبع وتوزع في واشنطن العاصمة. أمسكت بالصحيفة بشكل غريزي تماماً مثلما أمسكت بكل ما يتعلق بتلك البلاد البعيدة، كما لو أن الإمساك بهذه الأشياء سيجعلني أكثر قرباً من روحيني، ويساعدني على مشاركتها أيامها ولياليها.

كانت الصحيفة مفتوحة على صفحة الوفيات. أكره الصحف التي تكرس صفحة كاملة للوفيات؛ إن من المخيف وجود احتمال أن ترى أول ما تراه في الصباح الباكر على الأقل، اسماً عرفته أو سمعت به أو رأيته على خشبة المسرح، أو أنه كان أفضل ممثل سينمائي بالنسبة إليك في عداد الوفيات. فهذا يشير إلى أن الزمن يسير إلى خط النهاية.

Twitter: @alqareah

أحد محبي الخير الأثرياء توفي مخلفاً وراءه شهرة واسعة على أنه من رعاة الفن. كانت هناك صورتان مترافقتان مع إعلان النعوة. كانت الصورة الأولى تظهر المحسن يحدق في رسم لفان دايك في أحد المتاحف التي ساهم في إنشائها. لكن الصورة الأخرى هي التي استرعت انتباهي. كان المحسن طويل القامة ضخم الجثة يلبس صدرية داكنة اللون وفوقها معطف عصري الطراز، وفوقهما معطف خارجي له ياقة عريضة من طراز الخمسينيات؛ وكان يمشي بجانبه والده العجوز المنتصب القامة، ذو الثمانين سنة، وكان يلبس معطفاً أسود ويعتمر قبعة. كان في إمكاني رؤية جذوع الأشجار في خلفية الصورة وكان يبدو أنهما كانا يقومان بنزهة في الغابة في ذلك اليوم الغائم البارد. كنت أتساءل عن نوع الحديث الذي يمكن أن يكونا يتبادلانه: أب وابنه؛ الأب، رجل الأعمال الذي كَدَحَ كثيراً، وفرض على الآخرين كذلك أن يكدحوا كثيراً ليجمع كل تلك الثروة؛ والابن، سهل الانقياد، يدعي الثقافة ويحرص على أن يبدو بمظهر من تحيط به هالة ثقافية، يتحين الفرصة لتسليم الثروة التي جمعت بشق النفس إلى رتل من الفنانين الجشعين والمتاحف وأمناء المكتبات. نظرت بتمعّن أكبر في الصورة، لعليّ أفهم من خلال تعابير وجهيهما أي ملامح تدل على اختلاف بينهما، أو على أي تشنج في علاقتهما أو خلاف في نظرتيهما إلى الأشياء، أو انقسام في الرأي بينهما بشأن الثروة. لكنني لم أتبين سوى ابتسامات متبادلة، وكانا محاطين بدائرة كثيفة من الدفء العائلي. باختصار، كانت الصورة تعكس علاقة طيبة بين الأب وابنه.

Twitter: @alqareah

دخلت جوي إلى الغرفة في تلك اللحظة بالضبط. علمت أنها كانت تحدق بتمعن في ظهري متسائلة عما يمكن أن أفعله بالقرب من طاولة مكتبها. لم يكن عليها أن تشعر بأي قلق، إذ لم تتملكني أي رغبة في أن أفتش في طاولتها أثناء غيابها. كنت أعرف سلفاً محتويات طاولتها. كنت أعرف أين تضع علبة أحمر الشفاه، وأين تخبئ كيس الفستق السوداني، وأين تضع زجاجة عطرها اليومي، وكنت أعرف كذلك مخبأ زجاجة العطر الخاص المكرّس لأيام خاصة كانت فيها بكامل أناقتها، أو عندما كانت تتهيأ للخروج إلى مكان محدد من المكتب مباشرة. كنت أعرف حتى الموضع الذي كانت تخفي فيه ملفوفة الحبوب بنكهة النعناع التي كانت تأخذ منها حبة كل يوم وتضعها في فمها، بعد وجبة الغداء لطرد رائحة الخردل أو البصل أو الثوم من نَفَسِها. كما كنت أعرف أن هناك رفّاً من الصور في آخر الدرج كانت جوي المسكينة تنتقي واحدة منها كل أسبوع لتضعها في إطار الصور على طاولتها. وضعت هذا الأسبوع صورة شخصية لها التقطت لها في الغابة في فصل الخريف، وهي تلبس كنزة طويلة صفراء فوق بنطال أزرق فضفاض. من المؤكد أن هذه الصورة التقطت قبل سنوات عدة. على الأقل لا أذكر أنني رأيتها يوماً على هذا الشكل. أو أنها ربما كانت تبدو بهذا الشكل عندما تكون خارج المكتب أثناء عطلتها. ربما لم أنظر إليها قط بتمعن. كان التبديل الأسبوعي للصور يمثل أسلوبها الخاص في كسر إحساسها بالضجر، وفي تغيير المشهد، وكأنها قضت عطلة كاملة من خلال هذا الفعل الفردي المنبثق من إرادة مستقلة. كان هذا

Twitter: @alqareah

الفعل يشكل دافعاً بالنسبة إليها كما أظن وكان هذا يناسبني تماماً. تستطيع متابعة تبديل هذه الصور للأبد كمجموعة من أوراق كشف الفأل إن أرادت ذلك، طالما أنها كانت تأتي إلى المكتب وتحضر لي القهوة كل يوم من دون أن تجهش بالبكاء على الجانب الآخر من طاولتي.

«من أين حصلتِ على هذه الصحيفة؟" سألتها بقصد وضع نهاية للمشهد والخروج من مكتبها وتسهيل دخولها إليه. «إن تاريخها يعود إلى أقل من أسبوع، نحن ليس لدينا اشتراك فيها أليس كذلك؟ سوف يصاب باسو العجوز بنوبة قلبية إذا علم بأن الشركة مشتركة في صحيفة أجنبية».

تمتمت جوي بكلمات حول صديقة لها تعمل على الخطوط الجوية. تبادر إلى ذهني أنها قد تكون مضيفة جوية اعتادت أن تحتفظ جانباً بأفضل الصحف والمجلات مثل غاردن آند هوم وكوسموبوليتان وترافيلار وجيوغرافيك في مطبخ الطائرة وتقوم بتهريبها خارج الطائرة لإرسال بعض منها، لاحقاً، إلى جوي كونها تعرف اهتمام الأخيرة بآخر المستجدات في البيت الأبيض، أو في برودواي. أومأت برأسي بإشارة يستدل منها على تفهمي للمسألة وخرجت من غرفتها، أو من منطقتها. لكن حتى بعد أن خرجت وجلست إلى مكتبي وبدأت العمل، فإن صورة الأب والابن لم تبارح مخيلتي. أردت أن أكون ذلك الأب متحدثاً إلى أنكور ونحن نتمشى بجانب الحاجز البحري في

Twitter: @alqareah

بومباي، أو على المرج العشبي الذي يفصل بين القناتين التوأمين في راجباث، أو على الطرق المتعرجة في الجبال القديمة ونحن نخطو بتؤدة فوق الصخور الملساء، أو ونحن ننحني تحت أشجار الرودوديندرون الوردية اللون التي تتساقط منها قطرات من الماء. أجل، أردت أن أصطحب أنكور إلى الجبال بالتحديد لأتحدث إليه، وأجعله يستنشق روائح الشتلات الطويلة الطرية الرطبة لأشجار الصنوبر، ويقيس أطوال المنحدرات التي كنت أتسلقها عندما كنت صبياً، ويرى بنفسه القمم البيضاء أبداً عبر الوادي الذي ما زالت صورته تداعب مخيلتي. كما أردت أن أكون ذلك الابن وأمشي بجانب والدي في الوادي، أو في الحقل مقابل مدرستي، والذي يبلغ ارتفاع العشب فيه إلى مستوى كتفي، أو على المروج العشبية في مضمار السباق، أو في السرير تحت لحاف من الساتان في الشتاء قرب موقد من الفحم وأنا أصغي؛ فقط أصغي. أتساءل عما كان من الممكن أن يحدث لي لو لم يتحدث والدي إليّ. أتساءل عما يمكن أن يحدث لأنكور لو أنني لم أتحدث إليه.

مَن غيري يمكنه ملء هذا الفراغ لديه؟ وهل ستكون هناك فراغات لديه في المقام الأول؟ أم أن مينا ستملأ له كل الفراغات والمساحات؟

هل سيكون في مقدورها أن تخبرك يا أنكور عن الكرات الصغيرة البلورية البيضاء الحليبية اللون الموشاة بنقط زرقاء، وعن تلك الحلوى

Twitter: @alqareah

البيضاء الموشاة بخطوط رفيعة حمراء وخضراء اللون؟ هذا ما تساءلته.

أزعجتني جداً مسألة أن أنكور لم يرَ كرة بلورية قط، وأنه لم يخض تجربة الإثارة الناجمة عن اصطدام الواحدة منها بالأخرى، أو الإحساس بامتلاك ثروة تقدر بعشرات من هذه الكرات مخبوءة في جيب بنطال المدرسة الرمادي المصنوع من الصوف. لم يُخرجها قط الواحدة تلو الأخرى من جيبه ويراقب أشعة الشمس وهي تلمع في داخلها الزجاجي. لم تكن تلك غلطته. لم يعد أحد يهتم لها منذ ذلك الحين. أو ربما كانت لا تزال متوفرة فقط في بعض المتاجر الصغيرة في الجوار مخبأة بعيداً ومنسية في علب أحذية فارغة، لم يقم أحد بفتحها منذ أن توفي والد صاحب المتجر. فكرت في أنه يتوجب علي أن أحاول شراء بعض منها له، وأنه يتوجب عليّ أيضاً أن أعلمه كيف يلعب بها، أو على الأقل أريه كيف يقوّس الإصبع الوسطى في إحدى يديه ثم يعيدها إلى الخلف مثل قوس، وكيف يسدد على الهدف، ثم يطلق، ويراقب كيف ترتطم الكرة البلورية بالكرة البلورية.

إذا لم يكن في استطاعتي التحدث إليه، فإن في إمكاني الكتابة إليه على الأقل. الرسائل شأنها شأن الكرات البلورية، لا يعرف عنها شيئاً إلا القلة من الناس. ولكن المرء في حاجة إلى اللجوء إلى كتابة رسالة كي يتحدث عن الكرات البلورية. لم يخطر في بالي قط أن أرسل رسالة بالبريد الإلكتروني لوصف كرات طفولتي البلورية الرائعة.

Twitter: @alqareah

عزيزي أنكور

هل تصلك أي رسائل على الإطلاق؟ كان يجب عليّ أن أكتب لك بعضاً منها، ربما رسالة في الأسبوع الواحد على مدى تلك الشهور الماضية منذ أن خرجت من المنزل. ربما فكرت حينها أن تحتفظ بتلك الرسائل في صندوق قديم وتعيد قراءتها من جديد بعد أن تكبر.

لكننا لم نعد نقوم بهذه الأشياء. فلقد تحطمت بعض الأشياء في دواخلنا؛ مثل ضوابط السلوك وبعض الرغبات. لم نعد نمارسها بالطريقة التي كان فيها جدّك باباجي يكتب إلى أسرته: إلى أمه وإخوته وأخواته عندما تمّ نقله خارج دلهي للمرة الأولى.

كان يكتب تلك الرسالة يومياً في حوالي الساعة الحادية عشرة. لم يكن يذكر فيها الكثير، كانت مجرد بطاقة بريدية يقول فيها إننا جميعاً بخير، وإنه يرجو أن يكون كل شيء في دلهي على ما يرام؛ وكان يخط بضعة أسطر إضافية يحكي فيها عن أداء الأولاد في الدراسة والامتحانات أو التقارير الواردة عنهم من المدرسة، ومعلومات قليلة عن الطقس المتقلب. كان يتم نقل الرسائل في بريد الساعة الثانية، وعندما تصل الرسالة بحلول الساعة الثالثة والنصف، كانت هناك في المقابل رسالة مكتوبة ومعدة للإرسال إلى والدي من قبل أحد إخوته. كان هذا يحصل يومياً إلى درجة أن سعاة البريد في الطرفين المتقابلين أضحوا أصدقاء للعائلة، وكانت تعلو وجوههم الدهشة

Twitter: @alqareah

المترافقة بابتسامات لطيفة إذا حدث أنّ يوماً استثنائياً مرّ من دون أن تصل فيه أي رسالة. ليتني احتفظت ببعض تلك البطاقات البريدية لأريك إياها. لا تستطيع مجرد الحصول على بطاقات مشابهة في هذه الأيام؛ كانت تلصق عليها طوابع تحمل صورة الملك أشوك وبجانبه رسم لعمود، وكان يبلغ سعر الطابع ست بيسات. كانت تلك الطوابع خضراء، ثم أصبحت فيما بعد حمراء، ثم زرقاء مع ازدياد أسعار الطوابع. لم تُتلف أي من تلك البطاقات التي كان والدي يستلمها من إخوته أو ترمى بعيداً. كانت توضع ضمن حزمة وتُركن في إحدى زوايا عتبة النافذة جنباً إلى جنب مع زجاجة البلسم المستخرج من نبات الأمروتانجان، وجهاز قياس الحرارة في علبته البلاستيكية ذات اللون العاجي.

أتساءل أين اختفت تلك البطاقات. كنت أسخر منها في تلك الأيام. كنت أتلو محتوياتها من دون أن أقرأها؛ كانت كلها متشابهة. هذه هي المشكلة التي تواجه المرء عندما يكون يافعاً جداً. يهزأ المرء خطأً من الأشياء التي لا يجوز أن يهزأ منها. بعدها يصبح من العسير تصحيح هذا الخطأ. هل تهزأ مني؟ أظن أنك تفعل ذلك، لكنك فيما بعد، ستتفق معي بشأن كثير من الأمور الصغيرة التي أقولها أو أفعلها. بعد ذلك قد تقوم أنت نفسك بفعل الأشياء ذاتها.

لكنني بدأت الكتابة إليك بقصد الحديث عن الكرات البلورية.

Twitter: @alqareah

أعرف أنك لم تلعب قط بالكرات البلورية، وحتى إنك لم ترها مطلقاً. كانت أشياء رائعة؛ لقد قضيت كثيراً من فترات بعد الظهر في ربحها وخسارتها، كما لو أنه لم يكن لديّ عمل آخر أقوم به. بالطبع كان والدي يقول إن من يقضي جل وقته وهو يلعب بالكرات البلورية لن يوفق أبداً في دراسته، وكان في فترة من الفترات محقاً في ذلك. كانت الكرة البلورية المفضلة لدي هي كرة الدوديا، وهي كرة حليبية بيضاء، في داخلها خط أزرق غامق، له زرقة منتصف الليل ويشبه ذيل مُذَنّبٍ اخترق سماء ملبدة بالغيوم. كنت متأكداً أن نوعاً من السحر كان في تلك الكرة البلورية كما لو أنها تتمتع ببركة النجوم. كنت دائماً أربح عندما ألعب بها. كان هدفها يبدو أكثر وضوحاً وطريقها أكثر ثباتاً. أقسم إنني في إحدى المرات رأيتها تنطلق في الهواء لتصيب الكرة البلورية التي كنت أصوّب عليها. أعرف لماذا كانت بلورة سحرية. لقد كانت كذلك لأن بابا، البائع العجوز نفخ عليها وهي في يديه المتجعدتين البارزتي العظام قبل أن يسلمني إياها.

لم ترَ في حياتك شخصاً يشبه البابا العجوز هذا، يا أنكور.لا أدري أين اختفى مثل هؤلاء الأشخاص. كلهم ماتوا، ولم يستطع أحد ملء الفراغ الذي تركوه. الأشخاص القديمو الطراز يختفون مثل السيارات القديمة الطراز، مثل سيارة الفيات التي كانت في حوزة جدك بابادجي، وهي من إنتاج الدفعة الأولى الأصلية التي تم تصنيعها في الهند، والتي كانت أبوابها تفتح إلى الخلف من الوجهة الأمامية. لقد تم

Twitter: @alqareah

تصنيعها بهذا الشكل لأنه كان من الأسهل على السيدات اللواتي يلبسن الساري النزول منها، كما قالوا.

بابا العجوز كان على هذه الشاكلة. كان ينتمي إلى عصر آخر. كان يقطن في كوخ يقع في قطعة أرض بور خلف معبد للسيخ في منطقة مضمار السباق قرب ملعب الكريكيت. كنت أذهب إلى ذلك الكوخ في فترات بعد الظهر عندما يكون كل من يعمل في مضمار السباق يغط في النوم. كانت دراجتي تتخبط فوق الدرب الداخلية المليئة بالحجارة والتي يؤدي إلى أرض ملعب الكريكيت، وكنت دائماً أقود دراجتي بسرعة وأنا أمر بجانب شجرة البيبال العجوز المقدسة خصوصاً عند النساء، والتي تصدر منها أصوات كأصوات الأشباح في منتصف أرض الملعب. كان الأولاد جميعهم يقولون إن أشباحاً موجودة تحت شجرة البيبال تلك. وكان من المفترض أن كثيراً من الأشباح موجودة في مضمار السباق تحت شجرة البيبال وفي الأودية الصغيرة الشديدة الانحدار وراء المنازل، وقرب المنطقة السكنية التي تتوسطها ساحة في منتصفها بحلول منتصف الليل...

لم أشعر قط بالحاجة إلى إخطار بابا العجوز بموعد زيارتي. كان يعرف مسبقاً؛ وكان ذلك جزءاً من مقدرته السحرية. وبينما كنت أحمل دراجتي فوق القناة المائية بجانب الأرض البور، كان الستار الصغير المصنوع من الخيش ينزاح ويخرج من ورائه (بابا) العجوز جارّاً خلفه كيساً أبيض اللون بيديه المرتعشتين، وكانت لحيته البيضاء ترتجف.

Twitter: @alqareah

كان يجلس في ظل الكوخ ويتكئ على الجدار المبني من الآجر المسروق؛ وبعدها يخرج زجاجات الكرات البلورية من الكيس. كانت قوالب الحلوى تقدم مع الكرات البلورية؛ حلويات مخططة باللونين الأخضر والأبيض بطعم النعناع، أو حلويات منعشة مخلوطة باليانسون شديدة الاحمرار، أو الحلويات ذات اللون الأبيض الكامل والمحشوة بمادة رطبة ولزجة في منتصفها. إذا كان الوقت في منتصف فصل الشتاء، أي بين عيدي الدوسيهرا والديوالي، كان يخرج من ذلك الكيس أشياء مختلفة. فبالإضافة إلى الكرات البلورية والحلوى كانت هناك أيضاً المفرقعات النارية، بالإضافة إلى علب صغيرة تحتوي على أنواع أخرى من المفرقعات النارية، عليها بقع زرقاء أو حمراء أو خضراء بالإضافة إلى صور براقة للشمس المشرقة والمثبتة على سطح العلبة.

كان في حوزته أيضاً علب مستطيلة تحتوي على أسهم نارية تنشر شرارات، بعضها من النوع الأملس بلون رمادي غامق، وبعضها الآخر حُبَيبي الملمس، وبرّاق وأغلى ثمناً تطلق شرارات كهربائية بيضاء اللون بدلاً من اللون الأصفر. كما كانت تعرض أنواع أخرى من المفرقعات النارية الملفوفة بالسيلوفان، وهي عبارة عن مفرقعات صغيرة حمراء تنفجر خمسين مرة عندما تمسها النار مرة واحدة. وهناك في العلب الصغيرة المربعة الشكل، كانت القنابل الذرية المربعة ذات الفتائل الطويلة الملفوفة على نفسها نحو الخلف، لتعطيك الوقت الكافي لإشعالها ومن ثم الركض بعيداً، والقيام بسد طبلتي أذنيك لحمايتهما من صوت الانفجار المدوي. أستطيع أن أقول لك اليوم إنني كنت

Twitter: @alqareah

أخاف من مجرد لمس تلك القنابل الذرية، وكنت أشعر بالحسد تجاه الأولاد الأكبر سناً، خصوصاً الصبي رومي الضخم الجثة ذي العينين الزرقاوين، الذي كان في وسعه وضع القنبلة تحت علبة من التنك وإشعال الفتيل ومراقبة العلبة وهي تطير عالياً في الهواء.

تلك كانت أياماً جميلة. وكان أفضلها على الإطلاق ذلك اليوم الذي اشتريت فيه كرة الدوديا البلورية التي أخرجها بابا العجوز من تلك الحقيبة، حين رحت أراقب عينيه اللتين كانتا تلمعان ببريق غريب في الوقت الذي خطفتها من يده. قال إنها ستكلفني عشر بيسات، وهي أغلى بمعدل مرتين من أي كرة بلورية أخرى في ذلك الكيس. لكنه قال أيضاً إنها كرة بلورية ذات مزايا خاصة جداً وإنه سوف يباركها لي. سلمته القطعة النقدية من فئة البيسات العشر وراقبته وهو يحتضن الكرة بيديه ويقربها من شفتيه. ثم أخذ خداه الغائران بالانتفاخ إلى درجة ظننت معها أن وجهه سوف ينفجر؛ ثم نفخ في يديه المضمومتين إلى درجة أن شعر ذقنه الفضي اللون بدأ يهتز من شدة الجهد الذي كان يبذله.

أتساءل أين يمكن أن تكون تلك الكرة البلورية قد اختفت، ذلك أنني لم أرها منذ سنين طويلة. أعرف أنها كانت موجودة في مكان ما عندما تزوجت والدتك. كنت قد وضعتها في علبة خاصة تحتوي على مقتنياتي الشخصية. إنها العلبة المطبوعة على غطائها صورة نبع الفلورا، وحافلات بومباي. في الحقيقة أنا لم أرَ هذه العلبة منذ مدة

Twitter: @alqareah

طويلة. لكن لا بد أنها في موضع ما، بين أكوام الخردة المرمية في مكان ما في المنزل في إحدى الغرف المقفلة. سأبحث عنها ذات يوم وسأعطيك إياها. يمكنك اعتبارها بلورتك السحرية الخاصة وأرجو أن توليها اهتماماً خاصاً.

مع حبي.

والدك.

ـ٥ـ

وضّبت كل أشرطة الفيديو لأنكور وأخذتها إلى منزل راجيف. كنت محظوظاً. لم يكن هناك أحد في المنزل إلا جانجا، خادم راجيف العجوز الذي يلازمه منذ مدة طويلة. كان يخدم في ذلك المنزل منذ تلك الأيام الأولى التي كنت أنا و مينا نزور راجيف فيها بين الحين والآخر. كان حينها ولداً هزيلاً يلبس بيجاما مخططة أحضرتها له والدة راجيف من الأولاد الإخوة من منطقة بيهار تحت أحد الجسور على الطريق الدائري قرب حديقة الملكة ماهاراني. كان مخلصاً ومتفانياً في خدمة راجيف. خرج للقائي من الحمام مباشرة، وكان يلبس صدرية بيضاء اللون وقطعة قماشية غير مخيطة، خضراء ذات مربعات يلفها حول خصره؛ وكان قد سرّح شعره بطبقة سميكة من الزيت الذي كان يلمع بين خصلاته، وإلى الخلف منه كان مذياع ترانزيستور يصدح بصوت عالٍ. صادفته في أحلى لحظاته بين فترتي

Twitter: @alqareah

الفطور والغداء المتأخر حيث لا أحد في المنزل. كان يهيّئ نفسه لفترة المساء، في الوقت الذي يجب عليه أن يبدأ العمل، سوف يلبس حينها بنطالاً وقميصاً قديمين لراجيف، وسيقوم بإعداد وجبة العشاء، ويقدم المشروبات والصودا والثلج.

«تفضل بالدخول يا سيدي. سيدي وسيدتي ليسا في الداخل. هل ترغب في أن أقدم لك الشاي؟ أو المشروب؟»

نظرت إليه، وأنا معجب بتصرفه الهادئ، وبالسهولة التي تقبل فيها أن تكون فيها مينا سيدته، وأيضاً بالسهولة التي انتقل فيها من عرض لتقديم الشاي إلى المشروب. تساءلت عن الفترة التي سيبقى فيها في المنزل طالما هي موجودة فيه. أن يكون خادماً في منزل شخص أعزب، شيء؛ وأن يكون مسؤولاً عن إدارة شؤون منزل تسكن فيه مينا، شيء آخر تماماً، فهي تغلق على الشاي بالمفتاح وتقيس مستوى الأرزّ في العلبة، وتحقق معه بشأن ما فعله بما بقي من وجبة الدجاج.

«لا، شكراً. أعطِ هذه العلبة لأنكور، وأخبره أنها من والده العجوز. إنها مجموعة من أشرطة الفيديو».

«أشرطة فيديو. لم يكن عليك أن تتعب نفسك. فسيدي راجيف لديه منها الكثير».

إنني متأكد من ذلك يا ابن الحرام. هذا ما أردت أن أقوله له. ولكن

Twitter: @alqareah

هذه هي أشرطة ابني القديمة، «فتى الغابة»، و«الحسناء النائمة» و«صوت الموسيقى»، وليست كأشرطة سيدك من الكوميديا الإنجليزية القديمة المبتذلة، وأشرطة أفلام الجنس السويدية من الدرجة الثالثة.

«فقط سلّمه هذه الأشرطة في أي حال. إنه يتوقع استلامها». قلت ذلك وأنا أغادر من أمام الباب وأتركه كي يتابع ما فاته من استكمال زينته.

رنّ جرس الهاتف باكراً صباح اليوم التالي، في الوقت الذي بدأت فيه نشرة الأخبار المتزامنة مع جرس المنبه في المذياع. كانوا يتحدثون عن موجة العنف الجديدة التي اجتاحت الشرق الأوسط. أمسكت بجهاز التحكم، وأدرت التلفاز ثم أطفأت صوت المذياع باليد الأخرى. استمر رنين جرس الهاتف وتركته يرن. عرفت أن مينا هي التي تتصل. هي الوحيدة في العالم التي تعرف موعد رنين جرس المنبه عندي يوم السبت وكانت على ما يبدو تنتظر اللحظة المناسبة بالضبط قبل أن تتصل بي. كانت تعرف أن الشيء الوحيد الذي لم أكن أتقبله مهما بدوت متسامحاً وسهلاً، هو رنين الهاتف في الصباح الباكر في عطلة نهاية الأسبوع. ربما كانت تريد أن تطلب مني شيئاً، قبل أن يصبح مزاجي سيئاً. كان التلفاز يعرض مشاهد لفتية يقذفون بالحجارة جنوداً مدججين بالسلاح، في منطقة جرداء مشوهة تتفاوت بين اللونين الرمادي والبني، ولم يكن هناك ما يميزها سوى الأسلاك

Twitter: @alqareah

الشائكة ومخافر الحراسة. بعد الرنين السابع أو الثامن، أمسكت بسماعة الهاتف.

«هل أنت مستيقظ؟»

«أظن ذلك».

«اسمع، أعتذر إذا كنت قد اتصلت بك في وقت مبكر لكنني خمنت أن منبه المذياع قد أيقظك على أي حال. على كلٍّ، أظن أنك سوف تأخذ قيلولتك المعتادة ليوم السبت فيما بعد، ولذا ليس من المهم أن تكون مستيقظاً الآن. ليس النوم هو كل شيء. لقد استيقظت الساعة الرابعة صباح هذا اليوم ولم أستطع النوم ثانية منذ تلك الساعة».

في إمكاني تصديق ذلك؛ وبدأت أتساءل عما يمكن أن تكون قد فعلته طالما أنها لم تستطع النوم من جديد. هل أضاءت النور؟ وهل أزعج ذلك راجيف؟ هل انسلّت من السرير إلى الغرفة الأخرى وبدأت بالتأمل أو القيام بترتيب الأشياء في المنزل، أم أنها ذهبت إلى المطبخ لتناول تفاحة أو تسخين فنجان من الحليب؟ كانت تكثر من شرب الحليب في هذه الأيام، أعرف ذلك. المرأة المتعلمة التي تمر في مرحلة ما قبل سن اليأس تحتاج إلى الكثير من الكالسيوم. هل ذهبت إلى البار وفتحته وأخرجت منه زجاجة الخمر الإيرلندي بالكريم، مبررة ذلك بأنه يحتوي على الكثير من الكالسيوم أيضاً، وصبت لنفسها كمية وافرة منه مع الثلج؟ في السنين الأولى التي مرت على زواجنا، لم

Twitter: @alqareah

أكن أمانع فكرة استيقاظها في تلك الساعات غير الطبيعية. كانت توقظني أنا أيضاً، وكنا نمارس الجنس، وبعدها نتناول بعض الأكلات السريعة. كنا بعدها، أو على الأقل كنت أعود أنا إلى النوم غير مكترث لصوت المنبه ثم أذهب إلى المكتب بعينين منفوختين قليلاً. هل خضع راجيف للروتين نفسه، أم أن الأمور اختلفت للمرة الثانية؟ تساءلت في ما إذا كانت قد أوقظت راجيف أيضاً ليشاركها في شرب الشاي أو عصير الليمون، أو الحليب، أو كي يعاشرها. هل طلبت إليه أن يبذل جهداً أثناء القيام بذلك، أم أنها طلبت إليه فقط أن يستلقي ويستمتع؟ عند الوصول إلى هذه النقطة من التفكير، طردت الفكرة، ثم أدرت التلفاز على إحدى الأقنية. عودة إلى أخبار الشرق الأوسط: ألقي بجندي إسرائيلي من النافذة لتتلقفه جموع غاضبة.

«لماذا؟»

«أنا قلقة على أنكور».

«إذاً، ما الجديد؟»

«اخرس. يجب علينا بالفعل التفكير في هذا الموضوع والقيام بشيء ما، حياله، وإلا فإنه سيواجه مشكلة خطيرة عندما يكبر».

أردت أن أقول لها إنه كان عليها أن تفكر في هذه المشكلة قبل أن تقرر الانتقال إلى الغرفة الأخرى أولاً، ثم إلى ذراعيْ عشيقها ثانياً.

Twitter: @alqareah

عرفت أنها الآن مُشتتة بين أن تكون أماً صالحة أو امرأة حقيقية. لهذا السبب أدرت التلفاز من جديد على قناة أو قناتين والتزمت الصمت.

«ما هي مشكلتك؟»

«مشكلتي أنا؟»

«نعم، لماذا تلتزم الصمت؟ أعني ألستَ قلقاً بشأنه؟»

«نعم، ولكن ماذا في إمكاني أن أفعل؟»

«ما الذي تعنيه بقولك، ماذا تستطيع أن تفعل؟ فقط لأننا لم نعد نعيش سوياً...»

كان هناك صمت على جانبي الخط. كانت الحال لا تزال طرية جداً، ولهذا لا يمكن الحديث عنها بهذه السهولة على الهاتف.

«تابعي».

«أعني أنه لا يجوز لك أن تتوقف عن كونك أباً له بسببنا».

«أعرف هذا».

«إذاً، افعل شيئاً».

«مثل؟»

Twitter: @alqareah

«أعني أي شيء يبقيك على تواصل دائم معه. فهو في حاجة أن يكون مع أب له أحياناً أليس كذلك؟»

توقفت مرة أخرى عن الكلام. علمت ما كان يدور في رأسها. كانت تعرف أن راجيف ليس الأب الأنموذج الذي يحتاج إليه أنكور. كان راجيف لها وحدها، كان هناك من أجل متعتها وشبابها المتلاشي شيئاً فشيئاً، وكان وجبتها الخفيفة في آخر الليل، أما بالنسبة إلى أنكور، ولمستقبله، وشخصيته، وحياته الوظيفية، فقد كانت بحاجة إلى شخص أكثر تماسكاً وينتمي إلى الطبقة الوسطى بشكل أكثر وضوحاً، وأكثر رزانة واحتراماً؛ شخص مثلي. وهذا ما جعلني أشعر أن لي قيمة أكبر مما كنت أظن وأكثر جلالاً.

«أنا والده، وأعرف ما هو بحاجة إليه».

«حسنٌ، لكنك لم تقدم له شيئاً مؤخراً. هل تعلم أن أداءه في مادة الرياضيات ليس مقنعاً والأمر كذلك حتى في مادة اللغة الإنجليزية التي كانت المادة المفضلة لديه؟ لن يوفر له معدل أدائه في الامتحان الفرصة لدخول أي جامعة. لقد حصل على درجة (ب) في مادة المقال الأسبوع الفائت. ليس هناك من مكان لأولئك الذين يكون مستواهم لا يتجاوز درجة (ب) في هذا العالم. فقط انظر حولك وتبين مستوى المنافسة».

وصلنا من جديد إلى منطقة نعرفها جيداً. أعرف هذه الدرب، فهي

Twitter: @alqareah

لن يؤدي إلى أي نتيجة. ستجهد مينا نفسها إلى حد الجنون ومن ثم تعود إلى القيام بما دونته بأناقة على القائمة من الأعمال التي تخطط القيام بها ليوم السبت.

«قمت بفعل شيء. أتيت لأعيد له أشرطة الفيديو الخاصة به».

«ما شاء الله».

«كما كتبت له رسالة الأمس أو اليوم الذي قبله. لا بد أنه استلمها».

«ما الذي كتبته له في تلك الرسالة؟»

«عن الكرات البلورية».

«الكرات البلورية؟ كل ما استطعت الكتابة له عنه كان عن الكرات البلورية؟ لن تفهم أبداً ما أعنيه. هذه هي المشكلة الكبرى. لم نعمل قط على الموجة نفسها. أتحدث أنا عن موضوع في منتهى الجدية؛ أتحدث معه عن دراسته وعن مستقبله وعن نموه العُمْري والجسدي؛ وكل ما تفكر أنت فيه هو الكرات البلورية. في أي حال، ما الذي أخبرته به عن الكرات البلورية؟»

«انسي الأمر برمته. كان ذلك محض هراء. فقط قولي ماذا عليّ أن أفعله، وكيف».

Twitter: @alqareah

كرهت نفسي لأنني تفوهت بهذه الكلمات. إذ إنني لم أعد مضطراً إلى ذلك.

«حسنٌ، أظن أننا بحاجة لنجتمع بين الحين والآخر للقيام ببعض الأعمال المشتركة. لأجله هو وليس لأي شيء آخر. سأفكر في شيء ما، وبعدها سأعاود الاتصال بك».

نظرت في المرآة في الوقت الذي كنت فيه أنزل من السرير. شعرت بالحاجة الماسة إلى قص شعري. كانت عيناي منفوختين ومتورمتين، ولم تكن ملامحي تدل على أنني نمت تسع ساعات متتالية. لا بد أنه مرض السكري مرة أخرى. حاولت أن أتذكر للحظة ماذا تناولت على العشاء الليلة الماضية، وتساءلت إذا كان من المفيد أن أجري فحصاً لمستوى السكر هذا الصباح. تناولت كأسين من الويسكي وكأسين أخريين من النبيذ الأحمر، هذا ما استطعت تذكره. أخرجت ميزان قياس مستوى السكر وأنبوب الإختبار. غرزت الإبرة، ثم فتلت الغطاء المطاطي الأزرق الدائري الذي كان يغطي مقدمتها. بعد ذلك، أخذت قطعة القطن المبللة بالكحول ومسحت رأس إصبعي الثالثة في يدي اليسرى، كتمت بعدها أنفاسي، وشعرت بوخزة حادة مباشرة في الوقت الذي كانت فيه الإبرة تخترق الجلد، بينما كنت أراقب نقطة دم تكبر شيئاً فشيئاً مع سرها المُحلّى.

في الصباح الباكر من يوم الأحد التالي، ذهبنا جميعاً في نزهة إلى

Twitter: @alqareah

توغلاكاباد. أنا وأنكور ومينا وراجيف. كنا العائلة الكبيرة السعيدة. من الغريب أنه كان هناك أيضاً، لكنني أظن أنها اعتقدت أن غيابه سيكون أكثر مدعاة للاستغراب. مروا بي وأقلوني في سيارتهم التي قادها راجيف بعيداً عن زحمة السير في طريق غير معبد مليء بالحصى والحجارة في اتجاه جنوب دلهي. ابتسمت في سري. فمن ناحية، يمكن اعتبار حضوره معنا في هذه الرحلة أنني أمّنت لنفسي سائقاً وسيارة أفضل من سيارتي. كان راجيف يقود سيارته الفورد أسترا بفخر وحماس راقٍ ومكتوم. السيارة نظيفة جداً من الداخل وتفوح منها رائحة الصنوبر المنبعثة من الشجرة الصغيرة الموضوعة في كيس معلق في المرآة العاكسة للخلف داخل السيارة. كانت الأغطية البلاستيكية على الأبواب من الداخل ناعمة الملمس وأنيقة المظهر ومثبتة بشكل جيد، كما كانت مفارش الأقدام في السيارة نظيفة. أما المكيف فكان صوته ناعماً وفي الوقت نفسه فاعلاً بما فيه الكفاية، وكان مذياع السيارة يصدح بأنغام قديمة على موجة (الإف إم). كان كل ما فيها بعكس سيارتي، وهي السيارة التي تعود عليها أنكور ومينا. تساءلت إن كان يعتني بملكيته الجديدة، أعني زوجتي السابقة، بهذه الطريقة المرهفة نفسها. هل كان يهتم في ما إذا كانت تلبس أو تأكل أو تتعطر بشكل جيد... تعلق أنكور بذراعي وكنا نجلس في المقعد الخلفي؛ وبين الحين والآخر كانت مينا تلتفت إلى الوراء من حيث هي في المقعد الأمامي وترمقنا بتلك النظرة السريعة. لم يتكلم راجيف كثيراً، أما أنا فلم أتوقف عن الكلام. تكلمت عن كل شيء قائلاً لنفسي

Twitter: @alqareah

إنه لا بد لأحد أن يملأ الوقت بهذا الشيء. ثم، ألم يكن سبب وجودي هنا الآن للتواصل في المقام الأول؟

كم تغير هذا المكان، هذا ما قلته لهم؛ منذ أيامي الأولى في الصف الأول الابتدائي، تلك الأيام الأولى التي قضيناها في أول منزل أصفر عشنا فيه قرب مستشفى سافدارجانغ. في تلك الأيام كنت أذهب إلى مدرسة يُبنى قربها بناء جديد، بناء من الآجر اللماع المطلي باللون الأحمر الغامق ومزين بخطوط بيضاء؛ وكان خلف البناء ذاك، ملعب ضخم. كان البناء يحتوي على ممرات طويلة في القبو وصنبور من النحاس في الباحة الصغيرة. كما كان هناك مجسم لأسد على تاجه شعار المدرسة، «الشجاعة هي القَدَر». كان ذلك الشعار معلقاً على الواجهة الجديدة اللماعة. أصبح لون الأسد باهتاً الآن بسبب شدة الحر وكثرة المطر. كان يبدو شعار المدرسة وكأنه يسخر مني، لكنني لم أخبرهم بذلك. تساءلت في سري هل كان لقدري أن يكون مختلفاً لو أنني أظهرت قليلاً من الشجاعة؟ هل كنت لأصبح محللاً مالياً ناجحاً، أو مدير تحرير صحيفة أو قطباً بارزاً في شركة للإعلانات أنعم بالطمأنينة والأمان وبجانبي روحيني المُحبة تشجعني وتدفعني إلى الأمام، لو كانت لديّ الشجاعة لأقوم بفعل ما هو صحيح؛ بدلاً من شخص يعيش حال هروب من نفسه، باحثاً عن الأمان في أي وعد باهت، وعن ملجأ له في الذكريات؟

في الوقت الذي كانت تبنى فيه المدرسة، كنا ندرس في خيام

Twitter: @alqareah

مصنوعة من القنب، وكنا نتناول طعامنا في خيمة أخرى جالسين إلى طاولة خشبية طويلة. كان الشخصان اللذان حضّرا الطعام في مطبخ معتم بسبب شبك معدني سميك، هما من كانا يقدمانه لنا على الطاولة، وكان عبارة عن أرز وحمّص مطحون.

قلت موجهاً كلامي لأنكور: «كنا نقف في الطابور كل صباح في الساعة الحادية عشرة ونشرب الحليب في كؤوس ضخمة من الألومنيوم». وتابعت: «عندما اكتمل البناء وتم نزع الخيام من مكانها لم يبق منها سوى أرضية صفوفها المربعة الشكل والمرصوفة بالآجر حيث تركت هذه الأرضية في حقل اللعب، وكنا نستخدمها في لعبة الزوايا الأربع. سآخذك إلى هناك يوماً ما، يا أنكور لأريك تلك المربعات المرصوفة بالآجر. أنا متأكد من أنها لا تزال موجودة، كما أنني متأكد من أن الصبيان الذين هم في مثل سنّك ما زالوا يلعبون عليها لعبة الزوايا الأربع. كل الأولاد الذين كانوا يلعبون معي أصبحوا متقدمين في السن ويعانون السمنة ويغطي الشيب رؤوسهم وبعضهم أصابه الصلع. جميعنا أصبحنا فاشلين الآن؛ ولكن في تلك الأيام، كان العالم كله في متناول أيدينا».

استدارت مينا نحوي ونظرت إليّ بحدة، ثم رمقت راجيف بنظرة سريعة عادت بعدها لتنظر أمامها. كنت أستمتع بذلك، وشعرت أن راجيف نال ما يستحقه؛ وهكذا فقد تابعت حديثي. كنت أعلم أن أنكور

Twitter: @alqareah

يصغي إليّ. كان يبدو على وجهه الشرود كما لو أنه يحاول جاهداً إعادة تشكيل صورة دلهي التي كانت جزءاً من ذكرياتي.

«لم يكن البناء قد امتد إلى هنا في تلك الأيام؛ ذلك أن خلف تلك البيوت، المكونة من شقق أندروز غانج الحكومية، لم تكن قد أُنشِئت أي من هذه الطرق أو الجسور أو الأبنية. لم تكن هنا سوى ممرات الدراجات التي تؤدي إلى الأدغال والحقول القريبة. أما هناك فقد كانت الأرض عبارة عن حقول مزروعة بالقرنبيط والملفوف والفجل، دعني أشرح لك: إنه ذلك النوع من الفجل الأحمر الصغير الذي يتم أكله في أيام الشتاء المشمسة. لم يظن أحد أن كل هذا سيختفي. ولسبب من الأسباب كانت هناك أعداد كثيرة من أفران التنور المبنية من الآجر. لا أظن أنك رأيت واحداً منها في حياتك. كانت كلها موجودة حول منارة كوتوب أيام لم تكن منطقة كوتوب في دلهي محاطة بالدرابزون في طوابق أبنيتها العلوية. صعد أحدهم ورمى بنفسه من هناك. كان عاشقاً كسير القلب».

نظرت مينا إليّ ثانية بحدة. لم يكن من المفترض أن أتحدث إلى أنكور بهذه الطريقة.

«اعتدنا الذهاب إلى هناك في الرحلات المدرسية أيضاً؛ إلى كوتوب وإلى توغلاكاباد وإلى سوراجكوند. كانت هذه الرحلات رائعة لأنه في ذلك اليوم لم يكن علينا ارتداء الزي المدرسي. ذهبنا في

Twitter: @alqareah

إحدى الحافلات المستأجرة من لاجبات ناجار وكنا ننشد الأغاني في الطريق. سأريك الأمكنة في توغلاكاباد حيث ذهبنا والتقطنا بعض الصور، وعندما نعود إلى المنزل، أقصد عندما تأتي إليّ في المنزل سأريك الصور إذا استطعت أن أعثر عليها».

ظهرت مدينة توغلاكوباد أمامنا فجأة، بعد انعطاف السيارة مباشرة في الطريق. لسبب ما، ظننت أنها أبعد من ذلك، لأن مسافة طويلة موحشة تفصلها عن دلهي. لم أستطع تبيّنَ مدى التغيير الذي تم، كيف اتصلت دلهي بمدينة توغلاكوباد، بل وتجاوزتها. كانت هناك المقبرة بأقنيتها الضيقة المستخدمة كممرات على أحد جانبي الطريق، وكان الحصن على الجانب الآخر. ركض أنكور صعوداً إلى أعلى الممر، ثم توقف مفتوناً بضخامة المبنى. صعدت إليه وأمسكت بيده وسحبته نحو الظلمة المهيبة. «دعني أريك الزنزانات»، قلت له ذلك وجررته من يده إلى حيث كانت هذه الزنزانات قبل ثلاثين سنة، وقبل خمسمائة سنة. كانت لا تزال مشبعة بالرطوبة وكانت الظلال فيها لا تزال تخيفني. كانت الهياكل العظمية فيها تبدو وكأنها تتذكر أنني جئت إلى هنا قبل هذه المرة. أوقفت أنكور عن متابعة السير في الظلام أبعد من ذلك.

سألني: «هل أنت خائف؟»؛ ثم ضحك، وسمعت صدى ضحكته وكأنها آتية من القرون الماضية.

Twitter: @alqareah

راجيف ومينا لم يتبعانا. كانا يمشيان ببطء حول المقبرة ويقرآن ما كُتِب على شواهد الأضرحة، وكانا يعطيان الأب والابن أطول وقت ممكن ليقضياه معاً. كان راجيف يقوم بشرح بعض الأشياء لمينا، وكانت تبدو عليه مظاهر الجدية والالتزام. إنهما يحاولان بذل أكبر جهد ممكن. فكرت في أنه لم يكن عليهما مرافقتنا. كان في إمكاني القيام بكل هذه الأشياء وحدي مع ابني.

قلت لهما: «نحن ذاهبان إلى الجانب الآخر».

كان عليّ أن أريه بعض الأشياء الأخرى. أردت أيضاً أن أبتعد عن ناظريهما، وعن حديثهما التافه الذي يجعلك تشعر بالاختناق. وهكذا عدنا نزولاً في الممر الضيق، ثم عبرنا الطريق ومشينا حول الحافلات السياحية التي كانت متوقفة هناك، وبدأنا نصعد في الطريق الشاهق في اتجاه الحصن. هناك نبهت أنكور إلى الكتابات الجدارية بالدهان والتي قام بكتابتها آلاف من الناس على مدى قرون من الزمن. كانت تواريخ وأسماء العشاق مكتوبة في كل الأرجاء حولنا على الصخور العتيقة. وكانت قطعان من الماعز والأبقار تجول في أرجاء الغرف الداخلية للحصن. كانت الآثار المهجورة لمدينة كانت عظيمة يوماً ما، تحيط بنا مغلفة بوحشة مهيبة. كانت الجدران آيلة إلى السقوط، أما الصخور الضخمة فقد تم نقلها الواحدة تلو الأخرى إلى القرية المجاورة المكونة من

Twitter: @alqareah

فوضى باللونين الأبيض والأصفر، ولاقطات البث التلفزيوني الصدئة، ومكبر للصوت يصم الآذان؛ تلك كانت قرية مالكي الماعز والأبقار.

لم يكن أنكور يفلت يدي. صعدت به إلى الفسحة المنبسطة من الأرض قرب الجدار مشيراً بيدي إلى القُبّرات والطيور المغردة وهي تخفق بجناحيها فوق أشجار الأكاسيا، وعبر الأدغال. أريته المكان الذي كنت أجلس فيه مع مجموعة من تلاميذ المدرسة قبل سنين طويلة، ونأكل سندويشاتنا الملفوفة بالبندورة والخيار، ثم نشرب عصير البرتقال من دورق الترمس الوردي اللون. ثم أخبرته كيف أن تلميذاً من المجموعة اقترح أن نلعب لعبة الخارجين عن القانون، وقد التقطت لي صورة ويداي مرفوعتان في الهواء على الجدار القديم، في الوقت الذي كان فيه أحد أصدقائي، وهو الآن يشغل منصب مدير تنفيذي في تكساس، يصوّب بندقية هي عبارة عن غصن شائك من شجرة كيكار البرية في اتجاه رأسي. تلك الصورة غير الواضحة مرمية في مكان ما في خزانة ثياب والدتي ضمن ألبوم له زوايا فضية قديمة الطراز. لم يتوقع أحد حينها أن ديباك سينتهي به المطاف في إنجلترا ليصبح طبيباً، وتقوم زوجته بالقفز من شقتهما بالطابق الخامس فوق الجموع التي تتحرك بسرعة في الشارع؛ أو أن نافين سيتزوج ويهاجر إلى كندا ليتعرض للخداع هناك ويحصل على إجازة جامعية في مجال المحاسبة يعمل بعدها في بيع

Twitter: @alqareah

سندويشات الهامبرغر، أو أن أعود أنا إلى ذاك الجدار نفسه يوما ما مع ابني وزوجتي السابقة وعشيقها.

هذه هي جمالية الحياة؛ الجمالية النتنة الخسيسة للحياة.لا تشعر بجودة الأشياء من حولك عندما تكون في متناول يدك؛ قلت لأنكور: تمتع دائماً بالحاضر. استمتع بأشعة الشمس وهي تلفح وجهك، أو بسقوط المطر أو بصحبة أصدقائك ووالديك كلما استطعت إلى ذلك سبيلاً، لأن الأشياء تختفي أو تتغير أو تذوي. وحينها، إذا كان عليك لقاء أصدقائك القدامى الذين يظهرون معك في الصور القديمة، توجب عليك إعادة النظر في مشاريعك وخططك، وستضطر إلى السفر في رحلات جوية مضنية واختلاق المناسبات وطلب الإجازات؛ ولكنك لن تضمن مع ذلك النجاح بشكل دائم.

مشيت أنا وأنكور في الجوار لوقت طويل. كنت أشعر بعينيه وهما مثبتتان دوماً باتجاه وجهي. آهٍ كم شعرت بالغبطة وهو يعتصر يدي بيده. لن أتخلى عنه لراجيف أبداً؛ هذا لا يعني أن راجيف مهتم بأخذه مني؛ كان يجلس حينها مع مينا في ظل إحدى الصخور تحتنا بمسافة بعيدة وهو يتكئ عليها بأناقة. كان قد فتح زجاجة من الجعة وقد انعكس ضوء الشمس على الزجاجة البنية اللون عندما رفعها باتجاه شفتيه. كانت مينا تتكلم، ويداها تتحركان. كان يبدو على محيّاه شيء من الضجر؛ تساءلت في ما إذا كان قد أتى إلى هنا ولو لمرة في حياته عندما كان صبياً. ربما لم يأتِ إلى هنا قبل اليوم قطّ، وأحمد الله على

Twitter: @alqareah

ذلك. إذ لو كان قد فعل، لأضحت ذاكرته تنافس ذاكرتي في جذب اهتمام أنكور. أحياناً كان يومئ برأسه باتجاه مينا موحياً بموافقته على ما كانت تقوله. ابتسمت. فلقد تحررت من القيام بواجب الإيماء بالموافقة.

كانت تلك آخر مرة نخرج فيها سويةً، أي ثلاثتنا بالإضافة إلى أنكور. فشلت تلك الرحلة فشلاً ذريعاً وكنا جميعاً نعرف ذلك. وهكذا فقد توصلنا إلى ترتيبات أرضت الجميع، وكان أكثرنا رضىً بهذا الترتيب هو راجيف على ما أظن. كان الاتفاق ينص على أن يقضي أنكور معي يوم السبت، وفي إمكان مينا لو أرادت الانضمام إلينا.

لن يكون في إمكاني لقاء أنكور هذا السبت، ولا يوجد ما أستطيع فعله حيال ذلك. ربما توجب إجراء ترتيبات أخرى أكثر فاعلية نظراً إلى أن الأمور تغيرت من جديد. ربما شعرتَ يا أنكور أنني أهملتك، وربما تلومني على عدم إصراري على أن تعيش معي بدلاً من مينا وراجيف، لكنني متأكد أن الأمور كما هي أفضل بالنسبة إليك. فأنت تحتاج إلى منزل حقيقي وليس لأب نصف سكير يعاني الإحباط، ويتعلق بأهداب وظيفته بقشور أسنانه ولا يبدو أنه ينجح كثيراً في ذلك. سوف تتفهم ذلك لاحقاً؛ فعندما تكبر في السن، وتذهب إلى الجامعة؛ عندما يخشوشن صوتك، وتبدأ بملاحقة الفتيات والوظائف، سأكون هناك بانتظارك، أساعدك وأوجهك. لن تنتمي يوماً إلى راجيف؛ هذا ما أنا متأكد منه.

Twitter: @alqareah

-٦-

أحسست بجوي وهي تدور في الغرفة، أحسست بذلك في مؤخرة عنقي؛ علمت أنها تريد أن تقول لي شيئاً. في الحقيقة دخلتْ مرة إلى الغرفة وخرجتْ منها من دون أن أرفع رأسي عن طاولة المكتب. لم أكن أرغب في رفع بصري، لم أكن أود أن يتم استدعائي ثانية إلى المكتب. كان ذلك في صباح أحد الأيام التي تلقيت فيها رسالة بالبريد الإلكتروني من روحيني، وكنت لا أزال حينها تائهاً في العالم السحري الذي خلقته تلك الرسالة. شعرت بالدفء من الداخل. أحاطتِ إثارة قادمة من عالم الشباب بأصابعها النحيلة بقلبي وملأته بحنين عذب.

وضعت جوي كمية من القهوة في الغلاية ببطء ومن دون استعجال. كما قامت بترتيب الكتب على الطاولة الجانبية الصغيرة، والصور على الجدار، وأعادت وضع الكرسيين في مكانهما أمام مكتبي.

أخيراً رفعت بصري نحوها. لاحظت أنها أجرت تعديلاً على تسريحة شعرها مرة أخرى. تساءلت عن السبب الذي يجعل النساء يعدّلن دائماً في تسريحات شعورهنّ.

«هناك شيء ما، يدور من حولك».

«من جديد؟»

Twitter: @alqareah

«حسنٌ، أظن أنك تعتقد أنني مصابة بجنون الارتياب أو ما شابه».

«أنا آخر من يتجاهل حدس المرأة. قولي كل شيء».

«الجميع يقول إن شيئاً ما، على وشك أن يحصل».

«قلتِ هذا قبل شهر مضى. كل ما حصل بعد ذلك أن صديقنا المحترم دعاني إلى حفلة عيد ميلاد راقية مع عشيقته وأصدقائهما المشهورين».

«سيتم عقد اجتماع اليوم. هل لديك علم بذلك؟»

«لا».

«أرأيت؛ إنهم يبعدونك عن معرفة ما يدور في الخفاء».

وبالطبع، كانت جوي محقة. في العادة هي دائماً محقة. تسع مرات على الأقل من عشر تكون محقة.

كان ذلك الاجتماع فخاً منصوباً لي. نصبه لي باسو بعد أن تأكد من أنني لن أعلم به إلا في اللحظة الأخيرة. لو لم تخبرني جوي بالاجتماع لكنت أُخِذتُ على حين غرة. عندما توجهت إلى الغرفة في نهاية الرواق، وهي الغرفة التي تحتوي على طاولة طويلة، كنت غاضباً ومضطرباً ومتكدراً، تماماً كما أمِل باسو أن يراني. جلس إلى الطاولة قبالتي وكان نادراً ما يرفع بصره. كان يداعب بأصابعه الفيل المصنوع

Twitter: @alqareah

من خشب الصندل، ثم ينتقل إلى زر قميصه المعدني، وبعدها يبدأ بتحسس النجمة الملصقة بقلم المونت بلانك وهي تلمع بلؤم من جيب سترة السفاري الزرقاء الداكنة. لم يكن يتكلم إلا نادراً؛ وتبين لي لاحقاً أنه نادراً ما سيقول أي شيء خلال ذلك الاجتماع. لا بد أنه قال ما يجب عليه قوله قبل مجيئي، وأن القرار الآن في يد المدير الإداري. كان في إمكاني رؤية قائمةٍ تحتوي على ستة عشر بنداً متسلسلاً من المؤكد أن باسو نفسه وضع مسودتها الأولى، وترك اتخاذ القرار بشأنها للمدير الإداري، ضربة إثر أخرى. تساءلت، هل ستوجه الضربات الست عشرة كلها إليّ.

بدا من الواضح أنني لم أكن أنا المُستهدَف. فقد قام بتوزيع هذه الضربات بشكل جيد، وضعها ضمن أطر عامة ذات أهمية قصوى للشركة كلها، وحاسمة بالنسبة إلى صلابة وضع الشركة متانة في بيئة شديدة التنافسية وسريعة التغير. باختصار، كان الأمر يتعلق بالإصلاحات الإدارية. وفي التفاصيل، تمت الإشارة إلى وجوب خفض نفقات الجولات الميدانية، ووضع حد لتغطية كلفة المكالمات الهاتفية البعيدة، وتقليل نفقات السيارات الرسمية وأجور السائقين وتقنين استخدام الكهرباء (هل كنا مضطرين إلى ستخدام الأنوار في المكتب أثناء النهار؟) وراتب العمل الإضافي الذي يتقاضاه بانديتجي لإشرافه على المصعد بعد الساعة السادسة مساءً؛ باختصار لم يكن هناك حد للعبثية التي كنا نناقش فيها هذه الأمور في الوقت الذي كنا فيه نولج

Twitter: @alqareah

ملاعقنا في قالب الجاتو السميك المصنوع من الأناناس والقشدة الذي تم طلبه من محلات وينغرز.

«يجب علينا أيضاً النظر في وضع القوة العاملة». جاء صوت المدير الإداري أجشَّ لكنه كان محافظاً على نبرته. «أظن أن لدينا فائضاً في القوة العاملة. أريد من كل مدير أن يدقق بتمعن في قسمه ويتأكد من أن كل عامل في قسمه يقوم بعمله على أكمل وجه، وأن الناتج الذي يحققه للشركة يستحق إبقاءه في عمله».

كان باسو ينظر إلى فيله المصنوع من خشب الصندل من جديد. تنحنح ثم قال:

«أظن أننا في حاجة إلى النظر في كادر السكرتيرات. لدينا الكثيرات منهنّ، وهذا ما يجعلنا نبدو مثل... مثل أي قسم في أي مؤسسة حكومية. في هذه الأيام، وفي هذا العصر، يجب أن يكون توجهنا تنفيذياً، وليس معتمداً على السكرتيرات».

نظرت إليه. كان وجهه يفيض بالحماسة والاعتداد بالنفس، وكانت عيناه تومضان كعيني مبشر إنجيلي. تبينت متأخراً جداً أنه كان يلمح إلى جوي، وضمنياً كان يستهدفني شخصياً. كان يثير سخطه أن يكون تحت إمرتي شخصٌ يمكن بشكل واضح أن أوليه ثقتي، شخصٌ يمكن أن أتحدث إليه. أراد أن يؤذيني من خلال أذيته لها.

Twitter: @alqareah

«كل شخص لديه جهاز حاسوب. لماذا إذاً نحن في حاجة إلى سكرتيرات؟ هل لكي يقمن بتحضير القهوة لنا؟ من نحن؟ هل نحن من السادة المنتمين للعهد السابق للطوفان؟ يجب أن نقرر إذا كنا نريد أن تكون شركتنا شركة ربحية منافِسة أم مؤسسة حكومية».

لفظ من فمه الكلمات الأخيرة بطريقة كيدية شريرة، كما لو أنه كان يصف زاوية من زوايا جهنم البغيضة، وليس المكان الذي أمضى فيه أفضل أيام حياته.

«أعتقد أنه يجب علينا أن نكون مثلاً يحتذى». قال المدير الإداري هذه العبارة، وهو ينظر إلى الأوراق الموجودة أمامه، من دون أن يحاول أن يكشف، وإن من خلال نظرة سريعة، عن الشخص الذي يقصده بكلامه.

«أعتقد أن هذه مسألة أساسية». كان جواب باسو الفوري. «من الممكن تسريح سكرتيرتي من العمل أو نقلها إلى مكان آخر».

كانت هناك لحظة صمت، أعقبتها أصوات حفيف الأوراق التي بدأ المجتمعون بلمها عن الطاولة، وضجيج ناجم عن سحب الكراسي إلى الخلف، ودفع فناجين الشاي إلى وسط الطاولة. انتهى الأمر الآن، مرحلياً على الأقل. سجل باسو النقطة التي أراد. كان أكثر المجتمعين التزاماً، وأكثرهم إخلاصاً وأكثرهم جرأة على قول الحقيقة؛ ببساطة، كان أفضلنا جميعاً. أما نحن البقية، فقد كنا أنانيين وتافهين وذوي

Twitter: @alqareah

تفكير محدود ولا نملك الوعي الكافي حول المصلحة العامة للشركة مثله.

خرج من الغرفة، وكانت كتفاه منسدلتين إلى الأمام، كانت نظراته زائغة ربما بسبب أن ثقل التضحية التي قام بها أخذ منه كل مأخذ. كان الآخرون مضطرين بحكم الضرورة أن يحذوا حذوه لكنه كان بطل السباق من دون منازع؛ لذا أين تكمن المشكلة إذا توجب عليه أن يقوم بتحضير قهوته بنفسه. رأيته وهو يغادر الغرفة، وبلمح البصر فهمت ما كان يرمي إليه من كل ذلك. وطبعاً كعادتي في كل مرة، لم أستطع أن أقرأ ما كان يجول في خاطره إلا متأخراً. فهمت تهافته على أن يظهر بمظهر الشخص المنضبط والطيب والأمين. كان الأمر يتعلق بالسيدة باسو وحقيقة أنها كانت تشعر بالقلق وهي مستلقية في منتصف الليل، حيال مسألة تقدمها في السن. وكان الأمر يتعلق بنيتا وما كان يعرفه عن طريقة نظرة الآخرين إليها. عندما فهمت الأمر على هذه الشاكلة، انحسر إحساسي بالغضب تجاهه ليحل محله إحساس عارم بالشفقة؛ وهي شفقة من ذلك النوع السقيم الأصفرالمنفر. انبثق هذا الإحساس من داخلي، وانهال على ظهره كوابل من المطر بينما كان يغادر الغرفة باتجاه الرواق.

أكره الشائعات. كانت تملأ المكان. إنها رُزَمٌ صغيرة من الشر يتم تغطيسها في سمّ الشركة، ويقوم بنشرها بعض العفاريت الشريرة لتحقيق الهدف المنشود ألا وهو القتل البطيء. هي في كل مكان،

Twitter: @alqareah

داخل الأروقة وفي الحمامات وعلى الهاتف وفي مصعد بانديتجي وأثناء الاجتماعات الرسمية حيث كانت تلك الإشاعات تدون على الأوراق الصفراء، التي تستعمل لتدوين الملاحظات ويتم تداولها من شخص شرير إلى آخر. أسوأ تلك الإشاعات كانت تجري بين مجموعات المدخنين؛ المجموعات التي تحتشد في الأروقة الخارجية، حيث يقدم الواحد منهم للآخر سيجارة فيقوم بنقرها على ظاهر كفه ثم يشعل الواحد منهم سيجارة الآخر. كانت كل واحدة من هذه المجموعات تتكون من اثنين أو ثلاثة من المدخنين المتآمرين وهم يتبادلون النظرات؛ يهمسون بالأكاذيب، ويغمزون من قناة شخص ما، من خلال شفاههم الملطخة بالنيكوتين.

كنت على قناعة بأن معظم تلك الشائعات تتناولني شخصياً. كنت أعرف دوافعي. لقد خرج آخرها من مكتب المدير الإداري، وهي آخر ما قام باسو بضخه في الشركة عني. كانت هذه الإشاعة الأخيرة تضيف نكهة من الحيوية على أطباق الغداء بالنسبة إلى جوي وصديقاتها تماماً كما تضيف كمية قليلة من الفجل الحار نكهة على سندويشة لا طعم لها. سمعتهنّ وأنا في مهجعي. سمعت تلك الشائعات في هسهستهنَّ التي تشبه الصفير، والتي تلفني في الصباح وبعد الظهر، ومع ذلك، لم أكن طرفاً في أي من تلك المجموعات. بدأت أميل إلى الاعتقاد إن وجودي غير مرغوب فيه في تجمعات الثرثرة تلك.

Twitter: @alqareah

سألت جوي مرة عن تلك المجموعات.

«لستَ من النوع الذي ينفع في عالم الشائعات».: كان ذلك هو جوابها الفوري والمباشر. فكرت في الأمر. ربما كانت على صواب. كنت أفهم بشكل تلقائي السمات التي يجب توفرها في مروِّجي الشائعات. يجب أن تكون في قلب أي حدث، وأن تكون أول من يتلقى مكالمة هاتفية، وأن تتم دعوتك إلى كل حفلات العشاء، وأن تُقرِض النقود من دون أن تبدو عليك أي علامة من علامات المبالاة، وأن تدعو ضيوفاً إلى منزلك لتناول العشاء من دون أن تعلم زوجتك بذلك مسبقاً، وأن يكون لديك استعداد للسهر حتى آخر الليل، وأن تقضي صبيحة أيام السبت في لعب الغولف، وأنت تشعر بالحصانة ضد أي عقوبة أو تقريع، وأن تنضم بسهولة إلى أي مجموعة مكونة من أربعة أشخاص للاشتراك في لعبة بريدج، أو مباراة في كرة المضرب، أو عملية تبادل للزوجات. لم أكن أنتمي إلى أي من هذه الأنواع. تعود بي الذاكرة إلى الماضي البعيد، ويتبين لي أنني لم أنخرط يوماً في أمور أو قضايا مثيرة، ولم تتم دعوتي للمشاركة في أية مؤامرة. كان لديّ في المدرسة أصدقاء كثيرون، قدمت لهم كل ما كان في إمكاني تقديمه. ومع ذلك عندما كان الأمر يتعلق بتنظيم فطور جماعي صبيحة أيام السبت، أو الحضور بشكل مقصود ليس بالزي المدرسي وإنما بقميص قصير الكميّن، أو عند وضع بوصلة تحت مؤخرة ريتا كانا في اللحظة التي كانت تهم فيها بالجلوس، أو رمي الماحيات تحت طاولات المكتبة

Twitter: @alqareah

والانحناء إلى الأرض بزعم التقاطها وذلك للتحديق في السراويل الداخلية المثلثة الشكل التي كانت تظهر بين سيقان الفتيات؛ كان يتم استثنائي من هذه الأعمال. كنت أعلم عن وقوع الأحداث بعد أن تكون قد حدثت سلفاً. ربما لهذا السبب لزمني وقت طويل قبل أن ألج إلى الغرفة الموجودة في زاوية فندق الجامعة وأصبح واحداً من مجموعة من الحشاشين الذين كانوا يتناوبون على تمرير سيجارة المخدرات بعد سحب نفس عميق منها. ولهذا السبب شعر شبان سنشاين تيرس بالتردد والخجل وهم ينتظرون رد فعلي بعد أن أصدر رجل النرد حكمه بضرورة ذهابنا إلى منطقة الأضواء الحمراء لإحضار عاهرة من القفص الخشبي. ولهذا السبب أيضاً لم أكن ضمن قائمة باسو الرباعية من لاعبي البريدج؛ وبالتأكيد كان هذا هو سبب استغراقي مدة طويلة قبل أن أصدق حقيقة ما كان يجري بين مينا وراجيف.

يلزم المرء الكثير من الوقت كي يتم قبوله في عالم الشائعات، وأظن أن الكثير من الوقت يلزم أيضاً كي لا ينخرط المرء في ذلك العالم.

«أنت أخلاقي جداً، واستقامتك هذه تنفر الآخرين منك. هذه هي مشكلتك الحقيقية»، تابعت جوي قول ذلك بينما كانت عيناها البنيتان المرقطتان بالسواد تحدقان في عينيّ مباشرة.

ربما كنتِ محقةً في ما قلتِه يا جوي، ولكنني وصلت إلى سن

Twitter: @alqareah

أضحى من الصعب فيها أن أتغير. بالإضافة إلى أنني تعبت جداً من كل شيء.

عندما فجّر باسو قنبلته في اجتماع يوم الإثنين، رفرفت الشائعات بجناحيها فوق المكتب وحطت لبرهة قصيرة على كل طاولة فيه. شعرت جوي بالتأزم كما لو كانت قد تعرضت إلى لسعة يعسوب في كاحلها. رأيت القلق يتفاقم على وجهها من خلال الزجاج الفاصل بين مكتبينا. اختفت الابتسامة الدائمة عن وجهها وتلاشت حتى نزعة الفضول لديها. نظرت حولها، ثم ثبتت الصورة على طاولتها، وبدأت بعدها من دون تفكير، بوضع الأوراق في الملف. انتبهت إلى أنني كنت أنظر إليها عبر الزجاج الفاصل. فجأة، بدا وكأنها تقدمت في العمر. أومأت إليها أن تدخل إلى مكتبي.

«هل تريد فنجاناً من القهوة؟» سألتني وهي تدخل غرفة مكتبي، وكانت أظافر يدها اليمنى الطويلة المطلية تسترخي على مسند كرسي زوار المكتب.

«لِمَ لا؟»

كبست زر راووق القهوة.

«سمعتُ بما دار في الاجتماع» تفوهت بهذه الكلمات؛ وجاءني صوتها مثل همس أجش.

Twitter: @alqareah

«أداء عظيم قام به السيد باسو»، أجبتها وأنا أومئ إليها بأن تجلس.

«ستفقد أنجيلا وظيفتها، على ما أعتقد».

«يبدو الأمر كذلك».

«ماذا عن الخطوة التالية؟ أو على من سيأتي الدور بعدها؟»

«لا أستطيع تخمين ذلك».

كانت جوي صامتة. بعد بضع دقائق، هزت برأسها كما لو أنها كانت تطرد منه فكرة غير مستحبة، ثم قامت لصب القهوة. فنجاني من دون سكّر، وفنجانها من دون حليب. في هذا الصباح المضطرب المقلوب رأساً على عقب، والذي ستترك فيه أنجيلا العمل، كانت هذه المعلومة البسيطة بحد ذاتها تشكل رابطاً مهنياً مريحاً. لاحظت أن يدها كانت ترتعش وهي تضع فنجاني بتؤدة على الصينية.

«أنتِ قلقة؟»

«حسنٌ، إن أنجيلا كانت ممتازة. وهي تعمل في الشركة منذ مدة طويلة».

هذا صحيح. وكلما فكرت في هذا الموضوع أكثر، صدمتني فداحة ما قام به باسو عندما وافق على فصلها من العمل. الشيء الوحيد

Twitter: @alqareah

الذي كان يمكن للشركة أن تبرر قرارها من خلاله هو سن أنجيلا. كان يمكن أن تحال إلى التقاعد وتحتفظ بكرامتها بدلاً من أن يتم فصلها من العمل. كان صوتها الأجش، وقوة شخصيتها وخبرتها وخط يدها الممتاز في الكتابة على بطاقات الدعوة وبطاقات رأس السنة وبطاقات عيد الديوالي جزءاً لا يتجزأ من ذلك المكتب؛ تماماً كما كان شاربا بانديتجي اللذان يشبهان مقود الدراجة يشكلان جزءاً من شخصيته.

«هل سيتم فصل كل السكرتيرات؟»

«لا أستطيع الجزم بذلك. ولا فائدة من استباق الأمور».

حاولت أن أنتبه إلى كلّ كلمة أقولها. لم أرغب في رؤية جوي تنهار باكية في مكتبي. لم تعد لديّ القدرة على تحمل حدوث أشياء كهذه.

تطورت الأمور بسرعة لافتة بعد ذلك. ألقى باسو كلمة مؤثرة في حفل وداع أنجيلا، وبدأ بعدها يعدّ قهوته بنفسه، ويحبك خططه ومؤامراته. بعد أسبوعين استدعى مدير شؤون الموظفين جوي وقدم لها عرضاً يتضمن كل مزايا تعويضاتها إذا اختارت أن تتقدم باستقالتها فوراً. وقد تمّ إعلامها في حينه ومن دون الكثير من المواربة أنها إن لم تقدم استقالتها فسيتم تسريحها في أي حال؛ فالإدارة تخضع لضغوط كثيرة ستضطر بموجبها إلى تسريح أكبر عدد ممكن من العاملين لديها. عندما رأيتها تدخل غرفتها، وترفع الصورة من على طاولتها، وتبدأ في تنظيف الرفوف الخاصة بها، وتلتقط أحمر

Twitter: @alqareah

شفاهها، وسائل تنظيف أظافرها، والمجلات الأجنبية المستعارة بتلك الطريقة البائسة والمهزومة، أدركت أن الأمور وصلت إلى درجة كبيرة من القرف. عندها لمعت في رأسي فكرة.

يمكنك أن تقضي حياتك كلها وكأنك فاقد للوعي، وكأن غطاء ينسدل فوق رأسك ويغطي وجهك؛ تحافظ على بقائك بالمشي في طرف الطريق، في اتجاه النقطة التي لا تضطر فيها إلى إبداء أي مقاومة وتمكث حيث أنت، تشيح بوجهك بعيداً وتكره نفسك وأنت تفعل ذلك. تمر السنون، وتظن أنك اعتدت ذلك، إلى درجة أن كرهك لذاتك لم يعد يعني لك شيئاً. ثم فجأة، وفي أحد الأيام يتغير الضوء، ويُقلِعُ النسيم نوعاً ما، ويحدث أن شيئاً قد لا يعني لك إلا أقل القليل، يدفعك إلى الانعطاف والتوجه مباشرة إلى منتصف الطريق محاولاً إيقاف قوة ماحقة تسير في اتجاهك أو الموت دون ذلك.

فقط عندما تستعيد الأحداث الماضية وتتأمل فيها، فإنك ترى أن مسيرة حياتك كلها قد اختُزِلت في تلك اللحظة.

حسمت الأمر في ذهني فوراً. لن أكون جزءاً من هذه اللعبة. لمرة واحدة في حياتي قررت أن أقوم بفعل الشيء الصحيح.

«لستِ الوحيدة التي ستترك العمل يا جوي»، هذا ما أخبرتها به عندما أتت لوداعي. «أنا أيضاً أرسلت كتاب استقالة للمدير الإداري».

Twitter: @alqareah

«لماذا ستترك أنت، عملك؟»

«لأنني أشعر أنه يجب عليّ فعل ذلك. لأنه لا يوجد سبب يدعوني إلى البقاء».

لم أشأ أن أضيف أن السبب الذي دعاني إلى فعل ذلك هو السبب نفسه الذي يدفع الناس إلى ترك الأمكنة التي يكونون فيها. والسبب يكمن في أن عليهم فعل ذلك. لقد تركت بومباي، وروحيني تركت غوتوم للدافع العاطفي الغريب نفسه. مينا هجرتني؛ لا يجب أن أنسى ذلك، للسبب نفسه. وأنا أيضاً عليّ أن أترك هذا المكان الآن. لا أجد أي مبرر، سواء في المكتب أم في المنزل، يدفعني إلى تغيير رأيي.

رفضت حفل الوداع الذي اعتزم باسو أن يقيمه ممثلاً للمدير الإداري للشركة. قمت بتسليم جهاز الهاتف الخليوي العائد للمكتب. وتناولت آخر فنجان من الشاي من الآلة المثبتة على الجدار في شارع باراكامبا مع بانديتجي، الذي أخبرني أنه سيقدم استقالته بعد ستة أشهر ويعود إلى قريته في بيهار. رافقت جوي إلى الحافلة المُستأجرة المتوقفة في موقف الحافلات قرب سينما ريغال. لم تكن متأكدة مما ستقوم به، لكنها وعدت بأن تبقى على اتصال. طلبت إليها ألا تلقي بالاً لما حصل، وأن تنتبه إلى صحتها. أقلقني ما أحسست به من ارتعاش في يديها وتهدج في صوتها.

آه، صحيح؛ قبل مغادرتي المكتب أمسكت بالصفحات الثلاث

Twitter: @alqareah

المدونة عليها أرقام هواتف أصدقائي وأسماؤهم، والتي كانت جوي قد أعادت ترتيبها بعناية، ومزقتها. فالأرقام التي أحتاج إليها، أحفظها عن ظهر قلب. أما بالنسبة إلى بقية الأرقام والأسماء فلم أشعر بالحاجة لأن أبدي أي اهتمام حيالها. كنت أنوي القيام بذلك النوع من الرحلة.

ـ٧ـ

لو كان الأمر يتعلق بالمعرض الخاص بالمتدينين لإقامة شعائرهم الدينية، أو حتى بقطعة الأرض المخصصة لهم لهذه الغاية؛ أو لو أن كوكب المشتري قد دخل في برج الدلو، أو أن الشمس قد دخلت في برج الحمل، ربما توقفت هنا. كان يمكن أن أمسك بحقيبتي الصوفية وأخرج من القطار في محطة هاريدوار. كان يمكن أن أصبح كاهناً ملطخاً بالرماد ويصبح شعر رأسي طويلاً ومجدولاً على شكل ضفائر، أدخن الحشيش بيدي المكوّبتيّن على ضفاف النهر الفضي، باحثاً عن الخلاص من العجلة الأبدية للحياة والموت، ومن رحلة مائة ألف حياة مكررة أربعاً وثمانين مرة، وفاقداً الإحساس بالأيام والليالي والسنين، ومتماهياً مع هؤلاء المؤمنين؛ في الوقت الذي يأتي فيه عشرة ملايين من البشر ليستحموا في نهري في يوم واحد، إلى أن يأتي اليوم الذي أتماهى فيه مع تلك الضفاف المقدسة، على شكل كيس مليء بالرماد والعظام، وأتحول إلى دخان خفيف يرتفع فوق سطوح المعبد، وهي

Twitter: @alqareah

سطوح رائعة حمراء اللون ذات قباب بيضاء، في الوقت الذي تتمايل فيه الحشود على أنغام الصلاة. ولن يعرف أحد بذلك. ينتابني إحساس بالراحة لمجرد التفكير في إمكانية حدوث شيء كهذا؛ هناك.

كأس من الشاي على الرصيف، تعقبها نزهة قصيرة على الأقدام لإعادة النشاط إلى القدمين، أتوقف بعدها في محل أي. إتش. ويلر لبيع الكتب. يبدو أن الكتب الموضوعة على الرفوف لا تتغير أبداً، وهي كتب من نوع: كيف تفعل كذا، وأخرى تتحدث عن اليوغا، ومجلات تتناول النجاح في المنافسة تحتوي على مقابلات مع المتفوقين في امتحان الخدمات الإدارية الهندية، بالإضافة إلى كتيبات تتضمن مئات من الأسئلة السريعة.

خلف محل بيع الكتب، وتحت المروحة الكبيرة الموضوعة خارج باب غرفة مساعد رئيس المحطة، يجلس الكاهن القزم على غطاء سرير أحمر اللون، وهو يلبس اللباس التقليدي الفضفاض الذي يبدو أكبر بكثير من مقاسه الطبيعي. يسند ظهره المقوس على شكل البيضة إلى حقيبة هائلة الحجم. ترتاح يده القصيرة على ركبته؛ أراه يراقبني، كما يراقب الآخرين بعينين يشوبهما الاحمرار، وفيهما الكثير من الغضب. هو لا يتسوّل، لكن لوحة من الورق المقوى بجانبه ترحب بأي مساهمة في مركز التدريب الشبيه بالجيمنازيوم حيث يقطن المصارعون الأشداء الذين هم في حاجة إلى كثير من الحليب واللوز والزبدة النقية لتقوية أجسامهم.

Twitter: @alqareah

ما الذي سيحصل لو أنني أعطيته قطعة ورقية من فئة الخمس روبيات؟ هل سيساعدني هذا في شيء؟ هل سيكون هذا في ميزان حسناتي يوم الحساب؟ هل سيمنحني إحساساً بالطمأنينة؟

ينام المصارعون بعد الظهر. ولكن عندما يقترب المساء، وقبل أن تغيب الشمس خلف مياه نهر الغانج وتبدأ أضواء المصابيح تطفو فوق الماء، يقومون بتدوير الدمبل وهو قضيب خشبي يصل ما بين كرتين حديديتين كبيرتي الحجم حتى تنتفخ عضلاتهم ثم يبدؤون بالمصارعة، الواحد ضد الآخر إلى أن ينهار أحدهما وتلامس زوايا ظهره الأربع أرضية الحلبة المعفرة بسبب عنف الحركة. اعتاد هؤلاء المصارعون القيام بجولات المصارعة تلك في مضمار السباق قرب القناة الضيقة بعد ظهر أيام الأحد، قبل عصر التلفاز.

كان ينادينا عبر المروج العشبية الخضراء صوت قرع الطبلة الكبيرة ذات الجوانب الجلدية الجافة والمشدودة التي ينقر عليها رجل ذو عمامة خضراء، وذو أكبر شاربين رأيتهما في حياتي يمتدان من الأذن إلى الأذن؛ كنا نقفز فوق الحفر ونثب فوق الصخور البيضاء المسطحة على وجه الماء في القناة التي كانت تعبر فيها قوارب سريعة في مياه المجارير القذرة تحت الطريق راكضين لمشاهدة مباريات المصارعة. كانت أيدينا تداعبِ الكرات البلورية التي تملأ جيوبنا. كنا نتفرج والإحساس بالهيبة يملأ قلوبنا على رجال ذوي عضلات مفتولة، يسترون عوراتهم بسراويل قصيرة ضيقة. كان الزيت يسيل من فوق

Twitter: @alqareah

عضلات أكتافهم، وكنت تراهم وهم يحاولون إسقاط خصومهم على الأرض قبل الدخول إلى الجيمنازيوم، وتسمع أصوات دمدمتهم تتداخل مع أنفاسهم، وتراقبهم بينما يحاول أحدهم خطف غريمه، ورمي نفسه فوقه، وإسقاطه على الأرض. بعد كل ذلك الصراخ والريح والخسارة، يعود المصارعون إلى الظهور بمظهر عادي: رجالاً ذوي شعور قصيرة، يلبسون قمصاناً وسراويل عادية. بعدها تبدأ رحلة العودة عندما يبدأ الليل بالانسدال مشياً على الأقدام كل إلى منزله عبر الجمهور الذي يبدأ بالتفرق بشيء من التردد؛ نعود إلى أمهاتنا اللواتي كنّ يتكئن على البوابة وهنّ يحدقن بأبصارهن بقلق في اتجاه الأضواء، كنّ يراقبن أضواء منطقة الموسوري المرتفعة وهي تقترب، واحدة وراء الأخرى ثم تصل جميعها دفعة واحدة.

أناول الكاهن القزم الروبيات الخمس التي يتوقع الحصول عليها رافضاً في الوقت نفسه نظرته المنبثقة من عين حمراء تتردد في إظهار امتنانها. لم أكن أعدّ ما قمت به ثقلاً في ميزان حسناتي، أو من أجل الإحساس بأي نوع من أنواع الطمأنينة. أردت أن أقول له إنها دَيْنٌ مُستَحَقٌ عليّ للتعويض عن السعادة المفقودة والأضواء المنسية عصر أيام الآحاد في مضمار السباق في ديهرادون.

Twitter: @alqareah

ديهرادون

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

-١-

هذا القطار لا يصدر صفيراً. لو كان في مقدوره فعل ذلك لأطلق صافرته الآن معلناً عن مهمته القادمة وهو يغادر المحطة ويبدأ بالانحدار الحاد صوب الظلمة العفنة داخل النفقين الطويلين أمامنا.

أغلق عينيّ. أشعر بالنور يغمر وجهي في الوقت الذي يخرج القطار من النفق. يهدئ النور من روعي، ويبدأ بارتشاف بعض السمّ الذي تجمع في عروقي. يتغير النور ثانية، هذه المرة إنه النور الذي ينتشر على التلال الباردة المُرقّطة التي تنبعث منها رائحة الشتاء. بصعوبة، يبدأ القطار صعوده على السكة الطويلة ويتابع اندفاعه على سفوح التلال. على جانبي السكة توجد معابد صغيرة، وتظهر فجأة تحت سكة القطار أسواق تعج بالحركة، وساحات منبسطة، وراكبو دراجات متكاسلون وأجهزة مذياع موضوعة على مداخل المحلات وهي تبث الأغنية الأكثر رواجاً في ذلك اليوم.

أعرف فوراً ومن دون أن أفتح عينيّ أننا أصبحنا خارج النور وظلال الأشجار. أصبحنا الآن نسير عبر التلال ونلج إلى الوادي بالقرب من مجرى النهر بحقوله المزروعة بالأرز وقصب السكر وأشجار فاكهة الليتشي الصينية المنشأ.

Twitter: @alqareah

هل يستطيع المرء العودة بالزمن إلى الوراء؟ هل يمكن له أن يصبح طفلاً من جديد؟ هل استطاعتي محو ماضيّ فقط من خلال ولوجي إلى وادي طفولتي هذا، وأبدأ كل شيء من جديد؟

هذه الأسئلة عديمة الجدوى، لأن هذا ما يحدث لي الآن بالفعل. إنني أمتطي صهوة دراجتي الخضراء ماركة أطلس، التي استأجرتها من المحل الذي يقع على تقاطع الطرق، بعد أن كبرت على الدراجة الصغيرة ذات اللونين الأبيض والأزرق. استأجرتها عندما كانت لا تزال جديدة. كانت الزينة المكونة من ألوان صفراء وحمراء وزرقاء، والتي تدور دائماً في الاتجاه العكسي ما زالت تلمع على محاور العجلات. كانت الفرامل مشدودة وسريعة الاستجابة، كما كانت الحروف المذهبة الألوان سليمة وغير مخدوشة. أنطلق بالدراجة بأقصى ما أستطيع من السرعة على الدرب الموحلة في محاذاة القناة. تنسدل كتفاي نحو الأسفل في اتجاه المقود. أشعر بالهواء البارد يضرب وجهي؛ أشعر أن الولد الصغير، عقلة الإصبع الذي يسابقني هو الآن ورائي بمسافة بعيدة؛ يجاهد من دون جدوى لزيادة سرعة دراجته الأكثر قِدَماً والتي ورثها عن أخيه الذي يقود الآن دراجة أبيه النارية من نوع فيسبا. يشعر بالحنق على أخيه وعليّ أنا أيضاً. للمرة الأولى أشعر بأنني أفوز بسهولة ويسر. لا يوجد في أي مكان، وعلى مد البصر، أيّ ظل باهت لشخص مثل راجيف أو باسو في مقدوره الآن أن ينازلني.

نبتعد الآن كثيراً عن منازلنا. سيحل وقت الغداء قريباً وستبدأ

Twitter: @alqareah

أمهاتنا بالبحث عنا، سيُجلن ببصرهن من خلال النوافذ في الساحات المجاورة حيث أُحيطت الأساسات بالآجر، ثم أُهملت تماماً كبعض الاكتشافات الأثرية التي لا تزال أسرارها مدفونة وجثث الموتى فيها لا تزال سليمة ولم تُنبش عظامها بعد. سوف يبحثن في الشرفة الرمادية التي يعلوها سقف مائل، حيث غالباً ما نلعب هناك بالكرات البلورية. سوف تنادي الواحدة منهن الأخرى عبر حقول نبات العليق التي تفصل بين المنازل، وبعدها سوف يفقدن الأمل، ويلجن إلى الداخل لجمع أدوات الحياكة ومظاهر الانزعاج بادية على وجوههن من دون أن يتفاقم هذا إلى إحساس بالقلق. طفولتنا، مثلها مثل أي طفولة أخرى لم تشُبْها أي مخاطر. كانت مينا مهووسة دائماً بحماية أنكور. لم تسمح له يوماً أن يمارس طفولته، على الأقل لم يكن ذلك الولد الذي يُسمح له بالغياب عن المنزل لستّ ساعات متواصلة وهو يقود دراجة مُستأجرة يعود بعدها بوجه متورد لتناول وجبة ساخنة.

لم نكن نتوقف أنا وعقلة الإصبع إلا عندما نصل إلى حدود حقول قصب السكر. هنا ينعطف الطريق مخلفاً وراءه الأوساخ التي كانت تملؤه، ويتجه نحو أشجار المانغو التي تتساقط أوراق أغصانها بكثافة، بالإضافة إلى بعض الأغصان الساقطة على الأرض أيضاً، حتى يصل إلى معبد لطائفة السيخ في أمبيوالا. يأتي الناس إلى هنا أيام الآحاد للصلاة تحت ظلال الأشجار ويتوجهون بالدعاء من أجل أولادهم، ومن أجل النجاح والزواج والسلام. لا أحد يعود خالي الوفاض من بستان

Twitter: @alqareah

المانغو، عليهم فقط أن يعرفوا كيف يتوسلون قضاء حاجاتهم، وكيف يُصَلّون بخشوع.

نجلس أنا وعقلة الأصبع قرب المزار المهجور؛ كان عصر ذلك اليوم حاراً وأصفر من حولنا. يهمس في أذني قائلاً إن هذا هو المكان الذي أحضروا إليه مانجيت، شقيقة صاحبة المنزل. مانجيت هذه لم تكن تستطيع النوم ليلاً لأن روحاً شريرة استولت على جسدها. باءت كل المحاولات لإخراج الروح الشريرة من جسدها بالفشل، ولم تنفع كل جلسات الضرب التي تلقتها بالمكانس وعصي الخيزران، ولا حتى بابا الدوّار الذي تم استدعاؤه من مدينة دوي والا البعيدة. لم تجد مانجيت الهدوء والسكينة إلا هنا، وعادت إليها حياتها الطبيعية بعد ذلك.

أفتح عينيّ وأقلب ناظري في الحقول التي لا بد أن يكون بستان المانغو لا يزال موجوداً فيها. هل ما زال في استطاعتي التوجه إلى ذلك المزار؟ وإذا استطعت الوصول إلى هناك الآن، هل سيكون في إمكاني أن أصلي؟ وإذا استطعت القيام بشعائر الصلاة، ما الذي سأصلي من أجل الحصول عليه؟ هل أود حقيقة أن أصحح ما ارتكبه الزمن من أخطاء بحقي؟ هل في إمكاني إعادة وصل ما انقطع من خيوط عائلية مع مينا من جديد، وما يتبعه من دفع للفواتير وأجورغسل الثياب، أي الحياة العائلية التي من سماتها الخبز والبيض؟ هل أود حقيقة أن أسترجع وظيفتي السابقة حتى إن كان ذلك يعني أن

Twitter: @alqareah

جوي ستسترجع وظيفتها أيضاً؟ هل أريد حقيقة رؤية وجه باسو القبيح مرة أخرى في حياتي؟

مجرى نهر ريسبانا شبه الجاف يتثاءب من تحتنا، وتردد حجارته المبعثرة صدى أصوات القطار الرتيبة. حجارة تميل إلى الاصفرار لا مياه حولها، وحجارة بيضاء لها عروق صفراء، وأخرى تعلو سطوحها بثور خشنة. في واحد من شهور/كانون الأول ديسمبر، وكان ذلك منذ مدة بعيدة، ذهبنا إلى باوونتا لجمع بعض من تلك الحجارة. لقد عادت ذكرى تلك الرحلة بكل دفئها وإثارتها تصب في عروقي بالرغم من أن تفاصيلها تبدو باهتة في ذاكرتي مثل صورة قديمة. سأمسك بتلابيب ما أستطيع تذكره من تلك الألوان وأثبتها هنا في هذه الصفحات وعلى هذه السطور إلى الأبد قبل أن تختفي كلياً. عدنا من تلك الرحلة بكثير من هذه الحجارة التي جمعناها من الطرف الآخر للوادي، حيث يختار نهر يامونا الصغير مساره في الاتجاه الآخر. جمعنا تلك الحجارة من معبر النهر في باوونتا حيث تجري مياهه بصمت لكي يَدَعَ الشعراء يكتبون قصائدهم، كما يقولون. جمعناها من منطقة لا توجد فيها أي جسور بل كان هناك قارب ضخم يمخر عباب الماء يقوده رجل يمسك بمجذاف طويل؛ وكان طرف عمامته الحمراء يخفق مع هبات الهواء التي تضرب سطح مياه النهر. بقيت هذه الحجارة لسنوات طويلة موضوعة فوق الموقد وكنا نستعملها كثقالات للكتب أو كمطارق أو كسارات بندق... لم تفهم مينا قطّ لماذا كنت أتشاجر معها في كل مرة

Twitter: @alqareah

أرادت أن ترمي بها بعيداً. كانت خبيرة بأنواع أخرى من الحجارة: الياقوت واللؤلؤ والفيروز والزمرد. وكانت خبرتها تتوضح أكثر في هذه الأنواع من الحجارة خصوصاً إذا كانت مغلفة بذهب خالص من عيار ١٨.

-٢-

لم يعد في استطاعتي التمييز بين المنازل. هناك الكثير منها الآن، الواحد ملاصق للآخر. تآكلت المساحات الخضراء. لم يعد هذا هو الوادي القديم الذي رغبت في الوصول إليه. قطع الأرض التي كانت مفروزة بعلامات إسمنتية رمادية اللون، وهي العلامات التي كنا نقيس بواسطتها قوة ارتطام كرة القدم أو الفرق بين الركض لأربعة أشواط وستة أشواط، فقد تم بناء منازل عليها؛ منازل لكل منها درب خاصة تؤدي إلى مرآب للسيارات خاص بها، ولكل منزل أيضاً بوابة أمامية وبوابة خلفية، وهي أيضاً مؤلفة من طابقين أرضي وعُلوي. كذلك اختفى الحقل المنبسط الممتد خلف مخفر الشرطة. ومع ذلك، وبينما يقوم القطار بحركة التفاف واسعة، أستطيع تمييز الموقع الذي أنا فيه، لأنني أستطيع التعرف إلى آخر جبل يتموضع كحافر فيل على الوادي، وتلون ظلاله البنفسجية والزرقاء غروب الشمس.

في الوقت الذي يتوقف فيه القطار، يطلق تنهيدة، هي عبارة عن مزيج من التعب والإحساس بالراحة؛ هذا هو الشعورالطبيعي المرافق

Twitter: @alqareah

لنهاية الرحلة. أمشي بسرعة على رصيف المحطة. أنا الآن في دياري. أستطيع أن أجد بالتفاتة تلقائية البوّابة الجانبية الضيقة، التي كنت أخرج منها دراجتي، بعد أن أدير مقودها بشكل جانبي. أرى رجالاً بزيهم العسكري وقبعاتهم وشاراتهم، عائدين من إجازاتهم وكل منهم يصطحب فراشه الملفوف وصندوقه الذي يظهر عليه اسمه ورتبته ورقمه العسكري، كلها مكتوبة بأحرف من الستنسيل الأبيض يحملها بكثير من الحماس حمالون من ذوي العضلات المفتولة. كما أرى رهباناً بوذيين بألبستهم الحمراءِ الداكنة يصعدون إلى سيارات ميكروباصات مستوردة لتقلهم إلى الوادي السعيد.

يشكل مركز الحجز بواسطة الحاسوب إضافة جديدة. يتوضع هذا المركز على تلة فوق الطريق ليس من المريح الصعود في اتجاهه؛ ومع ذلك، يشعرك هذا المركز بأناقته المعدنية المطلية بالدهان. أما بقية المنظر الذي أجيل فيه بصري، وأنا جالس في عربة التونغا التي تفوح منها رائحة قوية هي مزيج من رائحة الأحصنة والتبن والمطر، فقد بقي على حاله. يجلس سائق عربة التونغا على المقعد الخشبي للعربة ويبدأ بإطلاق صوت يشبه القرق من تحت لسانه، ثم يقف ليعدل من وضعية قطعة القماش غير المخيطة التي يلفها حول وسطه بيده اليسرى كي يرشد الحصان لشق طريقه بين الدراجات البخارية الصغيرة والحفر التي تملأ الطريق. نجد أنفسنا ندخل إلى قلب البازار المليء بالحشود الصاخبة.

Twitter: @alqareah

«خذني إلى السينما في منطقة لاكسمي؟»، يستدير نحوي وينظر إليّ بارتياب قائلاً: «عن أي حقبة تتكلم؟ لقد تم هدمها قبل مدة طويلة. كانت دار سينما لا بأس بها. فقد استمر عرض فيلم ميري سانام فيها مدة مائة يوم؛ أما فيلم جانغلي، فقد عُرض هناك لمدة خمسمائة يوم».

والأمر نفسه بالنسبة إلى كثير من الأفلام الأخرى، التي شاهدت بعضاً منها مقابل خمس وعشرين من البيسات لكل فيلم. كانت القطعة النقدية المعدنية تنزلق بشكل خفي إلى أيدي الأشخاص الذين يشرفون على عرض الفيلم؛ هؤلاء الجنود المجهولون الذين يقبعون دائماً في الظل وراء الفتحات المربعة التي تعبر من خلالها الأفلام وتتحول إلى أشعة صفراء، تنير الجو المشحون بالغبار في القاعة المعتمة وهي في طريقها إلى الشاشة. كانت عيوننا تتسمر على فتحة إضافية أنا وعقلة الإصبع. شاهدناها بالكامل. لقد استغرق عرضها ثلاث ساعات وخمس عشرة دقيقة، وكانت عبارة عن شريط للأنباء وأفلام قصيرة. أحياناً كان يوجد هناك أشخاص آخرون: رجال شرطة أو أصدقاء للأشخاص الذين يشرفون على عرض الفيلم والذين كان لا بد من تقديم بعض الخدمات لهم؛ أما نحن فكان يتم إرضاؤنا بإسماعنا أغنيتين فقط مقابل عشر بيسات. هكذا كنا نشبّ عن الطوق كما اعتقدنا آنذاك، وكان ذلك يتمثل في أن نكون أحراراً في الذهاب إلى السينما متى شئنا، وتناول البطاطا المطحونة والمقلية خلال فترة

Twitter: @alqareah

الاستراحة، ومشاهدة فنانينا المفضلين مثل آشا باريخ وسيرا بانو و محمود و شامي كابور من أعلى موقع على الشرفة في تلك السينما؛ ثم نخرج بعدها ونقفل عائدين بكثير من الزهو البطولي ونحن نردد على شفاهنا أغاني رافي وموكيش. أحياناً عندما كانت تنتابنا موجة من الجرأة، كنا نغني بهدوء أغاني عاطفية حزينة ليلاً نندب فيها حظوظنا لعدم تمكننا من التواصل مع فتيات المدارس العصيات على عواطفنا، وكان مصدر إلهامنا أغاني ديليب كومار الذي يعزف البيانو تحت الدرج الحلزوني. وعندما نُجابه بالرفض، كنا نقوّس حواجبنا تعبيراً عن الخيبة الناجمة عن الإحساس بالحب من طرف واحد، تماماً كما كان يفعل المغني مانوج كومار.

أصبحت دار السينما في منطقة لاكسمي الآن مركزاً تجارياً. تتدلى من فوق حواجز شرفاته الضيقة إعلانات عن دورات مسائية لتعليم الحاسوب؛ ويحتل خياط تلك المساحة في الهواء حيث كانت توجد أجهزة البث الضوئية في تلك السينما.

كانت الدراجات ذات العجلتين والثلاث عجلات والسيارات تتجاوز من جميع الجوانب عربة التونجا التي أمتطيها. يقفز صبي يلبس قميصاً فضفاضاً وسروالاً مخططاً باللونين الأبيض والأزرق إلى عربة التونجا؛ فهو يعرف سائقها.

يسأل الصبي السائق وهو يحدق في وجهي: «هل أنت ذاهب إلى مضمار السباق؟»

Twitter: @alqareah

«نعم، الأستاذ ذاهب إلى مضمار السباق».

«هل هو من دلهي، أم أنه أجنبي؟» ثم يحدق في وجهي ثانية.

أود أن أقول له إنني من هذه المدينة في الأصل، وإنّه لو كان قد ولد قبل سنين عديدة، لكان في إمكاننا ركوب الدراجات سوياً على هذه الطرقات. كنا لنتجاوز ورشة أعمال الطرق والحافلات القديمة التي تظهر أجزاؤها العُلوية من فوق الجدران المرتفعة الصفراء، والتي كان زيت المحركات يتسرب منها مخلفاً على الطريق خطوطاً تشبه خارطة لعوالم مندثرة. كان من الممكن أن أتسابق معه صعوداً في اتجاه المسار المليء بالحفر الكبيرة والمؤدي إلى حيّ المحاكم، أو نتجاوز شجرة التين البنغالي المعمرة والسعادين وأرواح المدعين العامين الذين ما زالوا يقبعون هناك كما يقال، وهم يجترّون بأفواههم، وتبدو عليهم أمارات الغَلَظة والبؤس في آن.

لكن جل ما أفعله هو أن أبتسم له. لا أستطيع أن أقود الدراجة بهذه الخفّة الآن، خصوصاً بعد كل ما تناولته من الطعام، واحتسيته من الشراب في حياتي، وبعد كل ما وصفه لي الدكتور راو من أدوية وحميّة. أتساءل للحظة عما كان يمكن أن يحدث لو أنني لم أترك ديهرادون. هل كنت سأصاب بمرض السكري، وهل كان لركوب الدراجة في اتجاه التلال أن يمنع إصابتي بهذا المرض المخيف؟ من دون أن ينظر في وجهي ثانية، يقفز الصبي من العربة ويختفي بينما نحن نتوجه مباشرة إلى مضمار السباق، بعد أن قطعت ابتسامتي المفاجئة

Twitter: @alqareah

عليه فضوله. أجول ببصري باحثاً بشكل غريزي عن بياريلال. من المفروض أن يكون جالساً في المتجر الثاني بجانب المطحنة، فوق عتبات الدرج الخشبية، وهو يميل برأسه جانباً، موحياً بشكل مخادع بالخمول، في الوقت الذي تكون فيه عيناه الصغيرتان تراقبان الجميع: الرجال الذين يشربون الشاي وهم جالسون على العتبات الخشبية أسفل الطريق، وشرطي المرور في زيه الأبيض وهو يقف على تقاطع الطرق، والنساء اللواتي يحملن السلال البلاستيكية المليئة بالخضروات. من المفروض أن يكون موجوداً هناك يبيع الشوكولاتة بالحليب ولفائف القشدة والخبز الأبيض وقوالب زبدة آمول من زنة المائة غرام وحلويات بطعم البرتقال الحار وعصير الجامون البني الداكن. لم يكن مجرد متجر؛ بل كان المكان الذي تنبع منه وتصب فيه الثرثرة والشائعات التي كان وقودها أعداداً لا تنتهي من أكواب الشاي. كان المحطة التي يتجمع فيها سائقو عربات التونغا في الصباح، ونقطة التقاء الخدم بعد الظهر؛ هذا المتجر كان الزاوية التي أصبحت في واقع الأمر، المركز.

كان لشهور عديدة أيضاً يشكل الحدّ الذي لم أكن أستطيع تجاوزه على دراجتي؛ ذلك أن موقع متجر بياريلال كان آخر نقطة عمرانية مأهولة، يمكن أن يشعر فيها المرء بالأمان بالرغم من أن سائق إحدى عربات التونغا، والذي يُعتقد أنه اغتصب إحدى السائحات الأجنبيات، قيل إنه شوهد هناك أحياناً وهو يفتل شاربيه الشبيهين بمقود دراجة،

Twitter: @alqareah

أو يعدل من وضعية عمامته البيضاء مستعيناً بمرآة عاكسة لدراجة فيسبا متوقفة.

كان بياريلال رجلاً بعيد النظر. فقد قام بشراء المتجر المجاور الذي كان يملكه اثنان من الإخوة المتميزَيْن ببدلاتهما الفضفاضة الأنيقة وأحذيتهما المعقوفة إلى الأعلى من الأمام، ولهجة الإقليم الحدودي الشمالي الغربي الغريبة التي يتكلمان بها. بالطبع لا اعتراض لي على ذلك. لكنني أنا وعقلة الإصبع وصلنا إلى الاستنتاج بأن لفائف القشدة التي كانا يبيعانها كانت أقل طراوة وأقل كمية بمعدل النصف من مثيلاتها التي كنا نشتريها من متجر بياريلال.

بعد ذلك، وعلى امتداد سنتين أجرى فيهما حساباته بدقة وعناية، استطاع بياريلال أن يستدرج أمارديب السمين ليبيعه المنزل الذي تركته له أمه العجوز.

لم يكن في إمكان أمارديب أن يختفي عن ناظريك في مضمار السباق؛ فقد كان يجلس بسرواله القصير الضخم المصنوع من الخاكي على قارعة طريق ملتفّ حول المستعمرة، شبيه بالمضمار الذي كانت تتسابق عليه الأحصنة. كان يوجد هناك عصر كل يوم، واقفاً في منتصف الطريق وتنتشر من حوله الدراجات الهوائية، والدراجات البخارية الصغيرة. كان يحضر إلى هناك مفرقعات عيد الديوالي لي ولعقلة الإصبع ولعشرات من الأولاد الآخرين الذين لم يكن يُسمح لهم

Twitter: @alqareah

الذهاب إلى البازار من دون أن يرافقهم أحد نظراً إلى صغر سنهم. كان يضع أمامه لوحات سحرية عليها أوراق مطوية مربعة الشكل. كنا ندفع خمس بيسات مقابل كل ورقة نفتحها؛ أحياناً كنا نحصل على جوائز يستخرجها لنا من الكيس الضخم الذي يحمله على ظهره وكانت عبارة عن صافرات بلاستيكية صفراء، أو كرة بلورية سوداء، أو سلسلة مفاتيح عليها صورة جرو صغير.

وفي أحد الأيام بعد وفاة والدته، تخلص أماردييب من كل هذا واشترى لنفسه بدلاً من ذلك عربة بثلاث عجلات. كنا نشاهده وهو يركنها يومياً بعناية على رقعة صغيرة مفروشة بالحصى الصغيرة أمام منزله. كانت عربة ثلاثية العجلات، جميلة الشكل ومطلية باللونين الأصفر والأسود، ومكتوباً عليها عبارة «الحمد للآلهة ماتا» بأحرف بيضاء مائلة على مقدمتها. كانت هذه العربة منافساً حقيقياً لعربات التونغا التي كانت تقل سكان منطقة مضمار السباق إلى منطقة برج الساعة، وإلى محطة القطار، ثم إلى مستشفى دوون أو سوق بالتان التجاريّة؛ إذ من هو ذاك الذي يفضل الركوب غير المريح في عربة تونغا إذا كان في إمكانه الجلوس في تلك الآلة الجديدة ويدفع تقريباً الأجرة نفسها التي يدفعها عند ركوبه في عربة التونغا. بدا لنا أن أماردييب سوف يجني أرباحاً كبيرة من عربته الثلاثية العجلات إلى درجة أنه سيستطيع بعدها ملء متجر ضخم بالمفرقعات النارية الخاصة بعيد الديوالي.

Twitter: @alqareah

لكننا لم نكن نعرف ما حدث طيلة تلك الفترة التي كانت تُركن فيها العربة الثلاثية العجلات أمام متجر بياريلال صباح كل يوم ومساءه. كان بياريلال يقدم لأماردييب الشاي مع صحن من البسكويت المحلّى أو الفطائر المثلثة الشكل الساخنة مع صلصة النعناع الأخضر، أو في بعض المناسبات الخاصة، كان يقدم له الحلويات مضافاً إليها كمية من العصير المركز. كان يسجل الديون المترتبة على أماردييب بعناية في دفتر خاص. وبعد مرور سنتين على شرائه العربة الثلاثية العجلات، دقق أماردييب في دفتر الحسابات والديون المترتبة عليه، ووجد أنه عاجز عن دفع كامل المبلغ إلا إذا ارتهن منزله لبياريلال. كانت تلك مؤامرة، همس عقلة الإصبع في أذني بانفعال، كانت مؤامرة بين بياريلال وسائقي عربات التونغا الذين كانت العربة الثلاثية العجلات تشكل لهم تهديداً في أرزاقهم.

انتقل بياريلال إلى المنزل حيث كانت شجرة التوت تحنو بأغصانها فوق عتبات درج الشرفة. غادر أماردييب على متن عربته الثلاثية العجلات إلى حيث لا يُقذَف يومياً بالاتهامات بأنه تخلى عن ميراث والدته من أجل كوب من الشاي، وذلك من قبل مجموعات من النسوة اللواتي كنّ يجلسن على شرفات منازلهن المشمسة في منطقة مضمار السباق، وهنّ يحكن كنزات الصوف أو يأكلن الجوافة المملحة المُقطّعَة إلى أربعة أقسام متساوية...

هذه الذكريات تعود إليّ من الأيام الخوالي. هذه الذكريات الممتعة

Twitter: @alqareah

السهلة، التي ربما لن يعيشها أنكور، الولد المسكين؛ تتدفق عليّ لتنتشلني مما أنا فيه. إنها كالبلسم الذي يبدأ بملء التشققات المؤلمة؛ وهي كالمخدر الذي يأخذني بعيداً عن الحاضر الآني. هل أقوم الآن بفعل ما كانت مينا دائماً تحتقره في شخصي؛ أي العيش في الماضي؟ آه، من يهتم لما قد تفكر فيه؟ لا يهمها أبداً أين أعيش، في الماضي أو في الحاضر أو في المستقبل. ما يهمها هو أين تعيش هي. في صميم قلب راجيف، وفي قلب غرفة نومه اللعينة، حيث لن يستطيع تجنبها حتى ولو حاول ذلك.

-٣-

أقوم في المساء بنزهة على الأقدام من دون أن أجرؤ على النظر مباشرة إلى تلال موسوري. ففي الغد، عليّ أن أبدأ رحلة فيها الكثير من الالتفافات والمنعطفات على ذلك الطريق الطويل المؤدي إلى مكان حمّلته الكثير من الآمال.

هناك أعداد كبيرة من الناس من حولي لكن لا توجد إنارة كافية. تآكلت الطرقات بفعل الأمطار وأصبحت الحفر أكبر. المتراس البنّي المليء بالطحالب على طول القناة الشرقية آيل إلى السقوط: فلقد اختفى كلياً في بعض المواضع، تاركاً مكانه طبقة رقيقة من الحصى الصغيرة. أمشي بجانب القناة وأنا أنظر في مياهها.

كان الماء في الماضي يندفع في القناة قوياً أبيض اللون، وكنا ننظر

Twitter: @alqareah

إليه بكثير من المهابة من على دراجاتنا حيث كنا نضع قدماً من أقدامنا على المتراس لحفظ توازننا.

«في إحدى المرات وقعت بقرة في هذه القناة»، تلفظ عقلة الإصبع بهذه الكلمات بما يشبه الهمس وبكثير من الجدية. «لم يكن في إمكانهم إخراجها. وأخيراً علقت في قفص القناة الحديدي تحت الجسر ثم ماتت».

حلمت على مدى أيام بالبقرة التي علقت في دوار من المياه البيضاء وهو يقذفها مرة تلو المرة في اتجاه قضبان الحديد، إلى أن صبغت دماؤها مياه القناة.

أتابع سيري، أشعر أن خطواتي تزداد اتساعاً بينما أنزل في اتجاه المنحدر. لا تختبئ أي كوابيس في المياه الآن، لا يوجد فيها سوى ذكريات باهتة عن الخوف المرتبط بمرحلة الطفولة. تفتح المتاجر أبوابها في أوقات أبكر مما كنت أظنّ. ابتلعت هذه المتاجر حدائق أشجار الليتشي، كما تقلصت المنازل خلفها وأضحت أصغر حجماً مما تخيلتها في رأسي لسنوات طويلة. اختفى بعضها مع البساتين التي كانت تحيط به، كما اختفت جدرانها البيضاء النظيفة وحلت محلها شقق تشكل كل أربع منها مجموعة سكنية. تضم كل شقة غرفتيْ نوم وحمامين وغرفة جلوس وشرفة صغيرة. لا يستطيع المرء رؤية التلال من على معظم شرفات تلك الشقق. أمشي وأنا أتوقع بين اللحظة

Twitter: @alqareah

والأخرى سطوع الضوء الأصفر الذي كان ينير الدرب المعتم في منطقة سنشاين بيكري لكي أستطيع تلمس طريقي.

بريم راج، وهو أحد سكان منطقة سنشاين بيكري مات، وكذلك والده وجدّه. ذلك الرجل الطويل القامة، هذا الإنسان الطيب؛ الأستاذ ذو النظارات المربعة الشكل، والمنسي، ليس الآن أكثر من صورة على الجدار. انهار بالكامل، عالم سنشاين بيكري خلال الفترة التي كنت فيها بعيداً عنه بكل ما فيه من زجاجات بلورية كبيرة مليئة ببسكويت الرّصك الذي يتم تناوله عادة مع الشاي، والبسكويت المستطيل الشكل و أرغفة خبزه الطازج. ينتابني نتيجة لذلك أيضاً، إحساس غريب بالراحة؛ أخيراً اكتشفت أنني لست الوحيد الذي عانى فقدان أشياء عزيزة على قلبه. أستطيع أن أشارك سنشاين بيكري أحزانها، أستطيع عندما أشعر بالحاجة إلى ذلك، أن أتكئ على جدارها الصلب وأنخرط بالبكاء.

عبر المدينة حيث تبدأ الطرقات بالانحدار والانعطاف، تظهر التلال المكسوّة بأشجار الصنوبر الصغيرة الممتدة في صفوف مستقيمة، تاركة ممرات فسيحة يعبر النور من خلالها. وقفت مرة في تلك البقعة مع والدي، وكانت أعالي الأشجار حينها تلمع بلون أحمر قان بينما كانت الشمس في طريقها إلى الغروب. كان الجو بارداً. ركلتُ برجلي غصناً كان على الأرض؛ وضع يده بحذر شديد على كتفي. كانت يد والدي لا تزال ترتعش. كان قد بدأ لتوّه يتعافى من

Twitter: @alqareah

شعور مديد بالكآبة التي حولت حياته وحياة والدتي إلى جحيم على امتداد خمس سنوات طويلة. أوحت لمسة يده اللطيفة والمرتعشة في تلك الأمسية بتلك الرسالة الهادئة والواثقة التي تقول إنه حتى عندما يصل النهار إلى نهايته، فإن هناك الكثير مما نتطلع إلى تحقيقه. أظن أن شيئاً في مكان ما، في داخلي؛ شيئاً من هذا النوع من الثقة يبقيني متماسكاً. على الأقل أشعر أن لدي منه ما يكفي ليمنعني من الانزلاق نحو الاستسلام بشكل كلي؛ ولولا ذلك، ما كنت لأستطيع العودة إلى منزل تركت فيه مينا أربع عشرة سنة من حياتي معبأة بشكل مرتب داخل صناديق؛ وما كنت لأمتلك الجرأة لترك مكتبي قبل أن ينجح باسو في أن يرفسني إلى خارجه، أو حتى كتابة رد على أي من رسائل روحيني الإلكترونية.

يلمع تمثال لبوذا الغارق في التأمل تحت الأغصان الداكنة لشجرة البيبال المقدسة قرب جامعة فوريست رينجرز. أعيد طلاء التمثال من جديد، وكان البرونز الكلاسيكي الذي صنع منه التمثال قد بدأ بالتآكل. لا أستطيع استيعاب الإحساس بالهيبة والاحترام اللذين كنت أشعر بهما في كل مرة كانت الحافلة التي تحمل الرقم واحد، والتي كان يقودها شامشير باهادور الجندي النيبالي السابق المصاب بالوهن والذي تحول إلى سائق، تصل إلى ذلك الموقع وتتوقف كي تقل ولديْ الدكتور رام ناث وهما صبي نحيل وبنت نحيلة. كان سروال الصبي الرمادي اللون يبدو واسعاً جداً بالنسبة إلى رجليه النحيلتين؛ أما البنت

Twitter: @alqareah

فقد كان قوس الشعر المطاطي يبدو كبيراً جداً بالنسبة إلى رأسها الصغير ذي الشعر الأشعث. كنت أحدق في التمثال البرونزي، متسائلاً عمن يمكن أن يكون وما الذي يعنيه بالنسبة للناس الذين يكونون دائماً هناك قبل وصول الحافلة إلى المعبر؛ الناس الذين يضعون بتلات حمراء وصفراء في تلكما اليدين المسالمتين.

ضاع مني ذلك الإحساس بالمهابة والاحترام. ربما لأن الوقت لم يكن في الصباح الباكر. وربما كان السبب يكمن في الطلاء الجديد الذي ذهب بوقار التمثال؛ أو ربما لأنني أفهم الآن بشكل أفضل تلك الابتسامة اللغز وكأنها تسخر مني، ومن بقية العالم بأسره، ومن غياب المعنى. بدا المشهد وكأن بوذا كان يعلم على طول الخط، أنني سأعود يوماً ما: الولد الذي اعتراه إحساس عارم بالمهابة يوماً، سيعود كرجل هارب في منتصف العمر مع كل أسئلته التي لم يجد لها جواباً.

بعد تمثال بوذا، يأخذني الطريق إلى ذكرى فتاة من الماضي البعيد. كانت كالعادة تلبس وشاحها الأصفر بلون زهرة عباد الشمس تلفه حول زيّها الأبيض، وتزنر خصرها بحزام أحمر. كنت أستطيع رؤيتها من بعيد، وهي تمشي على الطريق المستقيم في اتجاه منطقة باريد غراوند المؤدي إلى مدرستها، التي تضم كنيسة صغيرة مطلية باللون الأصفر. كنت بالغاً حينها إلى درجة أنه كان من المسموح لي أن أخرج من الحافلة بمفردي، وكان إحساسي بالمسؤولية على درجة كافية تسمح لي بقيادة دراجتي إلى ما بعد متجر بياريلال. كنت أنتظرها كل

Twitter: @alqareah

صباح في الساعة السابعة والنصف إلا خمس دقائق. كان العشب لا يزال ندياً تحت عجلات دراجتي، وكانت التلال لا تزال زرقاء تحت ضوء الصباح الباكر كما بدت من فوق السطح المنبسط لنادي دوون. كنت أنتظر هناك إلى أن أراها وهي تمشي في ذلك الطريق المستقيم. أبدأ حينها بقيادة دراجتي، من الطرف الآخر للطريق، مهدئاً من سرعتي بشكل تدريجي وأنا أقترب منها، وأراقبها، راسماً نصف ابتسامة على وجهي، ومقوساً كتفي في اتجاه مقود الدراجة، وأحياناً كنت أقودها من دون أن ألمس المقود. كنت أقول لها خلال تلك الثواني القليلة التي استغرقها مروري بها كل صباح بطرقي الخاصة المختلفة إنني لم أنسَ قطّ لقاءنا في تلك الأمسية عندما تبادلنا حديثاً خاطفاً في المناسبة الاجتماعية الأولى التي أقامتها مدرستي لطالبات الصفوف الأعلى في مدرستها. عندما بدأ الغسق يحط على مروج المدرسة العشبية بهذا الشكل الحزين، الذي يتم فقط في المدارس الداخلية المبنية على التلال، أضيئت الأنوار في جناح الأساتذة ورأيت الظلال الجميلة العميقة تنعكس في عينيها البنّيتين الكبيرتين. في أحد الأيام، أوقفت دراجتي أمامها وأحسست أن قلبي على وشك القفز من فمي.

«أريد أن أسألك عن شيء واحد فقط، وآمل ألا تمانعي في ذلك»، قلت ذلك بسرعة كبيرة لأن أي شيء يمكن أن يحدث على هذا الطريق. فقد كان يشاع أن أخاها المعروف بالنظرة الضارية في عينيه،

Twitter: @alqareah

وبانتصاراته الساحقة في بطولة سباق الدراجات للمسافات الطويلة لاختراق الضاحية، يحمل في جيبه سكين كبّاس.

ابتسمت، ولمعت عيناها.

«هل ستجلسين بجانبي في مناسبة سبتمبر الاجتماعية؟»

«بالتأكيد».

«هل هذا وعد؟»

«حسنٌ».

قدت دراجتي بعدها وأنا أكاد أطير من الفرح؛ كنت أضغط على دواسات الدراجة بعنف، وأنا في طريقي إلى المدرسة متسائلاً لماذا لم أفعل هذا من قبل. لم أكن أجرؤ على إظهار هذا النوع من الشجاعة مرة أخرى. ليس عندما كان يجب عليّ أن أظهر حبي لروحيني بشكل أفضل وأقاتل من أجل أن أتزوجها، وليس عندما كان يجب عليّ أن أتمسك بأنكور وأقول لمينا وراجيف أن يذهبا إلى الجحيم.

الآن، وبينما أقف على حافة باريد غراوند في بداية الطريق الطويل، أستطيع رؤية صفوف من الأكشاك لبيع الفواكه والنباتات والكنزات الصوفية والأشغال اليدوية من أرض التيبيت. عالمي الرحب المفتوح تقطعت أوصاله وتم إغلاقه. وهو الآن معروض للبيع. أما هي، الفتاة التي تلبس وشاحاً بلون زهرة عباد الشمس، فلا أستطيع حتى تذكر اسمها إلا بشق النفس.

Twitter: @alqareah

-٤-

«لماذا لا تشتري له إلا هذه الألعاب العدوانية؟» سألتْ مينا بعد أن فتحت حقيبتي الأرستقراطية الزرقاء التي اشتريتها في إحدى رحلاتي إلى لندن.

«أقول لك إنه ليس أكثر من مسدس مائي».

«إنه بندقية، هذه هي الحقيقة. إنه واحد من الأشياء التي تعلم الأولاد ممارسة العنف فيما بعد».

لا بد لي من القول إن رأيها حول الموضوع تطابق مع آراء موظفي شركة الطيران. فقد استخرجوها من حقيبتي في نقطة التفتيش في مطار هيثرو وطلبوا مني فوراً التنحي جانباً. بعد ذلك قام رجل أمن، على ساعده وشم أخضر على شكل مرساة، بوضع البندقية جانباً بكثير من العناية وبدأ بتفتيش بقية أغراضي في الحقيبة بحركات مدروسة كما لو أنه كان يخاف أن تنفجر في وجهه أي مواد متفجرة بطريق المصادفة. أخيراً وبعد أن اقتنع أنه لا توجد أي مؤشرات على أنني إرهابي خطير في صدد تنفيذ أخطر مهمة في حياتي، وأن البندقية ما هي في واقع الأمر سوى مسدّس مائي، فقد تم وضع لاصق أمني عليها وتسليمها إلى طاقم الطائرة. وقد تم إلقاؤها في ركن الطيار، ولكن قبطان الطائرة كان متفهماً بشكل واضح، لأنه شهد مواقف كثيرة

Twitter: @alqareah

مشابهة، لذا فقد وضعها بنوع من اللامبالاة على الرف؛ وعند الوصول إلى دلهي، قامت إحدى المضيفات بإعادتها لي باسمة وهي تقول مودعة: «استمتع بوقتك يا سيدي».

«في الواقع، إن المسدس لابني».

«بالطبع».

استسلمت لتقريعاتها، وقمت بإخفاء المسدس. لم تكن هناك أي فائدة من النقاش تُرجى مع مينا. كان من الممكن أن تستمر وتستمر؛ وفي النهاية عندما تتصل والدتها، لم يكن هناك مفرّ من سماع الصوت المرتفع في الجانب الآخر من المحادثة وهو يكيل النقد إلى الآباء الذين ليست لديهم مشاعر، ويلمح بشكل واضح إلى مسألة طريقة التربية التي نشأت عليها، وإلى نفسيتي ودوافعي. عندما بلغ أنكور سن السادسة، وجد بالمصادفة المسدس في الدرج السفلي من طاولة الدراسة، حيث كان يبحث عن أقلام التلوين. أخذ المسدس معه إلى منزل جدّته في أحد أيام السبت؛ وبطريقة تذكر بالعدل الإلهي أغرق جدته العجوز بالماء من ذلك المسدس. نشبت مشاجرة ثانية بيني وبين مينا التي كان الغضب قد أخذ منها كل مأخذ في تلك الليلة؛ كانت عروق الدم في عنقها مشدودة ومتوترة. لكن المشاجرات كانت قد وصلت حينها إلى مرحلة لم تعد تؤدّي إلى أي نتيجة؛ فقد كانت تحصل كل يوم، ومن دون أي سبب في معظم الأحيان.

Twitter: @alqareah

في تلك الأيام، لم يعد الواحد منا يفهم الآخر. كانت ضرباً من ضروب العبث محاولة سحبها من يدها وجعلها تجلس على الشرفة، مع كل تلك الأصوات الصادرة عن حركة المرور، والقول لها إنني اشتريت هذا المسدس المائي بسبب مبنى البريد الضخم وراء برج الساعة، حيث أقف الآن تحت الأضواء الزرقاء والبيضاء المنبعثة من لمبات النيون المثبتة بإحكام فوق المرايا المثلثة الشكل على واجهات متاجر الحلويات.

لقد ولجت بسرعة إلى داخل مبنى البريد هذا، وكاد قلبي يثب من بين ضلوعي بعد أن قدت دراجتي بسرعة صعوداً في اتجاه المبنى، وما تلا ذلك من الرعب الذي انتابني ولازمني، منذ أن فتحنا العلبة المصنوعة من الخشب الرقيق التي أحضرها لنا ساعي البريد إندير، عصر ذلك اليوم. راقبتُ والدتي بكثير من الحماسة، وهي توقع على استمارة طويلة تقر فيها باستلام الطرد البريدي بيدها المرتعشة، ثم تقوم بعدها بدفع مبلغ خمس وعشرين روبية لإندير. كان طرداً ممهوراً بعبارة: شخصي جداً؛ وكانت هي قد قامت بطلب إرساله من مدينة جالاندار بناء على إلحاح مني قبل بضعة أيام، وكان عبارة عن مسدس ضغط هوائي ثمنه خمس وعشرون روبية، وجدت إعلاناً عنه في صفحة الغلاف الداخلية في مجلة إللستريتيد ويكلي أوف إنديا. وعدتها بأنني لن أصوبه مطلقاً باتجاه أصدقائي، بل سأستعمله فقط في التدرب على أهداف ثابتة. لم أقل لها إنني أردت اقتناء مسدس

Twitter: @alqareah

كهذا منذ أن رأيت صبياً مراهقاً يقود دراجته بعيداً، يغمره شعور بالانتصار وهو يحمل بيده حمامة كان قد اصطادها بمسدس شبيه بهذا المسدس. قلت لها إن بنادق الضغط الهوائية سيئة؛ إذ إنه من الممكن أن يتسبب المرء للآخرين بالعمى بواسطة بنادق الضغط الهوائي تلك؛ وقد تودي بصاحبها إلى السجن إذا صوب بندقيته وقام بإطلاقها على الرأس أو القلب. لكن مسدس الضغط الهوائي هو شيء مختلف تماماً، فهو أكثر أماناً، وهو مناسب للأولاد. وافقت بعد تردد؛ وقمت بوضع هذه الطلبية بعناية في كوة البريد الحمراء المثبتة على الجدار الخلفي لمنزل الدكتور سيثي.

بعد أن غادَرَنا إندير وعلى وجهه مسحة من خيبة الأمل لأننا لم نفتح العلبة بينما كان ينتظر ويتحدث إلينا قرب البوابة، بدأت بمحاولة فتحها مستخدماً الجزء الخلفي من المطرقة لسحب المسامير التي كانت تثبت فتحة العلبة. داخل العلبة، وتحت طبقات من القش، كان هناك مسدّس أسود على شكل لعبة، وقد غطت فوهته سدادة من الفللين. كان هذا المسدس من النوع الذي يمكن أن يتم ابتياعه من أي مكان مقابل خمس روبيات؛ ولم يكن يبلغ حتى نصف مستوى الإثارة التي وجدناها في المسدسات التي عرضها أماريديب للبيع، وهي من النوع الذي تثبت في فوهته المفرقعات وتطلقها.

غالبتُ دموعي الممزوجة بالغضب والإحساس بالذنب لأنني ضيّعت نقود والدتي التي لم تصدق أن ما تعلنه مجلة إللستريتد ويكلي يمكن

Twitter: @alqareah

أن يكون مخادعاً بهذا الشكل. بحثت عن إندير في كل منطقة مضمار السباق لكنه كان قد اختفى، بعد أن أنهى جولته المعتادة في ذلك اليوم. فكرت في أنه كان عليّ أن أفتح العلبة حينها مباشرة قبل إعطائه النقود. لكن كان الأوان قد فات على ذلك. كانت المرة الأولى في حياتي، ولكنها لم تكن الأخيرة، التي انتابتني فيها المشاعر المُرّة الناجمة عن الخديعة.

قالت والدتي: «ربما استطعت إيقاف تحويل النقود لو نجحت في مقابلة المدير العام للبريد». كانت دوماً لديها ثقة مؤثرة بأولئك المساكين الحزانى الذين يتحملون مسؤوليات بيروقراطية، أمثال مديري البريد ومديري محطات القطار وضباط الشرطة وضباط الجيش وجباة المال في المنطقة. كان هؤلاء يمثلون لها آخر الحُماة والمدافعين عن الفقراء والضعفاء وأصحاب الحق، والمسلحين بالسلطة والالتزام والكفاءة. ولهذا فقد قدت دراجتي صعوداً لأكثر من ثلاثة أميال ونصف الميل، مستخدماً أقصر الطرق التي أعرفها للوصول إلى هناك، ووصلت إلى مكتب المدير العام للبريد الذي كان حينئذ مبنى أصفر اللون تعوزه المهابة، وتتدلى من مكاتبه ستائر ملفوفة صغيرة، كما كانت هناك ساعة مثبتة على برجه الصغير المربع.

تلاقت نظرات مدير مكتب البريد مع نظراتي، وأنا أقف في المكان الذي كانت الستارة الخضراء التي تحجب باب مكتبه قد أزيحت عنه.

Twitter: @alqareah

ولجت إلى داخل المكتب يراودني شعور بالانزعاج أكثر من الخوف. كان يبدو لي رجلاً عجوزاً في آخر أيامه، وكان يلبس سترة رمادية فاتحة اللون، ويضع طربوشاً على رأسه. كانت لحيته التي تومي بالتحفظ من الطول بحيث أنها تصل إلى السلسلة الذهبية التي تنعطف باتجاه جيب سترته. لم أرَ في حياتي رجلاً أكثر تميزاً ولطفاً من هذا الرجل. فقد كنت أتوقع رؤية شخص بدين جداً على صورة إندير، ربما بوشاح أحمر يلفّه حول عنقه، وميدالية نحاسية كبيرة على صدره، وهو جالس على كرسيّ دوار كبير. بدلاً من ذلك، فقد كنت هناك، وجهاً لوجه، أمام رجل مهذب ولطيف؛ كان شكله يوحي بأن المكان الأكثر ملاءمة له هو منتدى شعري يلقي فيه أشعاره باللغة الأوردية، ويتلقى بعدها المديح متبادلاً عبارات الإطراء الراقية مع الآخرين. بشّ في وجهي عندما ولجت إلى المكتب.

«ماذا أستطيع أن أخدمك به أيها الشاب؟»

رويت له لاهثاً وبسرعة كل ما جرى؛ وبعد أن انتهيت، وضعت العلبة الخشبية على طاولة مكتبه ثم أخرجت منها المسدس.

تراجع إلى الخلف بخوف مفتعل، وافترّت شفتاه الرقيقتان عن ابتسامة أخفتها لحيته الكثيفة. بعدها تبين له عمق معاناتي من الخديعة التي وقعت ضحية لها. قام من وراء طاولته، وأمسك بكتفيّ. كانت لحيته تهتز أمام وجهي بعاطفة لطيفة مكبوتة.

Twitter: @alqareah

«أيها الشاب، هذا عالم غريب جداً. لجأتَ إليّ أملاً بأن أساعدك بطريقة ما. لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً بالرغم من أنني أعرف أنه تم خداعك فعلاً. لا بد أن النقود قد دخلت الآن إلى حساب الشركة، واعلم أنه طالما أنك وقعت على وصل استلام الطرد البريدي، فلا توجد أمامنا الكثير من الخيارات. لكنني أتفهم مشاعرك وأنا سعيد لأنك أتيت لتروي لي ما حدث لك، ولأنك شعرت بأن شخصاً ما، في هذا المكان في إمكانه مدّ يد المساعدة لك. هناك الصالح، وهناك الطالح في هذا العالم، والأمل الوحيد لأهل الصلاح هو في بقائهم متكاتفين، يساعد بعضهم البعض الآخر».

أود اليوم رؤية هذا البيروقراطي الفيلسوف، مدير مكتب البريد الذي له لمسة شاعر من مدينة لكناو في إقليم أولتاربراديش، لأقول له إن الصالحين لم يشدّوا يوماً أزر بعضهم بعضاً. فقد كان يجب أن تتم ترقيتي أنا وجوي وظيفياً، وكان يجب أن يُسمح لأنجيلا بالتقاعد بكرامة، بعد سنتين من الآن بعد إقامة حفلات وداع عدة لها، وتقديم ساعة منبّه لها على سبيل الهدية، إضافة إلى بعض كلمات الوداع المؤثرة.

الوقت يتأخر. ألقي نظرة أخيرة على مبنى البريد العام المظلم بعد انتهاء الدوام عدا بعض الضوء في الرواق الخلفي، وهو المكان الذي تودع فيه رسائلك مع تعرفة إضافية إذا أردت إيداعها خارج أوقات الدوام، وهو أيضاً المكان الذي يتكدس فيه البريد بأكياس بنية اللون

Twitter: @alqareah

تنتظر من يقذف بها إلى شاحنات البريد الحمراء اللون. أعرف ذلك لأن كثيراً من الرسائل التي أرسلها والدي إلى إخوته؛ تلك الرسائل التي كان يجب عليّ الاحتفاظ بها لأريها يوماً ما لأنكور، كان يذهب إلى ذلك الرواق الخلفي ليودعها فيه بعد أن يدفع تعرفة إضافية عليها.

غداً سأذهب إلى شارع شاكراتا، وهو الزقاق القاتل الملتف الذي يشطر هذه المدينة إلى شطرين. أتساءل في ما إذا كانت المتاجر القديمة فيه لا تزال موجودة. ربما تمّ شراؤها وتوسيعها، أو تقطيعها إلى متاجر أقل حجماً. كان هناك اثنان من الصيادلة يتنافسان في ما بينهما، وأيضاً متجر بيع الحلويات المصنوعة من الحليب والفواكه المجففة المشهورة بأنها تذوب في الفم. كما كان يوجد متجران لبيع الأدوات الرياضية التي كان يسيل لعابي وأنا أحلم بشراء مضرب كريكيت من واحد منها، كنت سأدهنه بزيت بذور الكتان الذي يمكن شراؤه من متجر الخردوات. بعد بضعة أسابيع من تزييت المضرب، وضرب كرة الكريكيت القديمة به سوف يترك على سطحه أثراً لبقعة جميلة. لم يعد أحد يقوم بذلك بعد الآن؛ فالباعة الذين اشتريت منهم طاحونة الدّوْس في سوق لودهي هم أنفسهم الذين باعوا أنكور أول مضرب كريكيت اقتناه لنفسه. إنه عصر السرعة، ولذا فلا حاجة للمرء أن يقضي الساعات الطوال لدهن المضرب بالزيت. إن غياب كل ذلك، أفقد لعبة الكريكيت نصف متعتها.

Twitter: @alqareah

-٥-

آخر رسالة إلكترونية استلمتها من روحيني كانت طويلة وغير متوترة. استلمتها قبل ساعات من قيامي بلمّ كافة أغراضي عن طاولة المكتب ومن الدروج والرفوف، وقبل مسح كل شيء من الحاسوب وتمزيق الصفحات الثلاث من مفكرتي التي أعادت جوي كتابتها إلى قطع صغيرة.

الحياة جميلة هنا، وأشعر بالسعادة في كل ما قمت به. توقفت عن التفكير في ما هو خطأ وما هو صواب. للمرة الأولى، أعرف أنني سعيدة.

يخيّل إليّ أنني كنت هنا مراراً كثيرة قبل الآن، وأنني قمت بمشاهدة هذا الوادي في العديد من الأمسيات، أراقب وقت الغروب... أشعر بأنني مشيت قبل الآن على تلك الدروب الضيقة في التلال، وأنني وقفت على قمة منعطف حاد في أعلى الجبل، وأنا أنظر إلى آثار معمل الجعة القديم، وقست بعينيّ أطوال ظلال شواهد القبور في المقبرة القديمة على طريق الجِمال الخلفي... ربما أعزو هذا إلى أنك كنت تصف لي العديد من هذه الأمكنة، وكنت تحكي لي عن النزهات التي كنت تقوم بها هنا، وعن قضائك أيام العُطل في هذه التلال.

أستمتع بالتدريس. الفتيات هنا رائعات، والمدرسة ممتازة؛ أقضي معظم فترات العصر وحدي، كما أحب أن أقضيها في المكتبة... لها

Twitter: @alqareah

نوافذ شبه دائرية تشرف على أروع منظر لقمم التلال في الأيام التي تكون فيها السماء صافية، وحتى عندما لا تكون صافية، أحب مشاهدة الغيوم وهي تتجمع في الوادي، وترتفع في اتجاه الطريق الذي يمر تحت المدرسة. يقولون لي إن الثلوج تهطل بكثافة في الشتاء وتبقى عالقة على الأرض. نحن في موقع أكثر ارتفاعاً من المركز التجاري، والحمد لله، وهذا يعني ثلجاً أكثر وسيّاحاً أقلّ.

خصصوا لي غرفة مريحة... هي جزء من البرج القديم وفيها جدار منحن تتوسطه نافذة من الطراز القديم تحتوي على إفريز. وهذه النافذةٌ هي، كما تعرف، من ذلك النوع الذي يفترض أن تنظر من خلالها الأميرات الأسيرات إلى القمر المنير بانتظار منقذيهنّ كي يأتوا ويخلصوهنّ من الأسر... بالنسبة إليّ، أشعر وكأنني أستطيع البقاء هنا للأبد. أشعر هنا بالسلام.

إنها الآن معلمة؛ ولها غرفة خاصة بها في مدرسة داخلية للبنات في منطقة موسوري التي يصل المرء إليها بواسطة طريق يتجه صعوداً صوب أعلى التلة، وهناك مقهى صغير قرب بوابتها، في إحدى زوايا التلال التي أستطيع رؤيتها الآن. لو أنني أنظر بتمعن في فترة المساء، فلربما سيكون في استطاعتي تمييز أضواء مدرستها. إنها جد قريبة مني، أستطيع قطع المسافة إليها خلال سبع أو ثماني ساعات من المشي، أما إذا استخدمت الحافلة، فسأصل إلى هناك في غضون ساعة أو ساعتين. هل كنت أنا من حثّها على الذهاب إلى هناك، كي

Twitter: @alqareah

تصبح معلمة لها غرفتها الخاصة بها، مثل معلمة الصف الرابع التي اندسّت في مكان ما من ذاكرتي منذ سنة ١٩٦٦، في تلك المدرسة التي كانت مملوكة لأحد النبلاء من سكان التلال؟

تقع تلك المدرسة في الجانب الآخر من المدينة عبر شارع شاكراتا بين أشجار الصنوبر. ذلك الجزء من المدينة هو مجمع عسكري كبير، طرقاته مرتبة ومُنَصّفةٌ بأشجار نصف جذوعها مطلية باللون القرميدي، أما أعالي تلك الأشجار فكانت مزينة بأطواق بيضاء تعكس أضواء المصابيح الأمامية للسيارات، عندما كانت تلك السيارات تجوب الطرقات الخالية ليلاً.

قبل وقت طويل مضى، أصبحت تلميذاً في تلك المدرسة للمرة الأولى، تلميذاً جديداً من دلهي، صبيّاً يلبس سروالاً قصيراً وقميصاً، وكان لا يزال أمامه بعض الوقت قبل أن يتعين عليه ارتداء السروال القصير الرمادي الفضفاض كجزء من زي المدرسة الرسمي. أخذني تشاندير الخادم في مكتب مدير المدرسة، إلى صفي الذي كان يحمل رقم (٣/ب)؛ كانت غرفة الصف مشمسة وتحتوي على مكاتب خشبية بنية اللون ومقاعد مستطيلة. لا تزال هذه الغرفة موجودة حتى الآن بالرغم من أن رقمها لم يعد (٣/ب) الآن. أتساءل أين يمكن أن يكون ذلك الصبي الذي هتف بإعجاب عند دخولي الصف للمرة الأولى «يا سيدي، يا سيدي، الصبي الجديد يضع ساعة في معصمه»، أو ذلك المدرس بشاربيه الدقيقي الطرفين وشعره الذي يشبه شعر إلفيس

Twitter: @alqareah

بريسلي، الذي علّقَ قائلاً: «نعم إنه ليس مثلكم أيها الأولاد؛ فهو من دلهي».

ها أنا من جديد، قادم من دلهي؛ ولكن في هذه المرة، أصطحب أشياء جديدة لن يحسدني عليها أحد. فأنا أصطحب هموم منتصف العمر الخاصة بي، ومعدلاً عالياً من السكر في دمي. جئت هذه المرة وأنا أحمل بين يديّ شذرات عشرين سنة. أتيت تحدوني جذوة ضئيلة من الأمل، مترافقة مع إحساس عارم بالخوف يحمله شخص علمته التجارب أن لا يثق بالآمال. لا أحد على الإطلاق، ولا حتى أي من الأشباح التي تتدلى من تلك الشجرة العملاقة بجانب غرفة الصف الصغيرة، يرغب في أن يشاركني أياً ممّا أحمله الآن. فكل ما تعلمته، وكل ما أضعته، وكل ما أحنّ إليه هو لي؛ لي وحدي؛ وأنا حرّ في أن أحتفظ به أو أرميه في أقرب حفرة.

جلسنا على الدائرة الإسمنتية حول الشجرة وأكلنا الخبز المحشو بالخضار والتوابل والمخلل المصنوع من المانغو، وارتجلنا لعبة الخارجين عن القانون، ذلك أننا كنّا أنهينا لتوّنا قراءة رواية روبين هود ورجاله المرحين.

كنت أركض وراء غيتا حول الشجرة؛ كانت غيتا هذه، هي زميلتي المغناج التي اختطفت طائرة كنت قد صنعتها من علب الكبريت وأغطية علب الشاي المصنوعة من القصدير. هكذا بدأ الغزل بيننا

Twitter: @alqareah

وانتهى: حول الشجرة؛ وعندما تكسرت الطائرة بينما كنت أخطفها من بين يديها، لاحظت في عينيها إحساساً بالذنب والخوف والعاطفة. امتطيت دراجتي يوماً إلى مدينة كليمينت وتبعتها إلى ذلك المنزل الكبير الذي كانت تقطن فيه مع والدها. رافقني عقلة الإصبع في الطريق. استهوت هذه الفكرة روحه المتأثرة جداً بأفلام السينما: ملاحقة المحبوبة على دراجة هوائية مترافقة مع شدو أغانٍ من فيلم ميري سانام. وجدنا المنزل حيث تقطن، وقرأنا اسم والدها على لوحة مربوطة بشريطين معقوفين على بوابة شبه مغطاة بزهور الغابة البرية؛ ونظراً لأننا لم نعرف ماذا سنفعل بعد ذلك، عدنا أدراجنا في رحلة عودة نقطع فيها مسافات طويلة للوصول إلى منازلنا في الوقت الذي كانت تصدح الأغاني الحزينة المسجلة على الشريط الخامس عشر بقوة في عقولنا.

انتهت السنة الدراسية، وتمّ استبدال معلمنا. البديل كان معلمة جميلة تخرجت حديثاً من معهد التعليم وكلفت بتدريس الصف الرابع. خصصوا لها غرفة في جناح الأساتذة عبر ساحة المدرسة المقابلة لغرفة الصف.

لا تزال تلك الغرفة جزءاً من جناح الأساتذة. لا بد أن أحد المدرسين الأصغر مني سناً بكثير يسكن فيها الآن. أتوقف لبرهة كي أنظر إلى ذلك الجناح. عندما أرسلتني إلى تلك الغرفة لأحضر لها

Twitter: @alqareah

المفاتيح، كانت ببساطة كمن يطلب من أي تلميذ في التاسعة من عمره أن يقوم بأي مهمة روتينية؛ تلميذ مطيع، لديه حسّ بالمسؤولية، وفي منتهى التنظيم، عمره لا يتجاوز السنين التسع يجلس في آخر الصف لأنه كان طويل القامة، والذي تحسّنَت كتابته بخط اليد بشكل لافت للنظر خلال الأشهر الستة الأخيرة التي قامت فيها بتدريسه، والذي دائماً يحاول بذل أقصى جهده كي يكون أداؤه مُرضياً. عندما ذهبت إلى الغرفة كي أحضر المفاتيح من على مِزينتها، أدهشني سحرها وأنوثتها النظيفة وروائحها العُذرية. كان سريرها في الزاوية ناعماً ومرتباً. وكان خُفّاها متكئَيْن على الجدار بالقرب من زوج أحذية أبيض مصنوع من قماش القنب. كانت فوق مِزينتها المصنوعة من الخشب الثقيل الوزن القديم الطراز كل الأشياء الجميلة من أمشاط وفراشٍ لتصفيف الشعر وعلب بودرة وأقمشة مطرزة؛ وكانت فوقها مرآة بيضوية الشكل غير ثابتة. كانت الغرفة تعبق برائحة مسحوق الطّلّق المعطر ورائحة العطر، العطر المنبعث من مؤخرة عنقها. وهي تلك الرائحة التي تتعشق بالقلب وتشكل اليقظة الأولى للرغبة.

أكثر من ثلاثين سنة مرت، ولا تزال الأشجار كلها باسقة، ارتفعت خلالها الجدران الفاصلة مكان الشرفات المفتوحة؛ ولا أحد هنا يتذكر حتى اسم المعلمة الشابة التي كانت تقطن في جناح الأساتذة ذاك. أريد أن أتحدث عنها لأحد ما. أريد أن أبحث عنها في هذه البلدة ذات المنازل المتداعية والبساتين التي أضحت أثراً بعد عين،

Twitter: @alqareah

وأخبرها عما فعلته بي عندما أرسلتني إلى غرفتها في ذلك اليوم، قبل أن تحطم قلبي بزواجها من السيد وايت.

يبدأ دائماً كل شيء هناك؛ في بداية حدوث الأشياء. لا نستطيع مطلقاً تخطي تلك البدايات. إنها تستمر في التسكع في ذاكرتنا، وتعذبنا. نحاول بطرق غير مألوفة أن نحياها من جديد، وأن نترجمها إلى واقع ملموس يقودنا إلى نهايات شبيهة بالقصص الخرافية. لكن القصص الخرافية لا يُتَوقّع أن تحدث في الواقع. تتحول البدايات السعيدة العَطِرة الواحدة تلو الأخرى إلى نهايات تعيسة؛ إنها تصبح مُرّةً ثم تذوي وتموت. ولا يبقى أمام المرء الكثير لكي يقوم به سوى قذف كل ما بقي لتلتهمه النيران. دعِ الحرارة الملتهبة التي تأكل الأخضر واليابس تحيل إلى رماد، ما كان على وشك الموت وما كان لا يزال على قيد الحياة، وما كان صواباً وما كان خطأ. بعد ذلك يمكن جمع رماد الماضي، وبقايا العظام الصغيرة التي أثبتت مقاومتها لذلك اللهب، وبقايا الذكريات والعواطف والوعود، ووضعها في كيس، ومن ثم إفراغها في أحد الأنهار المُقدّسة التي يتدفق فيها ومعها الزمن الذي يحمل في طياته الأيام والليالي والشهور والسنين وأعياد الميلاد وذكرى المناسبات. وعندما تشرق الشمس من جديد، وعندما يدهش أول عصفور نفسه بزقزقته الأولى وهو يحط على غصن طريّ تبرعم عليه الأوراق الغضة، يولد أمل جديد. إنه اللهب الذي يومض ثم يخبو ثم يومض من جديد مع اللمسة الأولى للشفق الوردي.

Twitter: @alqareah

إن فكرة لقاء روحيني هي ذلك الأمل. لا أجرؤ على التفكير في ما ستؤول إليه أيامي وليالي بعد ذلك. لا أجرؤ على التفكير في النكوث بأي وعد من جديد، هذا هو الوعد الوحيد الذي يمكنني أن أقطعه على نفسي...

عندما ألتقي أخيراً السيدة وايت، أخبرها عن قطع الكراميل العشر التي ربحتها من زوجها في مسابقة في المعلومات العامة. أخبرها أنني لم آكل قطع الحلوى تلك؛ بل احتفظت بها كغنائم ثمينة في علبة لا أستطيع أن أتذكر مكانها الآن بالضبط، وهي العلبة التي توجد على غطائها صور الحافلات الحمراء الكبيرة، ونبع فلورا، والشوارع العريضة، الفارغة، والسيارات السوداء التي تسير ببطء. إنها ليست بومباي تلك، التي تضج بالحركة وتزخر بالنشاط كما عهدتها في أيامي في منطقة سنشاين تيرس، بل بومباي المسالمة الآمنة. يوجد داخل العلبة أيضاً زوجان من الأزرار المعدنية للأكمام قام أحدهم بإهدائي إياهما؛ وهناك أيضاً نصف زجاجة من الكولونيا بالكلمات السحرية «ذلك الرجل، باريس» مكتوبة على لاصق مطبوع عليه رسم لرجل أخرق في معطف فضفاض معتمر قبعة، كما يوجد فيها قلم حبر ناشف من نوع باركر باللونين الأحمر والفضي، وسكين كبّاس صغيرة وكرة مخيطة بخيوط قوية جداً، وفيها طبعاً عدد من الكرات البلورية بما في ذلك كرة الدوديا. وضعت قطع الكراميل العشر في تلك العلبة وخبأتها في خزانة تحت

Twitter: @alqareah

قمصاني إلى أن تسلل النمل إليها فكان لا بد من نزعها بعد أن التصقت لزوجتها على قعر العلبة ورميها بعيداً.

تبتسم بشيء من التكلف. أعرف أنها تفكر الآن في زوجها. تخبرني أنه مات قبل خمس سنين بالسكتة القلبية؛ ذلك الرجل الرياضي المرح الذي لم تكن لديه أي مشاكل في هذا العالم والذي قضى أيامه وهو يقدم قطع الكراميل للأولاد الصغار، ويراقبهم وهم يفتلونها ويذيبونها في أفواههم. كيف يمكن لشخص كهذا أن يموت بالسكتة القلبية؟

أراقبها وهي تمشي مبتعدة عني. يخفق الساري الأصفر الشاحب الذي ترتديه في الهواء الذي يهب عصر ذلك اليوم. إنها نحيلة وأقصر مما كنت أذكر. شعرها مصبوغ باللون الأسود. أرى من فوق كتفيها أنها ليست أكثر من ظل لامرأة شابة تلبس تنورة بيضاء وفوقها معطف وهي تمشي عبر ملعب كرة القدم، كي تفتح أبواب المكتبة في المبنى القديم المبني من الآجر؛ إنها ناعمة وجميلة ونظارتاها الداكنتان تشبهان نظّارتي جاكي كنيدي. إنها تصعد الآن عتبات السلم باتجاه مكتبها، مكتب نائب المدير؛ وعندما تصل إلى منعطف في الدرج المؤدي إلى مكتبها تستدير باتجاهي وتلوح لي مودعة مرة أخرى. أحنّ إلى ذكرى رائحة عطرها الذي تَعَشّق بقلبي الصغير.

كان الهواء خارج المدرسة لا يزال منعشاً ويعبق برائحة نفاذة تنبعث من ذلك الغموض الرطب، داخل تلك الأدغال الخضراء، التي تغطي

Twitter: @alqareah

الوادي الصغير الشديد الانحدار وراء المدرسة. ما زلت أستطيع الإحساس بوخز الأشواك التي علقت على كنزتي من تلك الأدغال عند الأكتاف، وبالعلّيق الذي التصق ببنطالي الصوفي الشتوي مخلفاً ما يشبه الدبابيس التي كان عليّ انتزاعها واحداً واحداً في رحلة العودة إلى المنزل في الحافلة.

غداً، سأصعد إلى تلك التلال كما في الأيام الخوالي، ومنها إلى موسوري. سأستقل الحافلة إلى راجبور حتى أصل إلى الطريق الطويل المتجه إلى أعلى التل، حيث توجد بعض المتاجر والمنازل. ومن هناك سأبدأ المشي. أريد أن أشعر بكل خطوة أخطوها، أريد أن تؤلمني رجلاي، أريد أن أتوقف لأنال قسطاً من الراحة بين الحين والآخر وأنظر إلى الخلف. أنظر إلى الخلف لأرى كل ما تركته ورائي، أنظر إلى الوادي وهو يتهاوى أمامي، ويختفي رويداً رويداً. أتمعن في أفق رؤيتي التي تتسع بشكل تدريجي لتتراءى لها الشمس التي تتلألأ أشعتها على الماء في مكان ما. أترك ورائي كل الانتصارات الساحقة التي حققتها في طفولتي على مضمار السباق العريض، بما يكفي لاستيعاب الشاحنات الصغيرة التي تعمل في مناجم الأحجار الكلسية؛ وأحفر بالإزميل محدثاً جروحاً بيضاء في تلك الصخرة الأبدية. سآخذ قسطاً بسيطاً من الراحة في هافوي هاوس إذا كان لا يزال في مكانه، بطاولاته القليلة والشاي والحلويات التي يقدمها للزبائن، ودعايات الأفلام، والأولاد الذين يلعبون البليارد. سأتسلق تلك الأشجار

Twitter: @alqareah

المتشابكة الأغصان حيث الهواء المنعش، والممتدة على طول سكة القطار المُهمَلة التي تقع بعد المدرسة التي كانت مخصصة لأبناء العاملين على الخطوط الحديدية. سأعمل على إجهاد نفسي وأنا أتجه صعوداً صوب قمم الصخور، في الوقت الذي سينفجر فيه صدري وأنا في طريقي إلى البازار الذي تفوح منه رائحة الخبز المغمس بالحليب الطازج، والشوكولاتة بالحليب المصنعة منزلياً، وأتحسس الغيوم وهي تلامس برطوبتها الجلد الحارّ حول عنقي.

ثم، بعد كل تلك السنين، سوف أمضي للقاء روحيني، كي أرى ابتسامتها، وأتحسس لمسة يدها، وأشاركها مشاهدة منظر الغروب من فوق خرائب معمل الجعة المهجور.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث
National Council for Culture, Arts and Heritage

Translation Center No. 6

هذه الرواية، هي الأولى للكاتب نافتيج سارنا، تأخذ القارئ إلى أعماق شخص لم يرتقِ إلى مستوى مبادئه. مع بداية الألفية الجديدة يبلغ أفتاب شاندرا الأربعين من عمره. ينفجر العالم في وجهه، إذ تهجره زوجته إلى أعز أصدقائه. وإذ يشعر أن العالم من حوله بدأ ينهار، يبحر بعيدًا في عالم الذكريات. تتراءى له حبيبته الأولى التي خانها ليتزوج زواجاً تقليدياً و يكتشف فيما بعد أنه خان نفسه ومشاعره. تصور الرواية رحلة أفتاب باتجاه الماضي ومحاولته سبر أعماق وخفايا ذاته، وتأخذه إلى عالم طفولته. كان القطار الذي أقلّه إلى موطنه الأصلي العربة الموازية لقطار ذاكرته التي أقلّته إلى عالم أفلت منه ليهرب من ذات خانته إلى ذات أخرى خانها كي يستطيع أن يتصالح مع نفسه. هذا الهرب هو ضرب من ضروب جلد الذات بغية الحصول على نعمة التطهر من وحول تجربته الشخصية. يستخدم الكاتب تقنية الاسترجاع وتيار اللاوعي، كما يستعمل تقنية الراوي بصيغة "الأنا". يبرر سارنا ذلك بقوله: "إن هذا النمط يأخذني بعيداً إلى أعمق المواضع في عقل الشخصية الرئيسية وأكثرها مرارة وعزلة؛ إنه يأخذني إلى نقطة الغثيان الأخير". الرواية هي رسم واقعي لمجتمع دلهي المادي المتوحش بشخوصه الواقعية والمحلية. لكن الواضح أن محلية شخوص هذا العمل امتداد لمادية العالم الحديث التي جرفت المجتمع الهندي في طريقها. عنوان الرواية، اعتذاري بامتياز: فهو يعبر عن خجل من حاضر غير مشرف، وحنين إلى ماضٍ لن يعود. وما بين غياب الماضي ووحشية الحاضر، لا يبدو المستقبل واعداً أو مبشراً بالأمان.

Doha 2006